BnF Gallica

[Mzn al-zamn wa-qiss abadiyya al-insn] / [Yuhanna Usabyus Nirambark] ; [Istara haihi al-nusa min [...]

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

BnF Gallica

Nieremberg, Juan Eusebio (1595-1658). Auteur du texte. [Mzn al-zamn wa-qiss abadiyya al-insn] / [Yuhanna Usabyus Nirambark] ; [Istara haihi al-nusa min al-luat al-liyya ilá al-luat al-arabiyyat Burus Farm]. 1733-1734.

1/ Les contenus accessibles sur le site Gallica sont pour la plupart des reproductions numériques d'oeuvres tombées dans le domaine public provenant des collections de la BnF. Leur réutilisation s'inscrit dans le cadre de la loi n°78-753 du 17 juillet 1978 :
- La réutilisation non commerciale de ces contenus ou dans le cadre d'une publication académique ou scientifique est libre et gratuite dans le respect de la législation en vigueur et notamment du maintien de la mention de source des contenus telle que précisée ci-après : « Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France » ou « Source gallica.bnf.fr / BnF ».
- La réutilisation commerciale de ces contenus est payante et fait l'objet d'une licence. Est entendue par réutilisation commerciale la revente de contenus sous forme de produits élaborés ou de fourniture de service ou toute autre réutilisation des contenus générant directement des revenus : publication vendue (à l'exception des ouvrages académiques ou scientifiques), une exposition, une production audiovisuelle, un service ou un produit payant, un support à vocation promotionnelle etc.

CLIQUER ICI POUR ACCÉDER AUX TARIFS ET À LA LICENCE

2/ Les contenus de Gallica sont la propriété de la BnF au sens de l'article L.2112-1 du code général de la propriété des personnes publiques.

3/ Quelques contenus sont soumis à un régime de réutilisation particulier. Il s'agit :

- des reproductions de documents protégés par un droit d'auteur appartenant à un tiers. Ces documents ne peuvent être réutilisés, sauf dans le cadre de la copie privée, sans l'autorisation préalable du titulaire des droits.
- des reproductions de documents conservés dans les bibliothèques ou autres institutions partenaires. Ceux-ci sont signalés par la mention Source gallica.BnF.fr / Bibliothèque municipale de ... (ou autre partenaire). L'utilisateur est invité à s'informer auprès de ces bibliothèques de leurs conditions de réutilisation.

4/ Gallica constitue une base de données, dont la BnF est le producteur, protégée au sens des articles L341-1 et suivants du code de la propriété intellectuelle.

5/ Les présentes conditions d'utilisation des contenus de Gallica sont régies par la loi française. En cas de réutilisation prévue dans un autre pays, il appartient à chaque utilisateur de vérifier la conformité de son projet avec le droit de ce pays.

6/ L'utilisateur s'engage à respecter les présentes conditions d'utilisation ainsi que la législation en vigueur, notamment en matière de propriété intellectuelle. En cas de non respect de ces dispositions, il est notamment passible d'une amende prévue par la loi du 17 juillet 1978.

7/ Pour obtenir un document de Gallica en haute définition, contacter
utilisation.commerciale@bnf.fr.

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

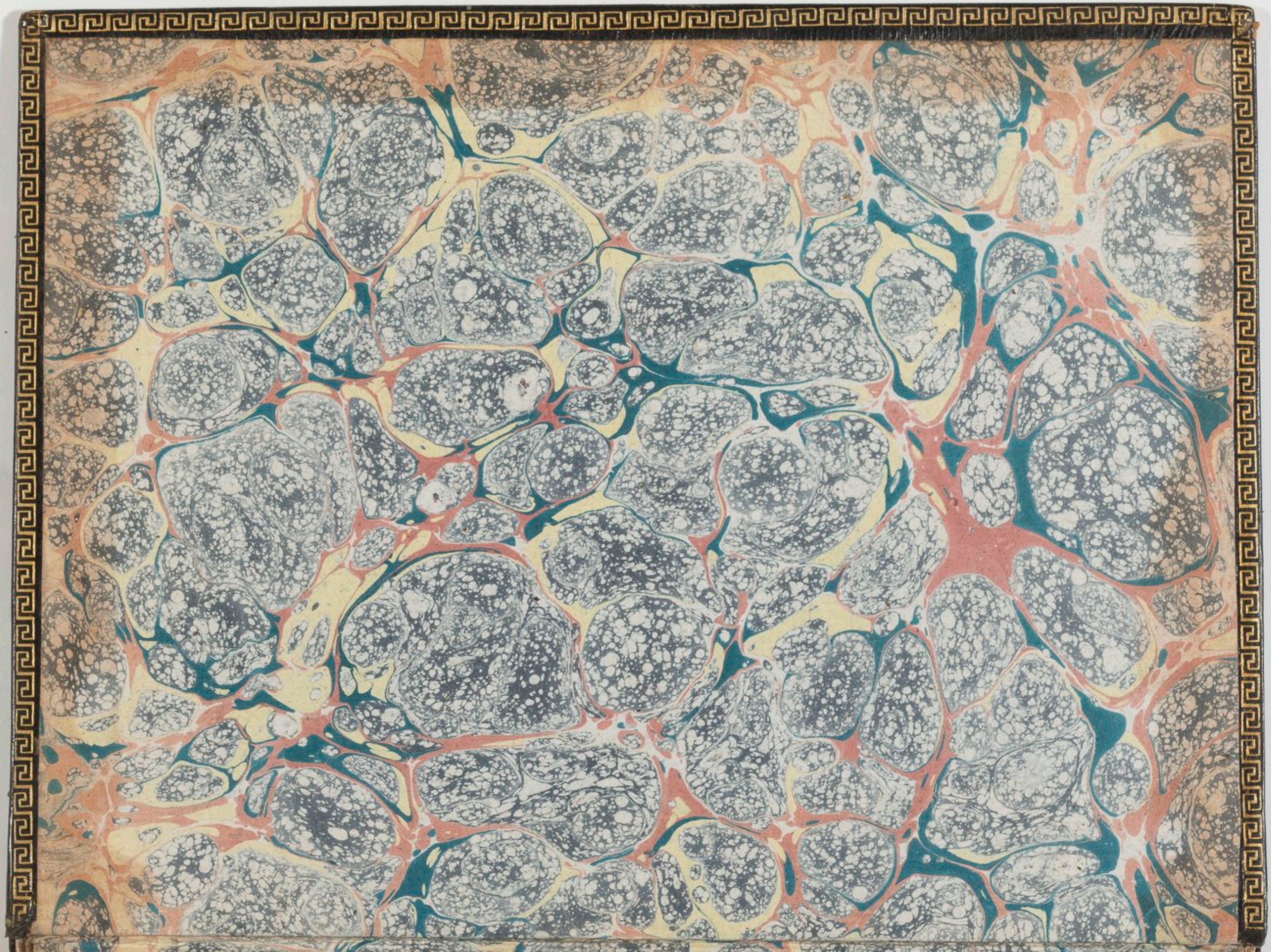

ميزان الزمان ... , mîzânou'l-Zemân ...

[Balance du temps et équilibre de l'éternité de l'homme]

— Montagne des Druses (Saida), au couvent de St Jean Baptiste (Chouair), 1733-34, in-4°.

C'est l'ouvrage du P. Jésuite Jean-Eusèbe Rubemberg qui a pour titre : ~~en espagnol~~ Lutte entre le temporel et l'éternel ~~a été~~ et qui a été traduit en italien, et de l'italien en arabe par le P. Fromage)

(Cf. page 3 lignes 9-10 en bas)

BIBLIOTHÈQUE ROYALE

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذى منح الانسان ميزان الحكم العقلى لادراك صحة الاوزان * وامده بنور المعرفة والبرهان الجلى ليميز مابين عظمة الامور الابدية وخساسة اشيا هذا الزمان * حمدًا يعصمنا من الضلالة والزيغان * فيما يتردد مابين ربح وخسران ورجحان ونقصان * ويرفعنا باعتبار الامور الابدية عن حضيض الاشيا الزمنية الي اوج الجنان * ويكسونا رداء المحبة من تحت نطاق الرجاء بنور الايمان امين *

وبعد فانه لما كان اجل ما يعتبر في اصلاح حيوة الانسان * وافضل ما يلزم لصونه من الضلال والخطل والطغيان * هو حقيقة معرفة ما يوجد من الفرق ما بين الاشيا الزمنية والاشيا الابدية * وانه على هذه المعرفة قد تاسس احتقار اولياء الله جميع ما يتعلق بهذه الحيوة حتي هذه الحيوة عينها * واعتبارهم ما يختص بالحيوة الاخرى والاشيا الابدية الفضلى * حيث انه من قبل هذه المعرفة حكم الاباء المجاهدون * والشهدا والمعترفون * والنساك والصديقون * باحتقار كل ما هو زايل مع الزمن * واعتبار كل ما هو ثابت الي الابد * فلذلك وجب ان

يقدم

يقدم لافادة الشعب المومن اولاً هذا الكتاب الجليل * المسمى
بميزان الزمان وقسطاس ابدية الانسان * لتضمنه ايضاح
هذه المعرفة الضرورية جداً لانتباه كثيرين من الذين لا يفتكرون
فيما هي الامور الابدية * حتي لا ينتبهون ايضاً الي بطلان الاشيا
الزمنيّة * فدونكه ايها المومن الحبيب بمنزلة منبهٍ ضروري
لصونك من الضلالة والانخداع فيما تلتزم بممارسته والتصرف به
من الامور العالميّة * ويقتضيه خلاصك وغايتك السعيدة من
اعتبار الامور السّماوية * فقد حوى من المضامين الموثقة ما ثبت
ببرهان التوكيد والتحقيق * ومن الاخبار المرهبة المرعبة ما
تويد بادلة عهود التصديق * فهو الدرة التي يجب ان يباع ما
سواها لتبتاع * وان يهمل ما عداها لتلاع * وانه لارج تجارة
للخاطي في دعوته وعودته * وانهج طريقاً للتايب في نموه
بكمال توبته * واعلم ان هذه النسخة قد استخرجت جديداً
من اللغة الايطاليانيّة الي هذه اللغة العربيّة * استخراجاً
مضبوط النقل بالتدقيق * مطابق الاصل على التحقيق * فلا
اعتماد علي تلك النسخة الاولى المكتتبة * المشحونة من التحريف
والغلط والتبديل والشطط * وقد طبعت بعد ضبط اعرابها *
لتمتد افادتها الي الجميع * وليسهل اقتناوها علي كل ذي قدرٍ
ووضيع * وكان طبعها في دير القديس يوحنا الصابغ الملقب

بدير الشوير * في جبل الدروز من معاملة صيدا * سنة الف وسبعماية وثلث وثلثين للتجسد الالهي * وقد يرجو كل من لهُ تعب بمباشرة هذا العمل وطبع هذا الكتاب الدعاء بالرحمة من كل اخٍ مومن وقف عليه او اقتناه لنفسهِ * ولله وحده الحمد الموبد والثناء السرمد امين

المقدمة

في من هو مولف هذا الكتاب وايضاح دعوتهِ

وقداسة سيرته

اعلم ان مولف هذا الكتاب هو راهب يسوعي يدعي يوحنا اوسابيوس نيرامبرك * قد ولد في بلاد يسبانيا من والدين نمساويين * في سنة الف وخمسماية وتسعين للتجسد الالهي * واذ بلغ من العمر اربع وعشرين سنة * دخل رهبنة اليسوعية وذلك في سنة الف وسبعماية واربع عشر للتاريخ المذكور * وسبب دخولهِ هذه الرهبنة * هو انه اذ قصد السلوك بطريق الكمال المسيحي وحسن العبادة * التجاء الى والدة الله المجيدة التي كان متعبدًا لها بعبادةٍ عظمى * طالبًا من مرشدتهِ الالهية ان تريه الطريق التي تريد ان يسلك فيها * فاستجابت البتول الطوبانية طلبته * وبخطابٍ سري شعريهِ باطنًا * اشارت

اليهِ بان مشية الله فيه هي ان يترهب في الرهبنة الملقبة باسم
ابنها القدوس * فقصد الرهبنة المذكورة * وقبل في دير
المبتدئين *
غيران الروح الشرير اذ راى في حقل الرب هذا الزرع الجيد *
افرغ كل جهد وجد في استيصالهِ وقلعهِ * وذلك ان ابا
اوسابيوس المذكور حينما درى بترهب ابنه * التجأ حالاً الى
اكابر الدولة وحكام المملكة والي قاصد الحبر الاعظم *
مدعياً بان الرهبان اليسوعية خدعوا ابنه واجتذبوه الى
رهبنتهم مكراً وتحيلاً * فامر قاصد البابا بان يرجع اوسابيوس
الي بيت ابيه ليفحص عن حقيقة دعوتهِ * فعاد المبتدئ الى
بيت ابيه * وحينئذٍ شرع ابواه يخاطبانهِ بكل ما يمكن ان تخترعه
المحبة الطبيعية * ليلينا بذلك قلبه ويعطفاه الي قبول طلبتهما *
بل تضرعا اليه بدموعٍ بالاّ يعجل الموت عليهما بترهبه * ثم
اظهرا لهُ وراثته الوافرة والرتب العالمية السامية المعدة لهُ اذا مكث
في العالم * غيران هذه الامور جميعها لم توثر في قلبه * ولم تعطفه
اصلاً عن قصده * فلما راى ابواه عدم نجاح قصدهما * وتحققا ان
دعوته من الله هي * ارتضيا بها * وباذنهما ارتجع اوسابيوس الي
دير المبتدئين *
وحينئذٍ شرع يمارس رياضات الرهبنة بنشاطٍ عظيم * لاسيما

رياضات احتقار الذات * ولاكتساب كمال هذه الفضيلة خدم
طباخ الدير اربعة عشر شهرًا في احقر امور وظيفته * لابسًا
ثيابًا رثة براسٍ مكشوف غالبًا * او بغطى حقير اذ كان
يخرج الي المدينة ليبتاع لوازم وظيفته * وقد كان الريس
امر بالطاعة لاحد المبتدئين * فهذا اوصى يومًا اوسابيوس
بالاّ يتكلم دون اخذ الاجازة منه * فاستمر المجاهد عشرين يومًا
صامتًا لم ينطق بكلمةٍ الاّ في محل اعترافه *
فبعد كمال سنتي التجربة * ندر الندور الرهبانيّة * وارسل الي
المدرسة ليتمهر في العلوم الفلسفية واللاهوتية * فكان اجتهاده
في اكتسابها مقترنًا برغبة جزيلة وشوق حار لاكتساب
الفضايل * وذلك بممارسة رياضات الصلوة العقليّة والاماتة *
لانه في مدة كونه في المدرسة جميعها كان يصرف كل يوم في
الصلوة العقلية اربع ساعات * اما بعد كمال هذه المدة فخصص
لهذه الرياضة في كل يوم سبع ساعات * ولم يكن ينم سوى ثلث
ساعات او اربع بغير فراش * ومع تمادى الزمان نقص ايضًا من
نومه هذا القليل * فلم يكن يرقد سوى ساعتين او ثلاث لاغير
ولم يكتف بذلك بل زاد عليه تقشفات شديدة صارمة * لانه
كان يجلد جسده النقي بحبالٍ ذات اشواك حديدية * ومرات
كثيرة كان يلبس المسح * ويضع على صدره وسواعده

واما كن

واما كن اخر من جسد سلاسل حديدية ذات اشواك * هكذا كان يضع في احديهِ تحت رجليهِ حصا رفيعة قصد بذلك ان يشعر في كل دقيقةٍ بالمٍ ما * وفي بيراموناتٍ اعياد العذرا الجليلة جميعها * كان يصوم على الخبز والما لاغير * ومع انهُ كان صارمًا هكذا نحو ذاتهِ * فكان يظهر للجميع حسن الانس والحلم جدًا *

وقد علم في المدارس سبع عشرة سنة العلوم الطبيعية واللاهوتية وما عدا ذلك فكان لهُ تلاميذ كثيرون يلتجيون اليهِ ويطلبون ارشاده في تدبير انفسهم * حتى الحكام والاساقفة والملكة نفسها * ومرات كثيرة كان يطوف الجبال والقرى ليعلم المساكين والامر العجيب انهُ مع هذه الرياضات المتصلة الشاقة * والاشغال المتفاقمة المتزايدة * استطاع ان يولف واحد وخمسين كتابًا في كل نوعٍ من انواع العلوم * ومن ثم زعم قوم ان العلوم منحت لهُ من الله بفيض خصوصي * فبعد هذه الجهادات والاتعاب جميعها * احب الله ان يمتحن عبدهُ ويزيد فضايله كمالًا بامراض اليمة احتملها بصبر عجيب مدة ست عشرة سنة قبل موتهِ المقدس الذي حدث في سنة الف وستماية وثمانية وخمسين للتجسد الالهي * وقد ذكر المورخون اشيا كثيرة فايقة الطبيعة شرف الله بها عبدهُ المذكور في زمن حياتهِ وبعد موتهِ ايضًا * ونحن

فهرس

نسال الله الذى منّ علينا بهذه النعمة الخارجة * اعني بها تعليم هذا المعلم النبيل الفضيل * ان يمن علينا ايضاً في حال قرائهِ بنعمةٍ اخرى باطنة * تصيرهُ مثمراً فينا الثمار المقصودة بهِ * ثمار الزهد في الاشيا العالميّة * والجد علي ربح الخيرات الروحيّة والسماوية * حتي اذاما اتينا بهذه الثمار المفيدة * يكون للمولف المذكور تضاعف الثواب العظيم * ولنا شركة الحظ الوسيم * بنعمة ربنا يسوع المسيح الذى لهُ المجد * الى الابد امين *

فهرس

ما تضمنهُ هذا الكتاب من المقالات والفصول

المقالة الاولى

في الفرق مابين الزمني والابدى وهى ثلثة عشر فصلاً

الفصل الاول في الزمني والابدى

الفصل الثاني في ان التامل في الايدية جزيل الفاعليّة في تغيير السيرة واصلاحها

القصل الثالث في ان ذكر الايدية يوثر في الانسان اكثر من ذكر الموت

فهرس

الفصل الرابع في عظم شقا حال الانسان المتناسي الابدية
الفصل الخامس في ماهيّة الابدية علي حسب قول القديس غريغوريوس النزينزى والقديس ديونيسيوس الاريوباجى
الفصل السادس في ماهيّة الابدية على راى بويسيوس الفيلسوف المسيحى وبلوتينوس
الفصل السابع في ايراد ماهيّة الابدية على حسب تعليم القديس برنردوس
الفصل الثامن في ايراد معني كون الابدية عديمة النهاية
الفصل التاسع في ان الابدية عديمة التغيير
الفصل العاشر في ان الابدية لامثيل لها ولاتشبيه
الفصل الحادى عشر في ماهية الزمن على راى اريسطوتالس وغيره من الفلاسفة وفي سرعة تغييرهن الحيوة وزوالها
الفصل الثانى عشر في ان قصر هذه الحيوة يصير كل شي زمني اهلاً للاحتقار
الفصل الثالث عشر في ان الزمان هو فرصة الابدية

فهرس

المقالة الثانية

في الفرق مابين الزمني والابدى نظرًا الي نهاية الحيوة الزمنيّة والزمان مطلقًا وهى تسعة فصول

الفصل الاول في نهاية الحيوة الزمنيّة

الفصل الثاني في صفات نهاية الحيوة الزمنيّة

الفصل الثالث في الدقيقة الكاينة ما بين الزمان والابدية وفي ان هذه الدقيقة مخيفة جدًا لانه بها تنتهى حياتنا

الفصل الرابع في السبب الذى من اجله يكون انتها الحيوة الزمنية مخيفًا

الفصل الخامس في ان الله يحكم بصرامة شديدة في هذه الحيوة ايضًا

الفصل السادس في انتها الزمان مطلقًا

الفصل السابع في كيف تتغير العناصر والسّما عند انتها الزمان

الفصل الثامن في السبب الذى من اجله يجب ان ينتهى العالم على نوعٍ مرهب مرعب هكذا ثم تصير الدينونة العامة

الفصل التاسع في اخر يوم من الزمان

*

المقالة الثالثة

في الفرق ما بين الزمني والابدى نظرًا الي تغيير الامور الزمنيّة ودناتها ومخاطراتها وهي عشرة فصول

الفصل الاول في ان تغيير الاشيا الزمنيّة يصيرها اهلاً للازدرا والاحتقار

الفصل الثاني في ان البلايا الزمنية ولومهما كانت فقد يمكن ان تخف برجاء ما

الفصل الثالث في انه ينبغي ان يتامل الانسان عواقب الاحوال المختلفة التي قد يمكن ان يحصل عليها

الفصل الرابع في ان تغيير الاشيا الزمنيّة يرينا جليًا بطلانها وفي كم يجب علينا ان نحتقرها

الفصل الخامس في دناة الاشيا الزمنيّة وانحرافها عن النظام وفي كم انحرف عن النظام الذين يحبونها

الفصل السادس في كم تكون الاشيا الزمنية يسيرة قصيرة

الفصل السابع في عظم شقا الحيوة الزمنيّة

الفصل الثامن في كم يكون الانسان دنيًا لاجل كونهِ زمنيًا

الفصل التاسع في كم تكون الاشيا الزمنيّة خادعة

الفصل العاشر في مخاطرات الاشيا الزمنية وضررها

المقالة الرابعة

في الفرق ما بين الزمني والابدى نظراً الي عظمة الخيرات الابدية والشرور الابدية وهي اثنا عشر فصلاً

الفصل الاول في عظمة الاشيا الابدية

الفصل الثاني في عظمة شرف القديسين واكرامهم الابدى

الفصل الثالث في غني السما وملكه الابدى

الفصل الرابع في عظمة الافراح الدايمة

الفصل الخامس في شرف اجساد القديسين وكمالها في الحيوة الابدية

الفصل السادس في وجوب طلب الملكوت السّماوى وتفضيله علي جميع الخيرات الارضيّة

الفصل السابع في الشرور الابدية وعلي الخصوص في فقر الهالكين وعارهم

الفصل الثامن في عذابى الهالكين الثالث والرابع وهما النفى من السّما والسجن في الجحيم

الفصل التاسع في عذابى الهالكين الخامس والسادس وهما عذاب الاسر وعذاب الجلد في الجحيم

الفصل العاشر في عذابى الهالكين السابع والثامن وهما الموت

فهـــرس

الابدى والعذاب الموازى الذنب
الفصل الحادى عشر في الفوايد الحاصلة من التامل بالعذابات الابدية
الفصل الثانى عشر في عظم شر الخطية المميتة الغير المتناهى الذى لاجلهِ نخسر خيرات السّما الابدية وتدركنا عذابات جهنم الخالدة

المقالة الخامسة

في الفرق ما بين الزمني والابدى نظرًا الى الوسايط التي منحناها الله تعالي لاكتساب الخيرات الابدية والنموذجات التي قدمها لنا لاحتقار الاشيا الزمنية وهى تسعة فصول

الفصل الاول في الفرق العظيم الكاين ما بين الابدى والزمني من حيث ان الابدى هو الغاية والزمني هو الواسطة الموصلة اليها وفي الغاية القصوى التي خلق الانسان لاجلها
الفصل الثاني في ان الانسان بمعرفةِ ذاته يقدر ان يعرف كيف يجب ان يستعمل الاشيا الزمنية الواجب الازدراء بها
الفصل الثالث في ان تجسد ابن الله يوضح لنا كم يجب علينا ان نعتبر الاشيا الابدية
الفصل الرابع في ان دناءة الاشيا الزمنيّة تتضح لنا من الام سيدنا يسوع المسيح وموتهِ

فهرس

الفصل الخامس في كم يكون الابدى معتبرًا جدًا من حيث ان الله اراد ان يكون هو الواسطة لنزيحه ورسم سر جسده ودمه الاطهرين عربونًا علي ذلك

الفصل السادس في انه ينبغي ان يكون موضوع صلواتنا الخيرات الابدية

الفصل السابع في ان الذين جحدوا الخيرات الزمنية ليربحوا الخيرات الابدية لمسعدون جدًا

الفصل الثامن في ان كثيرين قد احتقروا الاشيا الزمنية كلها وجحدوها

الفصل التاسع في ان محبة الله تقتضى منا الا ندع انفسنا ان تحب الاشيا الارضية

*

المقالة الاولى

في التمييز ما بين الزمني والابدى وهي ثلثة

* عشر فصلاً *

الفصل الاول

* في الزمني والابدى *

انه لكي يكون استعمال الاشيا جيدًا * والتصرف بها على حسب الحكمة والصواب * فينبغي ان يتقدم الحكم الواجب عليها فان نسبق ونعرفها بحسب ذلك الحكم * والحال ان معرفتنا الاشيا في هذا المسكن الارضى هي ناقصة بهذا المقدار حتي انها لا تبلغ الى المسكن السماوى الابدى الذى قد خلقنا لاجله * ومن ثم ليس بعجب الا نعقل الا قليلاً جدًا الاشيا المبتعدة من الحس البشرى بعدًا هذا عظم مقداره * اذ قد نرى وكاننا نلمس بايدينا اننا نظرًا الى الاشيا الزمنية نفسها نوجد حاصلين علي تبرقع عظيم وجهل جسيم فكيف اذًا يمكننا ان ندرك امور العالم العتيد ان كنا لا نعقل هذه التي نحن متصرفون بها وفيما بينها * فالسبب الذي من اجله يبتغى الانسان بافراط الرغبة والانهماك الغني والتنعم والكرامات وبقية

خيرات الارض هو لانه لا يعقلها * علي ان العالم كما قال حسنًا
فصوابًا القديس بطرس الرسول للقديس اكليمنضوس الحبر
الروماني يشبه مسكنًا مفعمًا دخانًا * فكما ان الذى يسكن في
مسكن هذه صفته لا يبصر ما هو خارجه ولا ما هو داخله لاجل
الدخان المتوسط ما بين نظره وتلك الاشيا * هكذا يجرى الامر
نظرًا الى المستوطنين هذا العالم * فانهم لا يعلمون ما هو داخله
ولا ما هو خارجه * فلا يعقلون اتساع الابدية الغير المحدود ولا
دناة الاشيا الزمنيّة * وهكذا يجهلون الاشيا السّماوية والاشيا
الارضية علي حد سوى * ولانهم عدموا المعرفة الواجبة فيغيرون
موازين حكمهم العقلىّ بوزنهم الاشيا الابدية بميزان الاشيا الزمنيّة
وبتثمينهم الاشيا السّماوية الراهنة بثمن الاشيا الارضية الزايلة *
وهذا الضلال الفظيع قد لحظه جيدًا واشار اليه حسنًا القديس
غريغوريوس المعظم بر ثايه جهل الناس الذين يعدون منفى هذه
الحيوة وطنًا ويجعلون ظلام الحكمة الكاذبة نورًا ويحتسبون
هذه الغربة العابرة مسكنًا ثابتًا ومن ثم يعتبرون الشر خيرًا
والخير شرًا *

ان الملك والنبي داود طلب من الله ان يمنحه معلمًا يعرفه ما هى
الخيرات الحقيقية قايلًا من يرينا الخيرات * وانما قال هكذا لانه
لم يجد احدًا يعرف العالم ولا الخيرات الموجودة فيه ولا هذه التي تحت

يدن * وقد يتم بالاكثرين ما قيل عن الاسرايليين انهم كانوا
ممتلكين المن وحاملينه في ايديهم وناظرين اليه باعينهم ومع
ذلك فلم يكونوا يعرفوا ماهو المن * وكانوا يسالون عنه مستفهمين
قايلين ماهو * فهاهو ذا نحن حاصلون علي اسوحال منهم *
وذلك لاننا لانبحث ولا نستفهم نظيرهم * فليت شعري من ذا
الذى يسال ماهو الغني الذى من اجل اكتسابه تزج الناس
بانفسهم في الوف الوف من مخاطر الموت وماهن المراتب والوظايف
التي تضرم في قلوب البشر صلفا وحسدا هذا مقدارة * وماهن
اللذات التي من اجلها تبيد الانام عافيتهم ويفنون حياتهم
ويقصرونها * ماهي هذه الخيرات العالمية التي لايمكننا ان نفوز
بها الا في هذه الدنيا وتضمحل سريعا حال ولوجنا العالم العتيد * كما
اضمحل المن وزال حينما دخل الاسرايليون ارض الميعاد * ولهذا
دعاه السيد المسيح في سفر الرويا منا مخفيا * لانه كان فيما بين
ايدى العبرانيين ولم يعرفوه * فعلى هذا النحو نرى اشياهذه الحيوة
محجوبة عن الحس حتي ولوانا نلمسها بايدينا فمع ذلك لانعقلها
ونبلبل نظام ثمنها ونصنع لاجل الزمنيات ماقد كان ينبغى
ان نفعله لاجل الابديات * فنستعظم هذه ونحتقر تلك *
فليستيقظ اذا الانسان منتبها وليحسن نظرة العقلى متفهما *
وليعقل جيدا الاختلاف الموجود ما بين الاشيا الزمنية والاشيا

الابدية لكي يمن كلاً بما يجب لهُ فيحتقر ما يزول مع الزمن ويعتبر
ما يدوم الي الابد * على ان هذه الابديه هي التي يجب علينا ان
نبتغيها في زمن حياتنا هذه العابرة * لكي تكون لنا الزمنيات نفسها
وسايط معينة علي ادراك الابديات * والحال انه لمن المستحيل
ان نبلغ هذا القصد خلوًا من معرفة هذين الامرين اعني الزمنيات
والابديات * واعتبر ايضًا ان ذاك المن المعطى للاسرايليين
قديمًا حينما كانوا في القفر متغربين كان من جملة معانيه هذا
وهو انه كان رمزًا دالًا على خيرات هذه الحيوة التي نحن فيها
متغربون * الي ان نصل الى ارض ميعاد السعادة الابدية التي
نحن بها موعودون * ولذلك كان المن ينتن بالكلية ويتلاشي كما
يصير في اشياء هذا العالم كافة * ولم يكن يسلم من الفساد الا الذى
كانوا يلتقطونه بنية ان يحفظوه ليوم السبت الذى هو رمز
المجد الابدى * فقد كانت نية العبرانيين هذه في التقاطهم اياه
تصيره غير قابل الفساد كما لحظ ذلك المعلم القديم بلدونيوس *
فكم اذًا يجب علينا ان نرقي الحاظنا الى العلا ونوجه نيتنا
الى الابديات لكي ننتفع من هذه الزمنيات * وباستعمالنا
اياها نبلغ الى الابديات * وهكذا نصير عظيمًا راهنًا ما هو
حقير زايل *

قد ذكر عن قوم من الفلاسفة الذين بحثوا عن هذه الحيوة متغاضين

عن الحيوة الابدية * انهم قد وجدوا فيها اى في هذه الحيوة نقايص
كثيرة وقد عين منها الملك درا اليوس انتونينوس الفيلسوف ثلث
وهى ان هذه الحيوة هى قصيرة * قابلة التغيير * فاسدة * وهذه
الثلث النقايص قد نجد عبارتها في المن الاسرايلى لانه كان حبًا
صغيرًا جدًا حسب شهادة الكتاب المقدس * ثم انه كان سريع التغيير
والفساد * لانه نظرًا الى البعض كان يتسع متخلخلًا * ونظرًا الي
اخرين كان يصغر متلززًا * ونظرًا الي الجميع كان يزول سريعًا
ولم يكن يستقم على صحته يومًا واحدًا بل كان ينتن مدودًا *
وزد علي كل هذه الاعراض جزيل التعب الذى كان ضروريًا
ولازمًا قبل تناوله واكله * لانه كان ينبغي اولًا ان يسحق في
هاونين بعنا عظيم الى ان يصيرا نعمًا ثم يطبخ بتعب اخر * فهذى
هى صورة خيرات هذه الحيوة التي لا يمكننا ان نحصل عليها ونتمتع
بها الا بكدٍ وكدحٍ جسيم * وما عدا ما تقدم ذكره فلم يكن جميع
الاسرايليين يستعذبون المن ويجدون فيه ذوق ما هو مرغوب
منهم * على ان فم الخطاة كان يخدع في اكل المن * وهذا
يعرض لنا حينما تغير الرذيلة ذوقنا الروحى وتفسده كما سنورد ذلك فيما
بعد * نعم ان منظر المن كان جميلًا * لانه على ما قال مفسروا
الكتاب المقدس قد كان يشبه البلور المتلالي * وهذه الحال هى
حال خيرات هذا العالم * لانها تتلالا لامعة بخارجها الا انها بالحقيقة

اسرع عطباً من الزجاج * وهي كنور كاذب يبهر الاعين ويخدع
باصرة * وتستبين لنا نحن المجتهدين في طلبها كانها خيرات
عظيمة ابدية *
فلنهملن الظاهر ولنغادرن الوجه الخارج * ولنمعنن النظر في
جوهر الاشيا وحقيقتها * فنجد هذه الخيرات الزمنيّة كلها شيأً
جزيأً طفيفاً جدًّا * وانها غير ثابتة لكنها عابرة زايلة * اما الخيرات
الابدية فنجدها راهنة باقية وعلى الاجمال نجدها موبدة ثابتة *
وفي هذا قال القديس غريغوريوس في الفصل الثاني عشر من
كتابه في الادبيات * ان ما ليس لهُ نهاية هو عظيم بغير نهاية *
ومالهُ نهاية هو يسير *
فلنبتدين بازالة البرقع * ولنكشفن عن البعد الموجود ما بين
خيرات السّما وخيرات الارض * والمسبب من كون هذه ابدية وتلك
زمنية ثم بعد ذلك نتكلم عن خساسة كل خير زمني وعظمة الخير
الابدي * ولعمري انه لصحيح ما قالهُ احد الفلاسفة * انه ليس شي
اوضح من النور ولا اعوص منه * اذ قد توجد اشيا كثيرة تستبين
للناس واضحة وليست هي كذلك * ومن جملتها هو الزمن
والابد * ولذلك سنبذل المجهود في ايضاح هذين الشيين بواسطة
نور الايمان وتعليم الابا القديسين ومبادي
الفلسفة *

الفصل الثاني

في ان التامل في الابدية جزيل الفاعلية في تغيير السيرة واصلاحها

اعلم ان القديس اغوستينوس في تفسيره المزمور السادس والسبعين دعا التفكر في الابدية فكرًا عظيمًا * لان ذكر الابدية يسبب للقديسين فرحًا وابتهاجًا وللخطاة خوفًا وارتجافًا وكلا الفريقين ينتفع من هذا التامل انتفاعًا بليغًا * على ان ذكر الابدية من شانه ان يحث الانسان على ممارسة الافعال السامية واحتقار كل اشيا هذا العالم الخسيسة الفانية * فهات اذًا نبتدى بايضاح دناة الزمني وغشهِ وخساستهِ * ونطبع في عقل المتامل صورة الابدى الذى ينبغى ان نحذق فيهِ نظرنا مع المرتل ونسمر بهِ فكرنا * علي ان هذا هو الفكر الذى كان يرعب النبي رعبًا جسيما حينما كان خاطيًا * وهو الذى نشطه وقواه للنمو في القداسة حينما حصل قديسًا * ومنه اى من فكر الابدية اجتني لنفسهِ فايدة لاتوصف * ومن ثم تراه يكرر ذكرهُ في ترنيم مزاميره مرات عديدة * لا في ضمن مزمور انهِ فقط حيث يستعمل كثيرًا هذه الالفاظ دولمًا الي الابد ومن الدهر الي دهر الدهرين * لكن في عنواناتها ايضًا * ومن ثم لم يكن لديهِ

عنوان اكثر استعمالاً من هذا العنوان وهو الى الانتها او الى
الانقضا مشيراً بذلك الى الابدية * والي انه في حين تاليفه هذ
المزامير كان يتامل الابدية التي تلى هذ الحيوة *
فكان اذا النبي يتامل الابدية ليلاً ونهاراً وهذ هي التي كانت
تضطرم بان يصرخ الي السما والي الله * هذ هي التي كانت تصيره
اصم فيما بين الناس * هذى هي التي كانت تجمد دمه وتسكن
حركات مفاصله وترعد فرايصه * هذى هي التي كانت تمزج لهُ
افسنتينا مرًا في مذاقة لذات هذ الحيوة * هذى هي التي كانت
تجعله ان يفحص ضميره ويحاسبه بشدة الصرامة * واخيراً اقول
ان تامله الابدية رده الى التوبة بتغيير سيرته تغييراً عجيباً *
واضرم في قلبهِ نشاطاً عظيماً في العبادة * وجميع هذ العواطف
الصادرة من ذكر الابدية تراها في المزمور السادس والسبعين
حيث يتفوه هكذا * سبقت عيناى فادركت المحارس * اضطربت
ولم اتكلم * ثم يورد حالاً سبب ذلك قايلاً * تفكرت بالايام
القديمة وتذكرت السنين الابدية * فهذا هو الذى صيره ان
يسهر متواتراً بممارسة العبادة * هذا هو الذى كان يردده في
عقلهِ ليلاً ويستحضره في مخيلته صباحاً * ويكرره بعد ذلك
مرات كثيرة * وقد كان هذا الفكر على نوع ما مبجناً ومسمراً في
عقلهِ * مترددًا فيه اكثر من تردد انفاسهِ * وكان يهلع مرتجفاً

عند تاملهِ هاتين القضيتين * وهما ان حظى سيكون اما الهلاك
الابدى في دركات جهنم * اما السعادة الخالدة في ملكوت
السما *

فلا يتعجبن احد من ان مثل هذا الملك القديس المظفر كان يرتعد
عند ترديد هذا الفكر العظيم في عقلهِ * اذ ان حبقوق النبي
نفسه اعلن ان اعلي مناكب العالم تنحني وترتجف عند النظر
الي طريق الابدية * حيث انه يقول هكذا انحنت اكام العالم من قبل
مساعي ابديته * وقد ذكر عن القديس يواصف انه لما تصور
في عقله من احدى الجهات الابدية في جهنم * ومن جهة اخرى
الابدية في السما * اعتراه التحير والذهول وخارت قوته ولم يمكنه
النهوض من فراشه * وصار كمن اضنكه مرض مستطيل * بل
ان الفلاسفة البرابرة انفسهم كانوا يرتجفون من فكر الابدية
ولما ارادوا ان يصوروها استعملوا رموزاً وتشابيهاً مخيفة مرهبة
فبعضهم صوروها بصورة الافعى الاشر نوعاً من انواع الافاعي *
اى التي بمجرد نفسها تقتل البشر * وهكذا القديس يوحنا
الدمشقي رسم دوام الابدية بصورة تنين مخيف فاتح فاه على فم
حفرة عميقة يرصد الناس ليبتلعهم احيا * واخرون يصورون
الابدية بصورة هاوية عميقة مربعة جدًا * لها عند مدخلها
اربع درجات * الدرجة الاولي من حديد * والثانية من نحاس

والثالثة

والثالثة من فضة * والرابعة من ذهب * وعلي هذه الدرجة اطفال
وقوفا يلعبون بملاعب مختلفة * وهم متغافلون بالكلية عن خطر
السقوط في هذه الهاوية * والمراد بهذا المثل لا بيان الفزع
الصادر من تامل الابدية فقط * بل اظهار تفاقم جهل البشر ايضا
الذين يتنزهون ويضحكون ويمزحون في امور هذه الحيوة *
ولا يفتكرون انه قد يمكن ان ينطرحوا في هوتة جهنم * وبخلاف
ذلك كان المرتل يعد من قبل الله الذين ينامون بين هذين الحدين
الابديين * اى الذين يغيصون عقولهم بسبات التامل في ابدية
السما وابدية جهنم بانه يعطيهم اجنحة حمامة اجنحة مفضضة و
اصولها مذهبة * وذلك لان السيرة الروحية ليست هي قايمة في
ان نصنع خيرا فقط * بل تقتضى ايضا ان نحتمل الاسوا التي
تاتينا من قبل الناس * ولهذا مثلها النبي بالاشيا الاكثر ثمنا
واعتبارا عند الناس اعني الفضة والذهب * ولكن لما كان غالبا
احتمال الشر اصعب من فعل الخير * وبالتالي افضل استحقاقا مع
ان الشين جزيلا الثمن * فمن اجل ذلك قال المرتل ان المناكب
من ذهب والاجنحة من فضة * ولهذا احتسب ذلك يعقوب ابو
الاسباط خيرا عظيما واخصه بابنه ايساخر قايلا له * انه سيستريح
بين الحدين * فكانه يقول انه سيتامل بتان حد العقاب الابدى
* وحد السعادة السرمدية *

الفصل الثالث

* في ان ذكر الابدية يوثر في الانسان اكثر من ذكر الموت *

انه ولو مهما كان ذكر الابدية وذكر الموت جزيلي الاعتبار والمنفعة * الّا ان ذكر الابدية هو اشد تاثيرًا وفاعليّة واغزر اثمارًا وافعالًا مقدسة * لانه اعني ذكر الابدية هو الذى بسببه حفظت العذارى البتولية * ومارس النساك تقشفات شاقة * واحتملت الشهدا عذابات قادحة * ولم يحثهم علي ذلك الخوف من الموت بمقدار ما كان يقويهم الخوف من الابدية والمحبة الالهية *

ان الفلاسفة والوثنيين اذ لم يكونوا يترجوا نظيرنا حيوة باقية بعد الموت * فقد كانوا بقوة ذكر الموت يتجنبون اباطيل العالم ويحتقرون عظايمه * وذلك على موجب حكم العقل النطقى والفضيلة لاغير * ولذلك يشير ابيكتيتوس الفيلسوف بان نداوم فكر الموت * ويستتلى قايلًا * ان هذا الفكر يصير كم الّا تفكروا ابدًا فكرًا دنيًا والّا تشتهوا شيًا بافراط الرغبة والشوق وقال افلاطون انه بقدر ما يتعمق الانسان بتامل الموت اشد تعمقًا بقدر ذلك يحصل على اوفر حكمة * ولذلك كان يامر تلاميذه

بان يمشوا حافين * مشيرًا بذلك انه في مدى سفر هذه الحيوة
يجب ان تكون الغاية اعني الموت بادية على الدوام بازا اعيننا *
الا ان المسيحيين المعتقدين بابدية الحيوة العتيدة فقد يجب عليهم
ان يزيدوا على ذكر الموت ذكر الابدية * اما كون ذكر
الابدية اكثر تاثيرًا من ذكر الموت فذلك يتضح من الاختلاف
الموجود ما بين الزمني والابدى * فالذى كان يصير الفلاسفة
الاقدمين ان يرتجفوا عند ذكر الموت قد كان هذا لاغير *
وهو لانه بالموت كان ينتهى كل ما لهم في هذه الحيوة الزايلة *
مع انه نظرًا الي الاخرين قد كان الموت شيًا شهيًا لانه به كانت
تنتهى كل بلاياهم * والحال انه ان كان الموت من شانه ان
يرهب ويرعب بهذا المقدار لاجل هذا فقط * وهو لانه يسلب
جميع الخيرات الارضية التي قد اعتادت ان تسلب علي انواع
اخر كثيرة مختلفة * بل انها تزول ذاتيًا قبل زوال من يمتلكها
وهى ناقصة ومفعمة خطرًا وسجسًا * ومن ثم اشتاق كثيرون
بافراط الشوق الي الموت لانهم كانوا ينقذون به من البلايا
الارضية * فما الذى اذًا ينبغى ان تفعله فينا الابدية التي ترينا
خيرات لا قياس لعظمتها ولا حد لدوامها * وتتوعدنا بشقا
غير متناهٍ *
انه لما رام زينون الفيلسوف ان يعرف واسطة فاعلة موثرة

لتهذيب حياته وضبط حركاته الحسية وحفظ واجبات الفضيلة
ذهب الي صنم ما ليستشيره علي ذلك فقال له الصنم اذهب وسل
الموتى عن رايهم فتتعلم منهم ما تهذب به سيرتك لانك اذا ما رايت
وتاملت حال الموتى اى انهم قد عدموا كلما كان لهم وانه بزوال
حياتهم زالت كل سعادتهم * فحينيذٍ تستخف بالخيرات الزايلة ولا
تدع نفسك ان تفتخر بها * ومن اجل هذا السبب عينه اعتاد
قوم من الفلاسفة ان ياكلوا ويشربوا في جماجم الموتى *
لكى يكون ذكر الموت وضرورته بادية علي الدوام بازا اعينهم *
وبهذا كانوا يداوون كل شهوة عالمية * وكثير من الملوك
المعظمين اتخذوا ذكر الموت دوا بازا عزتهم الارضية * وذلك ليلا
تفسد سيرتهم بسعادتهم العابرة * وقد ذكر عن الملك فيليبوس
المكدوني ابى اسكندر الملك العظيم * انه امر احد خدامه بان
يكرر له في كل صباح هذه الالفاظ ثلث مرات قايلاً * اذكر
يا فيليبوس انك بشر وانك بالموت تترك كل شي ضرورة * ولذلك
الملك مكسيميليانوس الاول صنع نعشاً لنفسه قبل موته باربع
سنين * وكان ينقله معه الي اينما توجه * وذلك لكى يسمع في
نفسه على الدوام هذا الصوت الاصر قايلاً له بلسان الحال *
اذكر انك ستموت لامحاله * وانك تفارق كل شي * اما ملوك
المشرق فمن جملة اشارات عزتهم الملوكية كان لهم كتاب من

ذهب يحملونه بيدهم الشمال عنوانه البر * وكان ذلك الكتاب
مملوًا ترابًا وغبارًا * مشيرين بذلك الى كون الانسان قابل
الموت والى الحكم الالهى القديم المحكوم به عليه بقوله تعالى انك
تراب والى التراب ستعود * فحقًا انهم بحكمة اخترعوا شكل
هذا الكتاب * مشيرين به الى ان ذكر الموت يحتوى علمًا عظيمًا
وانه لمدرسة تصوننا من الضلال والخديعة * وليس يخلو من
سر كون ورق الكتاب من ذهب وحمله باليد الشمال التى هى
الاقرب الى القلب * على أن ذلك دليل على وجوب انطباع هذا
التعليم الكلى التقوى في القلب * هكذا احسنًا قد دعوا هذا
الكتاب بلفظة البر * لانه من ذا يحسر أن يخطى مع علمه بانه
سيموت لامحالة * هكذا ملوك الحبشة قد اجتهدوا في
اكتساب هذا التعليم * لانهم في حين تكليلهم ملوكًا كان
لهم هذا الطقس من جملة طقوس تكليلهم * وهو انهم كانوا
يحملون دعاً مملوًا ترابًا وجمجمة انسان ميت * وبهذا كانوا
يعقلون منذ الابتدا انه لابد من ان ينتهى ملكهم ويفنى *
واقول اخيرًا ان الفلاسفة جميعهم قد اثبتوا هذا التعليم * ولقد
يسوغ لنا ان نقول ان الفلسفة كلها هى التهديد بالموت *
والحال ان الابدية هى مادة للتفلسف اعظر جدًا من الموت *
لان العذاب الجهنمى الابدى من شانه ان يرعبنا ويخيفنا اشد

خوفًا

خوفاً بغير قياس مما يخيفنا زوال اعظم ممالك العالم العتيدة ان
تزول سريعاً * علي ان دوام الشر وابديته لشي افزع من سرعة
زوال الخير * وكون النفس غير قابلة الفنا هو شي اعجب جداً
من كون الجسد عتيداً ان يموت * فمن اجل ذلك يجب على
المسيحيين لاسيما الذين يرغبون الكمال ان يحسنوا فيهم معرفة
الابدية افضل من ان يحسنوا خوفهم من الموت * ولقد كان
يجب ان نسمع دايماً في داخلنا هذا الصوت المريع * الابدية
الابدية * وانك ستموت بلاشك وليس هذا فقط بل انه بعد
الموت تنتظرك الابدية * فتذكر اذاً انه قد توجد جهنم التي
لا انتهاء لها * وانه يوجد مجد ابدي ايضاً فلا جرم في ان اعتقادك
بابدية المجد وابدية العقاب المعدين لحافظي الناموس الالهي
ولمخالفيه وتذكرك اياهما * يحثك على حفظ الناموس افضل
حثاً مما يمكن ان يحثك عليه تامل سرعة زوال خيرات هذه
الحيوة * فكر اذاً في عقلك ذكر الابدية * وليتصل صوتها
الى اقصى مخدع نفسك ولهذا قد اعتادت البيعة المقدسة ان
تذكر الاساقفة عند ارتسامهم بذلك قايلة لهم * تذكر الايام
القديمة ولا تنس السنين الابدية * وفي حين ارتفاع الحبر الروماني
الى الحبرية العظمى يحرق امامه احد الاكليريكيين قليلاً من
القطن قايلاً * هكذا يفني مجد العالم ويتلاشي * وقد رسم هذا

الطقس علي هذا النوع * اعني وضع قطن ملتهب بازاعيني الحبر
الاعظم * ليتذكر بذلك لهيب النار الابدية * وقد ذكر عن
البابا مرتينوس الخامس انه امر بتصوير صورة رمزية علي هذا
النحو * اى صورة تظهر نارًا عظيمة ملتهبة * وعلى تلك النار
تاج باباوى وتاج ملوكى وغطا راس كاردينالي * وهذه كلها كانت
تحترق وتعود الي الرماد سريعًا * وذلك تعليمًا لهم انه ان لم يتمموا
واجبات وظايفهم يحترقوا بعد قليل في جهنم احتراقًا ابديًا *
وقد اراد الحبر المتقدم ذكره ان تكون هذه الصورة بازاعينيه
على الدوام *

وقد يجب ان تعتبر الان ان اسم ايساخر الذى باركه يعقوب
ابوه لانه لستراح ما بين الحدين المتقدم ذكرهما اعني العقاب
الابدى والمجد السرمدى * قد يشير الي من يكون متصفًا بقوة
ذاكرة * ويعني ايضًا انسانًا عتيدًا ان ينال ثوابًا * وبهذا
الاسم السرى الرمزى رام الروح القدس ان يحرض ايساخر على
ذكر الاجر الابدى * ولكى نعلم كم يكون هذا الذكر عزيزًا
لدى الله ومفيدًا لنا * امر تعالي بان يكتب اسم ايساخر حفرًا في
حجر الكركهن الذى كان يحمله الحبر الاعظم في وشاحه * وقد
اعلن الله للرسول يوحنا الانجيلى ان هذا الحجر كان احد اساسات
المدينة السماوية * وقال القديس انسلموس ان هذا الحجر يدل علي

ذكر الابدية التي هي الاس الاخص لبنيان الكمال الانجيلي جميعه *
ولعمري اننا اذا امعنا النظر في خواص هذا الحجر * نستدل به على
ذكر الابدية وعلي معرفة الخيرات الواصلة لنا من تاملها *
فاعتبر اولاً ان حجر الكركهن يصير حامله ساهراً مستيقظاً *
والحال انه لا يوجد شي من شانه ان يجعلنا مستيقظين محترسين
كمثل التامل باننا سايرون ما بين هذين الحدين * اعني المجد
الابدي والعذاب السرمدي * لانه كيف يمكن ان يستحوذ النوم
على من يجوز واديا عميقا جداً من طرف الى طرف اخر * من
فوق جسرٍ من خشب عرضه مقدار نصف قدم لاغير * وقد
تصدمه رياح عاصفة مهبة من كل جهة * ويكون هو في كل
دقيقة قريباً من السقوط وتحت خطر الحصول في تلك الهاوية
المفزعة * والحال ان خطر هذه الحيوة ليس باقل من الخطر المذكور
لان الطريق المودية الى السما هي ضيقة جداً * ورياح التجارب
هي شديدة جداً وتعصف من كل جانب * واخطار اسباب السقوط
كثيرة * واضرار الامثال الردية وعثراتها عظيمة * وخداع
المشيرين مكراً لا يحصى * اعتبر ثانياً انه قد ذكر عن حجر
الكركهن انه ليس من خواصه ان يجعل الانسان مستيقظاً فقط
بل انه يدفع عنه الافكار الردية ايضاً * والحال انني لست افهم
كيف يمكن ان يدهم من يفتكر في الابدية فكر ما ردي *

وكيف

وكيف يمكن ان الذى يردد في عقلهِ العقاب الابدى العتيد ان
يحكم بهِ عليه اذا ما ارتضى بخطية مميتة يدع عقله ان يستلذ
بفكر اللذات الحسيّة * اعتبر ثالثًا ان حجر الكركهن يصون
الانسان من السكر ويحفظ عقله علي حال صحة تصورهِ وتمييزهِ
ولا ريب انه لايوجد شي يصون عقل الانسان من خمر لذات
هذه الحيوة مثل ذكر الاخرة * اعتبر رابعًا ان هذا الحجر
هو علاج عظيم لمن تناول شيًا مسمومًا * لانه اعني الحجر المذكور
ينزع من السم كل قوتهِ المميتة * والحال انه لاعلاج يدفع سم
الخطية نظير تامل الانسان العقاب الجهنمى الذى يستحقه من
اجلها * وذكر الملك السماوى الذى يخسر بسببها * اعتبر
خامسًا ان الحجر المذكور يسكن سجس العقل * ولاشي اقوى
فعلاً وفاعليّة لتسكين السجس المسبب من قبل اشيا هذا العالم
وللجمر شهوة الشح والعجرفة من التامل بالخيرات الابدية المعدة
للمتواضعين والمساكين بالروح * اعتبر سادسًا ان حجر
الكركهن يسبب الخصب * هكذا هذا الفكر العظيم فكر الابدية
هو مخصب بالاعمال الصالحة * لانه من ذا الذى يتامل بايمان حى
ان كل الافعال الصالحة مع انها تكمل بزمن يسير وبتعب وقتي
تستحق مجدًا ابديًا ولاينشط مجاهدًا في انه يفعل ويحتمل كثيرًا
من اجل الله * فيالعظمة الاعمال التي اصدرها هذا الفكر المقدس

اعني

اعني فكر المجد الابدى * ان انتصارات الشهدا والبتولات وتقشفات بقيّة القديسين هى مفعولات هذا الفكر السماوى * فيالهُ من فكر مقدس ويالهذا الحجر الرمزى الذى يوعب الضالين نورًا مخلصًا * ويشفى السقيمين شفاً كليًا ويسكن زجير امواج الشهوات * ويخصب قلوب المتوانين الفاترين في العبادة بوفور افعال الفضيلة * فياليت المومنين يطبعونه في مصاحف قلوبهم طبعًا غير قابل المحو * لانهم لو فعلوا ذلك لرأينا في سيرتهم تغييرًا سعيدًا سريعًا * وفي اعمالهم اصلاحًا كليًا عجيبًا * لانه ولو مما كانت العواقب الاربع موثرة لاصلاح سيرة الانسان الّا ان الابدية هى اكثر فاعليّة منها * لانها اعني الابدية * هى كالجوهر والذات الحاوية قوة البواقي *

الفصل الرابع

في عظم شقا حال الانسان المتناسي الابدية

انه قبل ان نشرع ببيان ماهيّة الابدية الكلية الضرورة لتهذيب السيرة * لنورد ان قليلاً ضلال بني ادم بنسيانهم الابدية المرثى لهُ * اذ انهم يتغاضون عنها مع انها تتهددهم في كل دقيقة * وليست هى بعيدة عن كلٍ منهم كما قال احد الفلاسفة الّا بمقدار عرض اصبع * لانه ايما بعد بين الموت والنوتى الّا دفة واحدة * وما

البعد بين انسان شديد الخلق والاندية الا حد السيف * واى
بعد بين الجندى وانتها حياته الا مقدار رشق سهم او بلوغ
رصاصة * وايما بعد بين اللص والمشنقة الا مسافة السجن *
واخيرا اى بعد بين الابدية وبين رجل متصف بصحة الجسم والقوة
الا البعد الموجود بين الحيوة والموت الذى يمكن ان يفاجينا بغتة
في كل دقيقة على انواع مختلفة * حقا ان حيوة الانسان
ليست هى شيا اخر سوى مسلك خطر من علي جانب شط هوتة
الابدية التي لابد لكل ان يسقط فيها * فكيف اذا نعيش
متغافلين عنها *

وهذا قد اوضحه القديس يوحنا الدمشقى بمثل دقيق رقيق ضربه
في هذا الصدد * مصورا به حال حياتنا هذه تصويرا حيا *
فقال ان رجلا ما كان هاربا من الوحش الوحيد القرن الذى
بضجيجه كان يرجف الجبال ويزعج الوديان * وفيما كان هاربا
هكذا وهو لا يدرى ولا يفتكر الى اين هو ماض * سقط في حفرة
عميقة * الا انه لحسن حظه مد يده حالا ملتمسا ما يتعلق به *
فصادف شجرة نابتة في جانب الحفرة فتمسك باغصانها تمسكا
وثيقا * فهدى لذلك روعه ومكث متعزيا مسرورا بنجاته علي
النحو المذكور من ذلك الخطر المريع * غير انه بعد ذلك التفت
متفرسا باصول تلك الشجرة فابصر هناك جرذين ضخمين جدا

احدهما ابيض والاخر اسود وهما يقرضان اصل الشجرة قرضاً
حثيثاً بغير فتور * حتي كانت تستبين قريبة السقوط في اسفل
تلك الحفرة * ثم انه احذق بناظره الي عمق الهوة * فراي تنيناً
مخيفاً تنبعث النار من عينيه ينظر اليه نظراً مريعاً * متوقعاً
ان يسقط ليبتلعه حالاً * ثم التفت الي الجهة التي كانت الشجرة
نابتة منها * فراي اربع افاعي خارجات منها متوجهات اليه
ليعضضنه وليلدغنه لدغاً مميتاً * فبعد ذلك نظر الي ورق هذه
الشجرة فراي انه يسيل منهن قليل من العسل * فلما راي الجاهل
العسل سلم نفسه للفرح العظيم والابتهاج الجسيم وتغاضى عن
جميع تلك المخاطر الملمة به من كل ناحية * وشرع يلعق من
ذلك العسل السايل نقطة فنقطة * غير مفتكر بتنمر الوحش
الوحيد القرن الذى ينتظر علواً * ولا بشراسة التنين الذى كان
يترقبه اسفل * ولا بسم الافاعي المحذقة بجانبه * ولا بضعف الشجرة
القريب سقوطها * ولا بخطر مزلة قدمه عنها فينطرح الي اسفل
الحفرة * لكن ذلك اليسير من العسل الذى قد انهمك باكله كفاه
لان يلهيه عن جميع هذه المخاطر * ففي هذه الصورة الرمزية نرى
حال الذين يتغاضون عن الاخطار المفعمة منها هذه الحيوة منهمكين
في طلب لذات حواسهم *
فاعتبر اذاً ان الوحش الوحيد القرن هو الموت الذى يحاضر

ورا الانسان منذ مولده ولا يزال مجدًا بذلك * اما الحفرة فهى العالم المملو بكليته من الشقا والشرور * والشجرة هى مدة حياتنا والجردان الابيض والاسود اللذان يقرضان الشجرة هما النهار والليل * اللذان يفنيان حياتنا شيًا فشيًا * والاربع الافاعي هن العناصر الاربعة المتالف منها الانسان * التي متي زاد احدها على البقية او نقص عنها انهدم نظام جسدنا وانتهت حياتنا * والتنين المفزع والمرعب هو ابدية جهنم الفاتحة فاها علي الدوام لتبتلع الخطاة * اما قطر العسل فهو لهو هذا العالم ومنتزهاته ولذاته * فالانسان الجزيل الجهل والغباوة يتغاضى ويتغافل عن هذه المخاطر العظيمة الجزيلة المحذقة به لاجل لذة وجيزة وقتية * ومع ان عدد اخطار الموت هو بمقدار عدد اسبابه وانواعه وان هذه كلها كافواه الابدية وابوابها * فمع ذلك نرى الانسان لاهيًا لاعقًا نقطة واحدة من عسل اللذات الارضية العتيد ان يهوع احشاه ويمزقه بمرارة الي دهر الداهرين *

فيالتفاقم جهل البشر وغباوتهم * انه لو دخل انسان حقلًا مملوًا غابات واشراكًا ومكامن خطر * التي اذا ما داس احدها يسقط حالًا فوق سيوف وحراب مرهفة او في فم تنين هايل مفترس * ورای اناسًا اخرين قد دخلوا معه فسقطوا في تلك المكامن وتمزقت اوصالهم وهلكوا * ومع ذلك لم يزل هو ماشيًا

يمرح بهارا كضا متغاضيا عن خطر نفسه * افما يدعي هذا
الرجل جاهلا غبيا * فحقا انك لاكشف منه جهالة وعباوة *
لانك ترى صاحبك قد سقط في مكامن الموت * وجارك قد
ابتلعته الابدية * واخاك قد انحدر الى عمق القبر * وانت مع ذلك
تستمر مطمانا كانه لايمكن ان يصيبك ما اصابهم * او كان الموت
شي غير موكد عندك * مع انه كان ينبغي ان كل خطر يصيرك
مستيقظا محترسا ولو مهما كان خفيفا يسيرا * فكيف لايجب
ان تحترس بكلية جهدك بعد ان تحققت يقينا انك عن قريب
او بعيد تالج جوف الابدية *
انه لامر عجيب جزيل احتراس الناس من مخاطر عالمية غير
موكدة * لانه اذا ما شاع خبر عن الطريق بانه غير مامون من
مكامن الخوارج واللصوص * فلا يجوز احد من هناك الا
متسلحا ومع رفقة تصحبه ايضا وان سمع بخبر طاعون يسرع
في تحصيل الادوية ويعد كل شي باجتهاد لصيانة نفسه من الخطر
العارض * واذا حدث خطر وقوع الجذب والقحط فيملا اهراه
حالا * فكيف اذا لا تحسن الحذر مع علمنا اليقين بحقيقة الموت
والدينونة والجحيم والابدية * وكيف لا نعد شيا لذلك ولا تنهض
ولا نفتح اعيننا لنرى المخاطر المحدقة بنا * ونميز اين يجب وكيف
يجب ان نضع خطواتنا ليلا نزل فنهلك * لان حال هذه الحيوة هي

خطر جدًا * وقد شبهها حسنًا احد العلما بجسر ضيق لا يسع
اكثر من قدمين * وتحته وادٍ عميق مفعم حيات وحيوانات
اخر مسمومة ضارية تقتات من الذين يسقطون من علي الجسر
ثم انه يحوط بالجسر بساتين ذات اشجار مورقة وينابيع متدفقة
وقصور مشيدة مبهجة * انما كان يدعي جاهلاً وغبيًا من
كان علي هذا الجسر الضيق مجتازًا وهو ملتهٍ بالفرجة على
بهاتلك الرياض وحسن تدفق تيك الينابيع وجمال تلك القصور
غير محترس على نفسهِ ولا مفتكر في كيف يضع رجله وينقل
خطواته * فكم بالحري هم جهال واغبيا اولئك الذين يعبرون
طريق هذه الحيوة * ملتهين بخيراتها الباطلة غير محترسين على
اتقان خطوات اعمالهم *

وقد زاد علي هذا المثل معلم اخر حذق فقال * ان الخطر الاعظم
يوجد في اخر الجسر المتقدم ذكره * حيث المسلك اكثر
ضيقة وبالتالي حيث النجاة من السقوط اوفر صعوبة * وهذه
الخطوة الضيقة هي الموت * فكن اذًا حسن الحذر والاحتراس
ما دمت عايشًا علي الارض * وضع خطواتك في موضع امين
لاكتساب الملكوت * حذرًا من ان تزل رجلك عند الموت
فتخسر الابدية * فيا ايتها الابدية ما اقل الذين يحسنون استعدادهم
للقايكِ * يا ايتها الابدية ما اعظم خطركِ وكيف لا تخافكِ الناس *

كيف لا يعدون انفسهم قبل مفاجاتك * ان زمن هذه الحيوة لقصير ووجيز جدًا * والقوة عتيدة ان تخور والحواس قريبة ان تضعف وتتخلخل * وسيسلب الغني ويبطل اللهو والتنعم وسنخرج من هذا العالم بعيدًا * فلماذا لانتامل الان ما يصير بنا بعد زوالنا وموتنا * اننا سنرسل الي وطن اخر * ومقدار زمن مكثنا هناك كم يكون * فوا اسفاه كيف اننا لانتامل الان ما نحن عتيدون ان نفعله هناك *

فلكي نفهم هذا المضمون جيدًا ونحصل بهِ فطنين * نورد مثلًا اخر اورده القديس يوحنا الدمشقي قايلًا * انه كانت مدينة ما عظيمة جدًا ذات شعب لايحصى عدده * وكان من عادة هذا الشعب الّا يقيموا عليهم ملكًا الّا رجلًا غريبًا لا يعرف تلك المملكة ولا كيفيّة تدبيرها * وكانوا في السنة الاولي من ملكهِ يدعونه ان يدبر الامور علي خاطرهِ ويصنع كلما يشا * ثم بعد ذلك اذ يكون مغتبطًا بملكهِ ظانًا انه يملك حياته كلها * يفاجيه الشعب بغتة وينزعون عنه الكسا الملوكيّ ويطوفون بهِ شوارع المدينة عريانًا مهانًا * واخيرًا ينفونه الي جزيرةٍ بعيدة مقفرة حيث كان يحصل علي فقر كلّي لايجد ما ياكله ولا ما يلبسه * وهكذا كانت تحيب امالهُ بانقلاب سعادته الى شقا وغناه الى فقر وفرحه الى حزن وولايمه الي جوع وفرفيره الملوكيّ الى عرى

فاتفق

فاتفق مرة ما انه ملك عليهم رجل رصين العقل كثير الفطنة
والخبرة * فعرف من احد الوزرا عادة هذا الشعب القديم الثبات
والسريع التقلب * فاذ عرف ذلك اخذ يفتكر في كيف يدبر
امره * فلم يتعظم قلبه مفتخرا بعزة السدة الملوكية التي جلس
عليها * لكنه اهتم مفرغا جهده في تدبير الامور علي نوع يناسب
قصده * حتي اذا ما خلع من المملكة كالملوك الذين تقدموه ونفي
الي الجزيرة المذكورة لايموت هناك جوعا * فاذ كان متملكا
على الشعب وضابطا زمام السلطنة المطلقة * ارسل سرا الى
تلك الجزيرة جميع خزاين تلك المدينة * فلما تمت السنة اتاه
الشعب بغتة بهيج عظيم وخلعوه من الكرسي الملوكي وانفوه الى
تلك الجزيرة كما فعلوا بمن تقدمه من الملوك * اما هذا الملك
الحكيم فسار الي هناك بسرور وابتهاج اذ كان قد سبق وارسل
الى هذه الجزيرة كنوزا وافرة * وبها عاش عيشا متنعما بعزة
وراحة لا كاولئك الملوك الذين اهلكهم الجوع * فهذا نفسه
يحدث ههنا في هذا العالم * وهو الذى ينبغى ان يفعله كل ذى
فطنة وحكمة * لان المدينة المتقدم ذكرها تشير الي هذا العالم
الجاهل الباطل السريع التغيير والتقلب * الذى حيثما يظن احد
بنفسه انه جالس فيه علي السدة الملوكية جلوسا ثابتا مكينا *
يهجم عليه بغتة ويعريه بالكلية من راسه الي قدميه ويزجه هكذا

في

في حفرة القبر * وذلك في وقت لايعلمه * وحينما يكون منهمكاً
اكثر انهماكاً في اللذات والتنعم * متمتعاً بالخيرات الزايلة
كانها خيرات راهنة دايمة * متغاضياً عن الابدية البلدة البعيدة
من فكره بعداً شاسعاً جداً * حيث يجد نفسه عرياناً مجرداً من
كل خير * مهملاً من الجميع * عايشاً عيش القنوط في ارض
الظلمة وظلال الموت * فالرجل الحكيم اذاً هو الذي يتامل بتانٍ
قبل ان يخرج من هذا العالم عرياناً ماهو عتيد ان يلمّ به بعد زمن
يسير * ويعد نفسه للانتقال الى العالم الاخر * ويحتفظ بزمان
هذه الحيوة ليحيى في الابدية * ويرتب حياته ويتقنها بالافعال
الصالحة المقدسة افعال التوبة والصدقة والمحبة * وينقل كنوزه
الي البلدة التي يلزمه ان يسكن فيها الي الابد وقد قال القديس
غريغوريوس عن تامل الابدية * انه قد تقدم عنه الرمز والعبارة
بحانوت الخمر الجيد حيث ادخل العروس الالهي عروسه ورتب
فيها المحبة * لانه كما قال القديس المتقدم ذكره * ان كل من يتامل
جيداً الابدية يسوغ لهُ ان يقول عن نفسهِ انه يرتب في ذاته
المحبة * من حيث انه يحب ذاته قليلاً ويحب الله فوق كل شي *
ولايحب شيأً اخر الا حباً لهُ تعالي * ولايستعمل ماكان اكثر
ضرورة نظراً الى الحيوة الزمنية الا بنيةٍ
* متجهة الى الابدية *

الفصل

الفصل الخامس

في ماهية الابدية علي حسب قول القديس غريغوريوس
النزينزى والقديس ديونيسيوس الاريوباجى

فلنبتدين اذًا بشرح شي ما مما لا يمكن شرحه وتفسيره * ولنستفهمن علي نوعٍ ما ما يفوق كل ادراكٍ مخلوق * حتي اذا ما عرف المومنون الابدية * والاجدر ان نقول اذا ما حصلوا جاهليتها اقل جهلًا يخافون من ان يرتكبوا خطية واحدة ويهملوا عملًا ما من اعمال الفضيلة * انه قد ذكر عن اغريبينا الرومانية والدة نارون الملك * انها لما اطلعت علي افراط سخا ابنها الذى كان يبدرق الاموال وينفق الفضة والذهب كانهما لديهِ بمنزلة الما * رامت ان تردهُ عن تفريطه هذا * فاتفق يومًا ان الملك ابنها امر بانّ يعطى رجل ما ثلثماية الف غرش * فلما شعرت بذلك اخذت الكمية المذكورة من الدراهم وبسطتها على مايدة وارتها لابنها جملة * لكى يبصر بعينيهِ تفاقم مقدار العطية المتجاوزة الحد فيرتدع عن جهلهِ مصطلحًا * فهذا الجهل نفسه هو جهل بني ادم * ولا دوا لهم سوى ان نضع بازا اعينهم ما يبدرقونه باطلًا ويخسرونه عبثًا لاجل شهوة ما تضاد الناموس الالهى * مهملين ما لانهاية لهُ بغية لما لا يدوم سوى دقيقة واحدة من

الزمن * فيلزمهم اذًا ان يتاملوا ما هو الشي الذى لانهاية له اعني
ما يستقيم دايمًا وهو الابدية * الّا انه من ذا الذى يستطيع ان
يورد لنا ذلك * من يشرح لنا الابدية التي هى كبحرٍ زاخر
غير محدود لا يمكن الوصول الي قراره * او كلجةٍ مقمة تغور
فيها كل قوة العقل البشرى * ان الابدية هى زمن وجودى
كاين دايمًا ليس لهُ ماضٍ ولا مستقبل * وهى دايرة متصلة
مركزها في كل جزٍ من اجزايها * وهى سنة مستطيلة جدًا حاصلة
دايمًا علي ابتدايها وليست بعتيدة ان تبلغ الانتها * وعلي الاطلاق
اقول ان الابدية هى شي لا يمكننا ان ندركه ويلزمنا ان ندرسه
ونتامله دايمًا * فلنوردن الان ما قالته عنها الابا القديسون
فالقديس غريغوريوس النزينزى عوضًا عن ان يعرّف الابدية
بالايجاب قايلًا ما هى * اورد تعريفها بالسلب اى بما ليس هى
فقال * ان الابدية ليست هى زمنًا ولا جزٍ زمنٍ * لان الزمن
واجزاه شي عابر * اما الابدية فليست بعابرة ولا عتيدة ان
تعبر * لان جميع العذابات التي تلم بالنفس حال حصولها في
جهنم لا تزال تولمها بعد الوف وربوات من السنين كما كانت
في الابتدا علي حدٍ سوى * هكذا جميع اللذات التي تتمتع بها
النفس حال حصولها في الملكوت السماوى لا ينزع منها شي ابدًا
فالزمن من خواصه ان يصدر ملكة ويفني قوة الاشيا * فالذى

يتبين في ابتدايه جديدًا عسرًا يعود بتمادى الزمان وبالعادة
سهلًا * اما الابدية فتستمر دايمًا على حال صحتها وكمالها لاينزع
منها شي ولا ينقص اصلًا * لكنها تستقيم بكليتها علي حال واحدة
فسرورها لايخالطه ضجر * وعذابها ليس لهُ علاج * وعلي حسب
هذا المعني قال القديس ديونيسيوس الاريوباجي ان الابدية هي
شي عديم التغيير غير قابل الموت غير خاضع للفساد * ولهذا قال
الحكيم اذا سقطت الخشبة يمينًا ام شمالًا فحيثما تسقط تثبت *
فان سقطت كعود جهنمي ملتهب في عمق اللجة * فانك ستحترق
دايمًا كما انك تستمر علي الدوام ساقطًا ولا تجد من يقيمك وينجيك
وما دام الله الهًا تستمر هناك ساقطًا لايمكنك ان تنقلب من
جهةٍ الى جهةٍ اخرى *
فالابدية هي غير قابلة التغيير لانها غير قابلة الانتقال من حال الي
حال * وهي غير قابلة الموت لكونها غير قابلة الانتهاء * وهي غير
قابلة الفساد لانها لاتقبل نقصًا * ان بلاياهن الحيوة وضيقاتها
ولومها كانت شديدة قاسية فتوجد فيها هذه التعزية * وهي
اما انها تخف بالتغيير اما تنتهي بالموت واما ان تنقضي بالفساد *
وهذه كلها لن توجد في السرور الابدية * التي لاتخف بالتغيير ولا
تداوى بالانتهاء ولا تعالج بالنقص * فان كان المن الاسرايلي الذى
كان الذ من جميع الاطعمة وافضل منها نفعًا * قد كره الاسرايليون

اكله لاجل مجرد مداومة استعماله * فماذا تفعل اشد العذابات
التي ستستمر ابدًا علي حالٍ واحدة * فالحمى اذا ما حصلت علي
غاية اشتدادها تفتر وتنقص شيئًا فشيئًا * اما العذابات الابدية
فتستثني من هذا القانون العام * فعذابات قاين التي تنوف علي
خمسة الاف سنة * هي الان كما كانت في الابتدا وستكون بعد
خمسة الاف سنة اخرى كما هي الان * ودوام الامها وثباتها علي
حال واحدة يضاهيان دوام مجد الله وثباته الغير القابل التغيير *
فتحيي اذًا الاشقيا ولكن لكي يعاقبوا * ويموتون وذلك ليلا يتنعموا
فلا يفوزون براحة هذه الحيوة ولابانتها الموت * الا انه لزيادة
تعذيبهم يشعرون بضيقة الموت ويفوزون بدوام الحيوة *
فتامل الان ما هو بعكس ذلك وانظر ما اسعد حظ من يموت
خليل الله * لان مجده سيكون غير قابل الزوال والتغيير * ثم انه
لايتسجس بالخوف من ان ينقص مجده او يفني اكليله * ونهار
تنعمه يكون نهارًا ثابتًا * وسروره جديدًا الي ابد الابدين *
فسعادة القديس ميخايل رئيس المليكة التي ابتدات منذ ستة
الاف سنة هي الان كما كانت اولًا * وستكون
لديه جديدة بعد ستة الاف سنة
كما هي الان في يومنا
* هذا *

الفصل السادس

* في ماهية الابدية علي راى بويسيوس الفيلسوف * المسيحي وبلوتينوس *

قال بويسيوس الفيلسوف المسيحي والثاولوغس * ان الابدية هي امتلاك حيوة غير متناهية امتلاكا كليا تاما * وهذا التعريف ولو انه بالوجه الاول والاخص يلاحظ ابدية الله * الا انه قد يمكن ان نطابقه لابدية الخلايق الناطقة المتمتعة بالابدية لانها تمتلك خيرات فايقة في حيوة غير متناهية امتلاكا كاملا تاما * وبالصواب ندعوا ابديتهم امتلاكا من حيث انه لا يوجد تمتع بشيء اتم وافضل كمالا من الفوز بالسلطان الكلي عليه مع امتلاكه * علي ان الذى تسلم شيا بوجه الرهن او الاستعارة فقد يتمتع به * الا انه ليس له عليه السلطان الذى لصاحب ذلك الشي * وقولهُ انها امتلاك كلي * لانها هي امتلاك جميع الخيرات خلوا من نقص احدها وامتلاكها معا * علي ان امتلاك هذه الخيرات لا يحتاج الي ان احدها يملك بعد الاخر * اذ انه يمكن ان تمتلك كلها معا * وهذا العرض الجزيل الاعتبار لا يوجد في حياتنا هذه * لانه ولو امكن ان يمتلك احد جميع الخيرات * فلمن المستحيل ان يتمتع بها كلها معا لكنه اذ يكون

متمتعاً مستلذاً بخيرٍ واحد * يلزمه ان ينتظر اذا رام ان يتمتع
بخير اخر * فالملك اليوغابلوس احد القياصرة الذين طلبوا اللذات
الارضية باشد اجتهاد * قد كان يبذل جهده وجده في ان يتمتع
بكل الخيرات واللذات معاً * ومع ذلك فكان علي الكثير وبالكد
الكلي يستطيع ان يتمتع في زمن واحد بثلث لذات او اربع
معاً * لانه اذ كان يتمتع بلذة الاكل والشرب لم يكن يمكنه ان
يتمتع بملاهي الرقص او الصيد او اللذات اللحمية * ولذلك اذ كان
يلتمس لذةً واحدة يلتزم بان يترك الاخرى * ومع انه لم يقدر
ان يحصل علي جميع اللذات اذ كان عديماً اللذات الخصوصية
التي تتمتع بقيّة الناس بها * فمع ذلك لم يمكنه ان يستلذ معاً
وفي زمنٍ واحد بالخيرات التي كان هو نفسه يمتلكها * اما
الصديق في الملك السماوي فلا يحصل علي خير بعد خير * لانه
يمتلك جميع الخيرات ويستلذ بها كلها معاً * ثم ان امتلاك
الصديق السعادة الابدية هو كامل ايضاً من جهةٍ اخرى * وذلك
لانه من الممتنع ان يسجسه احد في امتلاكها * لا بطريق
الخصومة ولا بسبيل الاختلاس ولا بنوع اخر * ولهذا قال بلوتينوس
ان الابدية هي حيوة كاملة معاً وفي كل دقيقة * فحيوة السمع
تكون في الملكوت كاملة بسماع التراتيل الموسيقيّة * وحيوة
الشم تكون كاملة باستنشاق عرف الروايح الذكيّة * وحيوة النظر

تكون

تكون كاملة بمشاهدة اجمل ما يكون في الاشيا المخلوقة * وحيوة الفهم تكون كاملة بمعرفة الخالق * وحيوة الارادة تكون كاملة بمحبتها اياه تعالي وتمتعها به واستلذاذها بحضرته جلت عزته * اما الحيوة الزمنيّة فلا يمكنها ان تحصل على هذا الملوم من الاستلذاذ * لان حركة حاسة واحدة تصد حاسة اخرى عن حركتها * واستلذاذ الجسد يمنع الروح عن التمتع بلذته * اما في السعادة الابدية فتكون الحيوة كليّة تامة * والامتلاك كليًا والاستلذاذ كذلك * فلا نقص في القوى ولا عجز في النفس ولا قصر في الزمان يمنع الصديقين عن التمتع الكلي والاستلذاذ التام بكل قواهم معًا *

اما الخطاة الاشقيا فحالهم بعكس ذلك * لانهم يختبرون في شقايهم الابدى نظرًا الى الشر تلك الاعراض عينها التي تختبرها الابرار في سعادتهم الابدية نظرًا الي الخير * على ان هولاء المنكود حظهم يكونون بكل جسدهم وجوهرهم في العذابات لا كانهم في شي مستعار * بل كانهم في شي ممتلك امتلاكًا كليًا * ولا يمكنهم ان ينزعوا عنهم هذا الامتلاك وينقلوه الي اخر * وليس انهم يمتلكون الشر والعذاب الابدى على هذا النحو فقط * بل ان هذا الشر والعذاب هو نفسه يمتلكهم امتلاكًا كليًا * لان حواسهم واعضاهم وادنى جزء من

اجسادهم

اجسادهم وكل قوى النفس الروحية تمتلكها المرارة والالم والشقا
والرجز واللعنة * فلاشي من الشقا الموجود لايوجد هناك *
فالذوق لايخلو من المرارة * والشهوة من الجوع * واللسان
من العطش * والنظر من الخوف * والسمع من الرعبة * والشم
من النتن * والقلب من الضيق والمخيلة من الارتياع * والاحشا
من لظى نار محرقة * وعلى الاجمال نقول ان كل جزء لايخلو من
وجع * وجميع هذه العذابات تهطل علي الخطاة دواما كطوفان
عرمرم * فان كانت نقطة من الما تاثر في الحجر وتحفرها * وان
كان طوفان اربعين يوما فقط كفى لابادة الارض وهلاك
كل حي * فترى ماذا يكون حينما يهطل عدل الله على الهالك
نارا وكبريتا لاربعين يوما فقط بل طالما يكون الله الها * وهذا
الامتلاك الشقي يجمع جميع الشرور بالمعية وفي زمن واحد *
وبكثرة هذه العذابات لاينثلم الحس ولا ينقص الانتباه عليها *
بل لايزال الهالك مستيقظا فايقا علي كل العذابات * مشعرا بها
جميعها كانه حاصل في عذاب واحد * فالنار مثلا لاتحرق
العظام والقلب والحشا فقط * بل انها تحرق النفس عينها ايضا
حرقا موبدا * لان امتلاك النفس هذا الشقا يكون كليا
كاملا * فكليا لانها تكابد جميع العذابات * وكاملا تاما
* لانها تكابدها بكل حواسها وقواها القابلة التالم *

الفصل

الفصل السابع

* في ايراد ماهية الابدية علي حسب تعليم القديس *

برنردوس

ان القديس برنردوس في عظته الاولي لعيد جميع القديسين اوضح ماهيّة الابدية علي نوعٍ اخر فقال * ان الابدية تعم كل الازمنة ماضية وحاضرة ومستقبلة * فلا تشبع من الايام والسنين والدهور لكنها تبتلع كل الازمنة الممكنة * ومع هذا فهي قابلة لان تبتلع اكثر من ذلك * وماعدا هذا فالابدية تحوى كل زمان * لانها في كل دقيقةٍ تمتع بما هي عتيدة ان تمتع بهِ في كل زمان * ولهذا قد دعاها احد المعلمين وقتاً ابدياً * وقال عنها احد رهباننا وهو لاونردوس لاسيوس انها لطويلة وقصيرة معاً * فقصيرة لانها تحوى في دقيقةٍ واحدة من الزمن كلما يمكن ان تحويه في زمن غير متناهٍ * فكما ان الزمن هو دقيقة عابرة متطايرة لانه ليس يوجد زمن سوى الدقيقة الحاضرة العابرة الان * هكذا الابدية ليست هي شيأ اخر غير دقيقة واحدة تستمر ثابتة * فجميع الازمنة نظراً اليها تعبر وتجوز واحداً بعد واحد * اما الابدية فتستمر حاضرة لكل زمان بغير تغيير * فالزمن وكل شيء زمني يشبه نهراً تجري مياهه بعزم شديد فتعتقب

امواجه بعضها بعضاً بسرعة عظيمة ولا تزال متحركة متغيرة *
اما الابدية فهي كصخرٍ صلدة او كارضٍ تجري فوقها المياه *
لا تزال ثابتة غير متحركة فيما ان المياه تجري فوقها ويعتقب بعضها
بعضاً وتزول عن النظر وتضمحل شيئاً فشيئاً * وقد تشبه ايضاً
الابدية نقطاً وسط الدايرة * فالنقط المتوسط يلاحظ على حدٍ
سوى كل الدايرة وكل جزءٍ من اجزايها * هكذا الابدية التي
هي دقيقة موازية ازمنة غير متناهية * فانها تلاحظ كل دقيقة
منها بمفردها وكل الازمنة المستقبلة العتيدة ان تكون *
وتحويها حاضرة على نوعٍ عجيب *
ومن ذلك ينتج شي معتبر جداً * وهو ان الخير المتحد بهِ الابدية
يحصل من قبلها اكثر ثمناً وعظمة علي قدر لا حد لهُ * وذلك
علي نوعين * وكذلك الشر المتحد بهِ الابدية يحصل اكثر شراً
بقدر غير متناهٍ * وذلك على نوعين ايضاً * فالنوع الاول هو
دوام ذاك الخير او ذاك الشر دواماً غير محدود * لان عظمة
الشي تزداد بقدر ازدياد دوامه * وبالنتيجة ان الشي الذي يدوم
الى زمنٍ غير متناهٍ يكون اكثر اعتباراً * وهكذا الشر
الغير المتناهي في دوامه * فانه ولو مهما كان خفيفاً في ذاته
فيفوق كل شرٍ غير متناهٍ في دوامه ولو مهما كان عظيماً في
ذاته * فلو قيل مثلاً لاحد اما ان يختار ان يكون في وسط اتون

نار ملتهب او ان يحتمل كل الامراض المعروفة من الاطبا
او يكابد جميع ما قاسته الشهدا من العذابات ويحتمل ذلك مائة
الف ربوة من السنين بشرط انه بعد انقضا الزمن المذكور تنتهي
اوجاعه وعذابه * واما انه يختار ان يحتمل وجع الصداع فقط ولكن
الى الابد خلوًا من رجا انتهايه * فلقد كان يجب عليه ان يختار
جميع العذابات المتقدم ذكرها افضل من انه يختار هذا العذاب
الاخير * لانه ولو مهما كانت تلك اعظم في شدتها الّا ان
هذا يفوقها بدوامه *
فليات الان ممثنوا الاشيا الزمنيّة ومعتبروها * وليجيبوني عما
اوردته متفلسفًا * انه لو يمكن احتمال عذابات جهنم القادحة
علي هذا الشرط اى بان تكون زمنية * فقد كان يجب ان نختارها
افضل من ان نرتضى بوجعٍ ابدى ولو كان خفيفًا * فكيف اذًا
لانحتمل بالصبر شدة ما خفيفة زمانًا وجيزًا كمقدار مدة هذه الحيوة
لكيلا نكابد العذابات الجهنمية الى الابد * كيف لا يوثر فينا
العذاب الجهنمي الموبد * ونخاف من وجع زمني * كيف لا نمارس
افعال التوبة * كيف لا نحتمل شدايدنا بصبر * كيف لا نقبل برضى
اعظم الاوجاع في هذه الحيوة ليلا نحتمل وجعًا واحدًا ابديًا *
وهكذا يمكننا ان نتفلسف عن الخيرات ايضًا * فلو كان في
اختيارك ان تتمتع بكل كنوز الارض وجميع لذات الحواس مدة

وبوات من السنين ولكن بهذا الشرط اى بان تنتهى مع حياتك الزمنية * فقد كان ينبغى ان تبدلها بلذة واحدة ابدية * فكيف اذًا تبدل جميع اللذات العظيمة المعدة لك في السما لتتمتع بها الي الابد بلذة عابرة ارضية * انه لقد كان يجب ان تبدل جميع الخيرات الزمنية لتربح بها خيرًا واحدًا ابديًا * فلماذا لاتربح كل الخيرات الابدية بتركنا احيانًا خيرًا ما زمنيًا * ولكى نورد هذه الحقيقة ايرادًا موثرًا فاعلًا علي قدر الامكان نقول * ان كون الله الها لو يكون زمنيًا فقط * لقد كان يمكن ان يفضل عليه كون اخر ابدى * ومع هذا كله فيرضى البخيل ويقتنع بكنزه الارضى الذى يسلبه منه الموت غدًا او تختطفه اليوم اللصوص * ولا يبالي باكنوز السماوية الابدية * ولعمرى انه لو يعدنا الله في الحيوة الاخرى بلذة حس واحد من حواسنا تكون ابدية * لوجب علينا لاكتسابها ان نترك جميع لذات هذه الحيوة * فما اعظم اذًا تفاقم جهل البشر وغباوتهم * هاهو ذا الله يعدنا بلذات غير متعددة غير متناهية * ولا نهوى من اجلها ان نباين لذة واحدة من اللذات الارضية *

ثم ان الابدية لها خاصة اخرى * وهى انها لا تكيف وتزيد الزمان العتيد فقط * بل الزمن الماضى ايضًا ولو كان قد عبر * ولهذا يسر القديسون الذين هم الان في السما مبتهجين لا من المجد

الممتعين بهِ الان ولا من الذى سيمتعون بهِ فيما بعد فقط * بل انهم يفرحون ايضاً من المجد الذى فازوا بهِ الي الان * ولا يزالون يهنون انفسهم على فضايلهم وافعالهم الصالحة * وبالنتيجة ان سعادتهم تشتمل علي كل الازمنة وعلي جميع الخيرات * اعني الخير الماضى والحاضر والمستقبل * فياما اوفر الاختلاف الموجود فيما بين هذه الخيرات الابدية والخيرات الزمنيّة * لان هذه اعني الخيرات الزمنية لاتدع الانسان ان يستلذ بها * لانه لا يوجد خير او سرور زمني لا يفسد نقص او سجس او خطر ما * وباقوى حجة لا يقدر الانسان ان يستمد لذة من الخير الزمني المستقبل * لسبب ان امتلاكه العتيد هو تحت ريب وشك * وليس انه لا يستلذ في الخير المستقبل فقط * لكن خوفه من انه لا يمتلكه ينزع عنه الاستلذاذ بالخير الحاضر ايضاً * وهذا الخوف نفسه لا يدع الخير الماضى ان يقدم تعزية للقوة الذاكرة * بل ان الخوف من فقد الخير الحاضر من شانهِ ان يصدر المآ في النفس يوازى في شدته عظمة استلذاذ الممتع بهِ *

واقول على الاجمال انه كيفما لحظنا الخيرات الابدية فنراها هى الخيرات العظمى ومن ثم ينبغى ان نرتاح اليها * وان نفرغ جهدنا كله في اكتسابها ولو دفعنا لاجلها كل خيرٍ زمني * والواسطة الجزيلة النفع لبلوغ هذا الغرض * هى تامل الابدية في هذه

الحيوة بتواثر علي قدر مايمكننا * وذلك مع ممارسة الثلث الفضايل
المعينة من القديس برنردوس في عظته الاولي على عيد جميع
القديسين حيث يتكلم هكذا * انه بالفقر والحلم والبكا تتجدد في
النفس على نوع ما صورة الابدية الحاوية كل الازمنة لانها اعني
النفس تستحق بالفقر المستقبلات * وتربح بالحلم الحاضرات *
وبالبكا تحصل ثانية علي الماضيات * انتهى قول القديس * وحقاً
ان من يعتبر الابدية ويستعظمها يجب عليه ان يبذل جهده الخاص
في ممارسة هذه الفضايل الثلث * وذلك اولاً بتجريد نفسه من
كل خير زمني بواسطة الفقر الروحي وببذله الزمني لربح الابدي *
ثانياً بالحلم والصبر مواظباً على فعل الخير وعلي الظفر بصعوبة
الفضيلة * متاملاً عظمة الاجر المعد لتعب يسير * لانه من ذا الذي
يرى السما وجهنم مفتوحتين * ويتامل ابدية وجوده العتيد في
احدهما * ولا يقوى قلبه متشجعاً ويختار ان يجتاز بالنار والماحباً
لمخلصه * قد خبرنا المعلم روفينوس ان احد الرهبان اتى الي ريسه
ليكشف له حال نفسه فقال ان دوام السكني في قلايته يسبب
له ضجراً وحزناً عظيماً * فاجابه الريس الحكيم قايلاً اعلم يا ابني ان
سبب ذلك هو لانك لاتتامل العذابات الابدية التي تتهددك *
ولا الافراح الدايمة التي يقوى بها قلبنا فلو كنت تردد في عقلك
هذه الامور * لاستقمت في قلايتك بغير حزن ولا ضجر ولو امتلات

دودًا وعمت انت في وسطه الي عنقك * اما الفضيلة الثالثة التي يلزمنا ان نمارسها فهي التوجع الصادر من العبادة * الذي به تجتهد النفس في ان تفي عن خطاياها السالفة بانسحاق القلب والدموع الحارة والاسف * لاننا بالتوبة نربح ابدية الخيرات التي خسرناها بالخطية * فلا نبالين اذًا بالمثل الدارج القايل ان الذي صار لادوالة ولا رجوع للماضي * علي ان قوة هذه الفضيلة اعني فضيلة التوبة لعظيمة بهذا المقدار * حتي ان سلطانها وفاعليتها تمتد الي الماضي * لانها تمحو الخطايا الماضية وتبيدها كانها لم تكن ابدًا *

الفصل الثامن

في ايراد معني كون الابدية عديمة النهاية

ان كل ما تقدم من ايضاح حقيقة الابدية وتعاريفها * لايكفي المتامل لان يفهم سمو عظمتها فهمًا حيًا * ومن ثم يسوغ لنا ان نقول عنها ما قالة سيمونيدس الفيلسوف عن ماهية الله * وذلك ان هذا الفيلسوف لما سالة جيلون ملك سيسيليا عن الموضوع المذكور فطلب منه مهلة يوم ليتامل ما يجيب به عن هذا المشكل ثم بعد ذلك اليوم قال انه يحتاج الي اوفر مهلة فطلب يومين اخرين وبعد هذه المدة طلب ايضًا اربعة ايام * واذا انقضت هذه ايضًا اجاب انه بقدر ما يتامل هذا الموضوع بمقدار ذلك تزداد مادة

التامل وتعسر عليه صورة ايضاح المشكل * فهذا نفسه
يمكننا ان نقوله عن الابدية التي هي لجة عميقة يغرق في تيارها
عقل من غاص فيها بالتامل وينذهل متحيرًا * وكما ان القديس
ديونيسيوس يقول في شان الله انه لا يقال عنه تعالي ما هو *
بل انما يقال عنه ما ليس هو وما يسمو تعالي عليه * هكذا الابدية
فلنا ان نقول في تعريفها هذا فقط وهو ما ليست هي وما تفوق
عليه * فالابدية اذًا ليست هي زمنًا ولا مدة ولا جيلًا ولا ربوات
من الاجيال * بل انها تفوق ربوات الاجيال وكل زمن وكل مدة
فحياتك اذًا هذه التي تتنعم فيها وهي عتيدة ان تنتهي بعد هنيهة
ليست هي بابدية * وقوتك هذه التي تتباهي بها ليست بابدية *
وهكذا املاكك وكنوزك التي تفتخر بها واوليك المقتدرون من
اعزا العالم الذين تعتمد عليهم فليسوا بابديين * ولا هذه الخيرات
التي تسر الان بها * لان الابدية هي شي اعظم من ذلك * والاشيا
الابدية تتعالى علي هذه كلها * فتسمو علي الممالك وعلي كل
سعادة عالمية * ولذلك قال لاكتنسيوس وغيره من المعلمين
في تعريفهم اياها بما ليست هي * ان ما ليس لهُ انتها هو ابدي *
او ان الابدية هي شي غير خاضع للتغيير * او هي شي لا شبيه لهُ *
اي انها شي غير محدود غير قابل التغيير والتشبيه *
فنظرًا الي تعريفها الاول اي نظرًا الي كونها عديمة النهاية * قال

الانبا كيساريوس ان الابدية هي نهار لامسا لهُ * لان ابدية
القديسين لاترى قط ضوء الشمس غايبًا عن نهار سعادتهم * اما
ابدية الخطاة فهي ليل موتٍ لايضي لهُ نور الشمس ابدًا * لانهم
يستمرون الي الابد في ظلام مقتم مدلهم * حيث تحترق اجسادهم
وتستكلب انفسهم على الدوام * فان كان المبتلى بالحمى الذى
قد سلب رقاده * بعد كل ساعة من ليلهِ بمنزلة عام واكثر
مع انه يتضجع على فراش ناعم * فماذا يكون حال اوليك الذين
يطرحون علي فراش ملتهب بليلة ابدية خلوًا من رجا صباح *
اوليك الذين كانوا في هذه الحيوة نايمين حينما كان ينبغى ان
يكونوا مستيقظين * وقد شبه الاقدمون عدم تناهى
الابدية بحلقة الخاتم * ولذلك قد اجاد المرتل بتشبيههِ الابدية
باكليل * حيث ان الاكليل هو مستدير كدايرة الخاتم لاحد لهُ
ولانهاية كما لحظ ذلك الانبا ديونيسيوس الكارتوسي * وهذا دليل
على ان افعالنا الصالحة واعمالنا الردية تجازى بابدية لانهاية لها *
ولعمرى انهُ كان ينبغى ان نرتعد فرقًا عند قراتنا او سماعنا لفظة
عدم النهاية المعد للافعال الشريرة * وان نبتهج متهللين اذ نقرا
او نسمع بان ذلك معد للاعمال الصالحة * وفي بيان هذا قد
ضرب القديس بونا وتتوا مثلاً فقال * لو ان احد الهالكين
يقطر من عينيه كل مية سنة دمعة واحدة * وتحفظ دموعه

كلها

كلها الي ان يتكون منها بحر عجاج بعد الوف الوفٍ ربوات ربواتٍ من السنين * فنري كم كان ينبغي من السنين والدهور ليتكون من دموعهِ لا بحر عظيم بل ساقية واحدة لاغير * ثم انه اذا فرضنا انه قد تكون بحر هكذا من دموعه بدهور لا يحصى عددها * فهل تكون الابدية حينيذٍ في نهايتها كلّا * بل هذا هو ابتدايها فقط * فلندع الدموع تجري من اخرى على النوع المذكور من عيني الهالك وليتكون منها بحر اخر بمدة توازي مدة تلك الدهور * فهل تكون الابدية حينيذٍ بلغت نهايتها كلّا * بل انما تكون في ابتدايها لاغير * فليكرر ذلك عشر مرات او عشرين مرة او مية الف مرة اخرى * وليجتمع منها مية الف بحر اخر * فبعد ذلك هل نكون بلغنا الى عمق الابدية كلّا * بل انما نكون علي شطها لاغير * فيقصر علم الرقم ولا يستطيع ان يحوى سني الابدية * لانه اذا افترضنا بان السموات جميعها حصلت ورق رقٍ * وكلها مليت الي اطرافها من اعداد الرقم * فهذه جميعها لم تكن نحوٍ من الابدية الّا جزءً ما صغيرًا * انه قد زعم قوم من الفلاسفة علي عهد ارکيميدس ان رمل البحار غير متناهٍ * وقال اخرون انه متناهٍ الّا انه غير محصى * فاخذ ارکيميدس يورد غلط الفريقين * فالّف كتابًا قدمه الي جيلون ملك سيسيليا مبرهنًا فيهِ * انه لو كان العالم كله مملوًا من الرمل

لكان

لكان عدد حباته متناهيًا محدودًا ممكنًا احصاوه * ثم بعد هذا
الفيلسوف ظهر الانبا كلافيوس اليسوعي * فاورد برهانًا
رقميًا موضحًا به كم يلزم من حبوب الرمل ليمتلي منها كل الفضا
الذى من الارض الى السما * وقد افترض ان تكون حبة الرمل
صغيرة بهذا المقدار حتي ان كل عشرة الاف حبة منها توازى حبة
خشخاش او خردل * ومع هذه البلاغة جميعها فقد احصى المعلم
المذكور عددها * وحصرها جميعها بعدد الواحد تاليًا خمسين
نقطًا * فان كان اذًا خط صغير يحتوى علي هذا المقدار من ربوات
الحبوب الرمليّة * فماذا يكون مقدار السنين الغير المتناهية
المحتوية في الابدية * فحقًا انه لوكان السما كله صحيفة واحدة *
وامتلا العالم كله حتي السما من صحف مملوة من الاحرف الرقمية
على النحو المتقدم ذكره * فهذا جميعه لم يكن يتضمن سوى جزء
صغير من الابدية * ولذلك قد اجاد لاكتانسيوس بقوله * ترى
كم ينبغي من السنين لكى تشبع الابدية التي لانهاية لها * فاطرح
من الابدية سنين بمقدار نقط ما البحر وغبار الهوا وورق الاشجار
ورمل الارض ونجوم السما * فترى الابدية بعد ذلك علي حال كمالها
الاول ثم زد علي الابدية المقدار المذكور من السنين فلا يلحقها
زيادة البتة ولاتكون لذلك مبتعدة من نهايتها اكثر بعدًا *
وذلك لانها عديمة النهاية والبداية * وهكذا تصور جبلًا رمليًا

يبلغ عنانه من الارض الي السما * ياتيه كل الف سنة ملاك ياخذ
منه حبة واحدة * فالي كم ربوات من السنين يحتاج هذا الجبل
الي ان يعود ارضا ممهدة * ومع هذا فقد كان ياتي الوقت الذى
فيه توخذ الحبة الاخيرة * اما الابدية فلمن المحال ان تحصل في
نهايتها واخرها * فيزول هذا الجبل ولا يزول شي من الابدية *
وقد يتبين ان حبقوق النبي اعني ذلك حيث قال * تطاطات
اكام الدهر وتلاشت من قبل طرق ابدية * لانه يمكن ان
كل جبال لبنان تتطاطا وتعود ارضا سهلة * وذلك مرارا
لايحصى عددها خلوا من ان ينقص شي من ابدية الخطاة *
وهكذا يحتاز اولئك الاشقيا في وسط هذه النار الاكلة والعذابات
الموبدة الوفا في الوف وربوات في ربوات من السنين *
ويكونون مبتعدين من الانتهاء نظير يومهم الاول *
فمن تراه يطيق ان يشوى جانبه مدة سنة واحدة * ومالي اقول
يشوى جانبه * بل من يقدر ان يستمر سنة واحدة منضجعا
علي جانبه من غير ان ينقلب من جهة الي جهة اخرى *
فياليت يتامل ذلك بنوا البشر كل يوم نصف ساعة * على انهم
لو فعلوا ذلك * لغيروا سيرتهم لامحالة واصلحوها * وقد عرفنا
من الاخبار كم يكون هذا الاعتبار موثرا قويا * فقد ذكر
برئردوس رنتاوس عن رجل عالمي قد كان بالكلية متغاضيا عما

يخص خلاص نفسه ومستغرقاً في الرذايل منهمكاً في طلاب
كل نوع من اللذات * منعكفاً علي طيب الوسن * فاتفق من
انه اذا اضجع ليرقد رق نومه واسمر ليله كله متقلباً من جهة
الي جهة اخرى * حتي صارت لديه كل دقيقة من الزمن بمنزلة
عام * ففيما هو على هذه الحال متقلباً علي فراشه * دهمه هذا
الفكر الذى خاض في تامله قايلاً في نفسه * ترى ما الذى لم تكن
تفعله وتحتمله ياهذا لكيلا تكون منضجعاً هكذا سنتين او ثلث
سنين في ظلام مقتم * ممنوعاً عن مذاكرات اصحابك والتمتع
بتنزهاتك ولوكان ذلك على فراش ناعم * فلا جرم انك كنت
ترى هذا عقاباً غير محتمل * فاذكر اذاً واعتقد انه لامناص
لك من هذا العذاب العتيد * فاحسن الان افتكارك * واعلم
انك ستضجع على فراش وجعك الاخير حيث تستمر ملقى بتالم
بليغ ليالي كثيرة * الا ان ينزل بك الموت فجاة وحينيذٍ تكون
اشقى حظاً * ثم بعد رقادك علي الفراش المذكور حيث ينتظرك
الموت * سيكون فراشك الاخير المحفوظ لك الان هو الارض
حيث يوكل جسدك من الدود ويرعي من الحشرات * اما نفسك
فهل تعلم متحققاً ماذا يصير بها * لعمرى انك اذا ما نظرت الى
سيرتك هذه الحاضرة فلا تجد امامك طريقاً الا التي توديك الي
جهنم * فيالذاك الفراش النارى الذى تجد هناك ما ارهبه فهناك

وعلي

وعلي ذلك الفراش ينبغي ان تمكث راقدًا لاسنتين اوثلث سنين *
بل دوامر الابدية حيث تضطر بالسكني في ظلمة مقمة وعذابات
موبدة * ولا تستطيع بعد الوف وربوات من السنين ان تفي عن
احدى لذاتك القبيحة السيئة * فهناك لاتبصر شمسًا ولا سماءً
ولا الله * فيالسوحظي واهًا لشقاوتي لانني ان كنت لا استطيع
ان احتمل هذا السهر اليسير علي فراش ناعم * فكيف يمكنني ان
احتمل عذابات موبدة فالذى يجب اذًا علىّ ان افعله هو ان
اغير طريقي * لان هذه الطريق التي اسلك فيها ترجني في
الهلاك لامحالة * فبهذه الاعتبارات اثر فيه فكر الابدية تاثيرًا
هذا حد فاعليته * حتي انه لم يعد يمكنه ان يطرده من عقله *
فلذلك عزم اخيرًا على السلوك بطريق الرهبانية * وكان
يقول في نفسه مرات كثيرة هكذا * ما الذى افعله الان في العالم
انا الشقي * اني انتعس والذ * الآن تنعمي هذا سيطوح بي الى
الهلاك * مع انني احتمل اشياء كثيرة قهرًا وجبرًا * واشيا اخر
غيرها التمسها ولا احصل عليها * وقد تتعبني خيرات هذه الحيوة
جدًا * وماذا يكون ثواب اهتمامي هذا الباطل * انني لست
اجد فرحًا تامًا * واذا وجدته فماذا يكون دوامه * هاهوذا
في كل يوم اشاهد الناس يموتون ويلجون الابدية * فيا ايتها
الابدية انك ان كنت في مكان اخر غير السما فاينما وجدت فانت

من

من موملة ولوكنت علي فراش ناعم * فلنجعلن السما في امان وطمانينة * ولا نخسر الكثير لاجل القليل * قال هكذا وصنع كما قال ودخل الرهبنة *

ولعمري انه كان ينبغي ان نستحضر هذا الفكر في كل افعالنا قايلاً كل منا في نفسهِ * ان الثواب المعد لافعالي الصالحة هو ابدى * وكذلك العقاب المعد لاعمالي الشريرة هو ابدى ايضاً * لانه بهذا الفكر يتقوى المومن على فعل الخير واتقانه * خبرنا اليانوس المورخ الوثني عن سمينيا قاصد مدينة تيبيس * انه لما تقدم الى ملك العجم ليورد لهُ الامر المقصود من اهل مدينته * وعرف قبل ذلك انه يلتزم بان يسجد لهُ * راى ان اكراماً مثل هذا لملكٍ بربري هو متجاوز الحد * فلذلك استعمل الحيلة الاتي ذكرها * وهي انه نزع عن اصبعه خاتمه * وكان مرتسماً بصورة مرسله كما كانت العادة قديماً بان يكون الخاتم دليلاً على جلال سلطان صاحبه وجزيل اعتباره * ثم القاه بصناعة بقرب رجلي الملك وسجد قايلاً في فكر اني ساجد لا لهذا الملك بل لرب هذا الخاتم * فهكذا نحن لو كنا في كل افعالنا نوجه فكرنا ونيتنا الى الابدية * لم نكن نجد صعوبة في اعمالنا الصالحة اصلاً * لكننا قد كنا نهتف هكذا تبارك الله الذى يمنح اجرا ابدياً عن تعب خفيف وعمل وجيز *

قد

قد ذكر عن اوريبيدوس الشاعر الجزيل الاعتبار عند اليونانيين
انه شكا يوماً من ذاته لانه لم يقدر في مدة ثلثة ايام ان ينظم
سوى ثلثة ابيات * فسمع هذا شاعر اخر يقال لهُ السيستيدس
فقال * اما انا فاني انظم بسهولة مية بيت في يوم واحد * فاجابه
اوريبيدس قايلاً ان هذا ليس هو بعجب * لان اشعارك لاتدوم
سوى ثلثة ايام ثم تنسي * اما اشعاري فانها تدوم الي الابد * ومثل
ذلك قال زوكسيس المعلم اليوناني الماهر في صناعة التصوير *
لانه لما سيل عن سبب اطالته في اتمام ما يصوره فقال * اني
اريد في عملي ان اصور ما يستقيم الي الابد * فحقاً انه قد ضل
زوكسيس المصور بقولهِ هذا * حيث انه لايوجد شي مما صوره
وقد ضاع شي كثير من اشعار اوريبيدس * اما الصديق فلا يضيع
فعل ما من جميع افعالهِ الصالحة ابداً * ولعمري ان اكتساب
الابدية لا يقتضي منا تعب يوم واحد * لانه بفعل واحد من افعال
الندامة الكاملة نرجو اجراً لانهاية لهُ * فلنستفيدن اذاً من قول
اوريبيدس وزوكسيس * وذلك لابممارسة الاعمال الصالحة فقط
بل بممارستها حسناً ايضاً * ولنماثلن القديس ارسانيوس *
الذي بعد ان اصرف في طريق القداسة سنين كثيرة * كان يعد
حالة حال المبتدي * ويكرر كثيراً قول المرتل * انا قلت اني الان
ابتدات * فلنحذرن اذاً من ان نلاحظ ونتامل ما احتملنا من

الاتعاب * لكن فلنوجه عزمنا الى اتعاب اعظم من الاولى
اكراما لله * حسبما كان يفعل الرسول الذى قال عن نفسه
انه كان ينسي ما وراه ويتسع في فعل الخير فيما سياتي * وقد قال
هذا القول بعد ان كان تسامى في القداسة جدًا * وخدم الله
لنفع النفوس خدمًا سامية بهذا المقدار حتي انه فاق في ذلك علي
بقية الرسل * قال هذا بعد ان كان دخل مجامع دمشق الشام
وبشر بالسيد المسيح والقى نفسه في خطران يقطع اربًا اربًا
لولم ينحدر من اسوار المدينة هاربًا * وبعد ان كان انار شعوبًا
كثيرة في بلاد ارابيا بنور الانجيل المقدس * واجتذب الى
الايمان اناسًا لايحصى عددهم في ترسوس وانطاكية * وبعد
ان طاف مرات كثيرة مملكة اسيا المكناة بالصغرى * والجزء الاعظم
من بلد اوروبا * وبعد ان احتمل اضطهادات شاقة ورجم
مرات كثيرة * ومن كاد يموت من الرجم وجلد وسجن مرات
عديدة * وبعد ان خطف الى السما الثالثة وصنع عجايب مذهلة
كثيرة * فبعد هذ كلها كان يعد نفسه انه لم يتعب بعد ولم
يصنع شيًا من اجل سيدنا يسوع المسيح * وكان كانه حاصل
بعد في اول يوم من ارتجاعه وتوبته * فكان يشد عزمه ويوطن
في ان يفعل ويتعب ويكابد اكثر مما تقدم * محتسبًا ذاته
بعد هذ الخدم جميعها عبدًا بطالًا لانفع له * حسب مشورة

السيد

السيد المسيح لتلاميذه بقوله قولوا انا عبيد بطالون * لاننا انما
فعلنا ما كنا ملتزمين بفعله * فان كان الرسول بعد بلوغه الي
هذه الاستحقاقات السامية نسي ذلك وابتدا ابتداً جديداً * فنحن
الذين ما ابتدانا بعد لماذا نتظاهر بالانحلال قبل ان نبتدي *
فلنبتدين اذاً دايماً ابتداً جديداً * لان الابدية التي تنتظرنا هي
عتيدة لان تكون جديدة دايماً وعلى حال الابتدا * قال الانبا
ديونيسيوس الكارتوسي في تفسير المزمور السادس والسبعين *
لانفتخرن في استحقاق حياتنا الماضية ولانحسب انفسنا شيئاً *
لكن لنمارس اعمالنا كل يوم بنشاط جديد كاننا في ذلك اليوم
* ابتدانا وفيه نفسه عتيدون ان نموت *

الفصل التاسع

في ان الابدية عديمة التغيير

اعلم ان خاصة الابدية الثانية هي عدم التغيير في دوامها * وقد
اشار الي ذلك الاولون بامثال سرية * فمنهم من كان يصورها
بصورة كرسي * وهكذا راى اشعيا النبي الرب جالساً على
كرسي عال رمزاً علي عظمة ابديته * والقديس يوحنا في
جليانه يذكر مرات كثيرة كرسي الله * مشيراً ايضاً بذلك الي
دوامه تعالي الابدي * اما دانيال النبي فقد اوضح ذلك جلياً حينما

استعلن

استعلن الله لهُ ودعا الله تعالي قديم الايام وابصر جالسًا على كرسي وشعره ابيض كالثلج * وقد ذكر عن شعب ما من بلاد افريقية * انه اذ كان يشرف واحد منهم علي الموت فكانوا يجلسونه على كرسي * مشيرين بصورة الجسد الجالس الى الحال العتيدة ان تحصل عليها النفس وهى حال الابدية * ومن اجل هذا السبب عينه كانوا يضعونه اى يضعون الميت في القبر جالسًا * غير انهم بهذا كانوا يشيرون الي شي اخر ايضًا * وهو انه لا يجب ان نفتش في هذه الحيوة على الراحة بل ان نطلبها بعد الموت فقط حينما ندخل ابواب الابدية * وحقًا ان الله لم يرسم هذه الحيوة للتمتع بالراحة * واذا تفرسنا بشقايها عرفنا بالكفاية ان الله لم يجعلها لنضع فيها قلوبنا * بل لان تكون لدينا كشي مستعار * ومن ثم لا يليق بنا ان نلتصق بها * بل الخليق بنا ان نجد سعينا واحضارنا الي جبل الابدية * وقد تعلمنا حياتنا هذه الشقية بلسان حالها بانه قد توجد حيوة اخرى حيث نجد الراحة التي نطلبها هنا باطلًا * لانه في السما فقط تنتهى اتعابنا وهناك تمسح كل دموع وادى شقايانا * هناك نجد علاجًا وتعزية لهمومنا * هناك ندرك المركز حيث يهدا سجس قلبنا *

ثم ان غير هولاء المتقدم ذكرهم كانوا يصورون الابدية بصورة الحية * مشيرين بذلك الي خاصة الابدية المذكورة اى عدم

تغييرها * اولاً لانه كما ان الحيّة ليس لها حد الارجل هكذا
الابدية ليس لها حد النهاية * ثانياً كما ان الحيّة مع كونها
عديمة الايدى والارجل والاجنحة * فانها تقفز بخفة عظيمة
وتسبق بحدة جريها بقيّة الحيوانات ذوات الايدى والارجل
مسمّة هذا كله من حدة ارواحها الروحيّة * هكذا الابدية
فانها خلوّاً من الايام والليالي التي هى بمنزلة ارجل يجرى بها الزمان
تغلب بجريها كل زمن * ثالثاً ان الحيّة ذات حيوة قوية مديدة
بهذا المقدار كما قال فيلون الفيلسوف حتي انها لاتموت الّا قتلاً
فكانها لاموت طبيعى لها * ولذلك لايوجد في الحيّة التغيير
الموجود في بقيّة الحيوانات كالتغيير من الحداثة الي الشيخوخة
ومن الصحة الي المرض * لانها تحفظ دايماً حداثتها * ومرات
كثيرة تجدد شبوبيتها بقلع قشرها * وما عدا ذلك فليس لها
طول محدود كما لبقيّة الحيوانات بل تنشو وتطول دايماً شيأ
فشيأ * هكذا الابدية لاحد لها في طولها ولاتغييرما * ولعمرى
ان هذا العرض لمخيف جدّاً لدى الخطاة الهالكين * اعني الاستمرار
في العذابات خلوّاً من كل علاج وتغيير عذاب بعذاب اخر *
قال القديس بولينوس عن القديس مرتينوس * ان راحته كانت
انتقال من تعب الي تعب اخر * علي ان الذى لايزال يتعب يحصل
على علاجٍ ما وراحةٍ ما اذا تغير تعبه بتعبٍ اخر * ولعمرى انه

لامر

لامر مرهب من يتاملـه * وهوان قاين اول الذين هلكوا
وسقطوا في جهنم * له الان في العذاب ما ينيف علي خمسة الاف
سنة ولم يخف عذابه اصلاً ولم يشعر بعلاجٍ ما ولا بتغيير البتة *
مع انه لم يزل يحدث في العالم تغيير في كل وقت * فاولاً قد ابتلع
الطوفان الارض كلها ولم يبقِ من الجنس البشري سوى ثمانية
انفار * ثم من بعد ذلك حدثت تغييرات اخر مستغربة * لانه
حينما كان الناس يعيشون بحرية تسلط عليهم الاثوريون
تسلطاً اغتصابياً * ثم انتقل التسلط الي اخرين * وفي مدة الف
ومايتين واربعين سنة ملك ستة وثلاثون ملكاً * ومكث الملك
في ايدى الماذيين بتسبجس اسيا كلها * وبعد ذلك بثلثماية
سنة انتقل الملك الي الفرس ثم الي اليونانيين ومنهم الي الرومانيين *
وفيما بين هذ التغييرات جميعها لم يصير تغيير ما في حال قاين اول
الهالكين * وما عدا ذلك فقد عرضت في مدة الزمن المذكور
استحالات وتغييرات كثيرة في العالم * لانه كم من الجزاير ابتلعها البحر
وقد قال افلاطون ان واحدة منهن كانت اعظم من بلاد افريقية
واوروبا * ثم ان البحر اخرج من عمقهِ جزاير جديدة * وكم من
العمارات المشيدة زعزعتها الزلازل وهدمتها * والافضل ان نقول
كم من الجبال تطاطات وتغيرت * وكم من المدن هبطت في عمق
الارض وتقوضت * وكم من الانهر غارت وجفت * او اختلف

جرى مياهها وتحولت * وكم من التغييرات عرضت في بقية
الاشيا * كم من تغيرت السنة وطقوسها * كم كرت الايام والليالي
اما قاين الشقى اول الهالكين فانه ماكث الان في ليلة المظلمة
ككونه فيها اول يوم سقوطه * وفيما هو متعذب هنالك قد
دارت الشمس في قطبها حول العالم العنصري مقدار عشر كرات
وستماية الف مرة وينيف * اما قاين الشقى فلم يعط له ان يمشي
خطوة واحدة من اول يوم سقوطه في المكان الجهنمي * وزد
علي ذلك وتامل ما اكثر الاتعاب التي احتملتها الناس في العالم
وقد عبرت * وما اكثر الامراض التي ادركتهم * والعذابات
التي المت بهم * والاوجاع التي احذقت بهم * فهذا كله قد عبر
وزال * اما اوجاع قاين الشقى وعذاباته لم تزل ولم تنقص بعد
خمسة الاف سنة واكثر * فقد كان تولوماوس يتململ من الم
الزنطارية * واريستركوس من الاستسقا * وكميسيس من
وجع الصرع * وطوبيا البار من العما * وايوب الصديق من البرص
الا ان هذه الاوجاع جميعها انتهت وبادت * اما اوجاع قاين فلم
تنثنِ بعد ولاهي عتيدة ان تنتهي فيما بعد * سكان راباد منهم من
تنشر من وسطه ومنهم من احترق حيا في اتون ملتهب ومنهم
من تقطع اربا اربا وقد شوى بريللوس في جوف ثور من نحاس
محمى * الا ان هذه العذابات جميعها قد انقضت وزالت * اما

عذابات قاين الشقى لم تنثنِ ولم تبتدى ان تعبر وتنتهى * لانها بعد
مية الف سنة ستكون ايضاً كما كانت في ابتدايها لا اكثر
ولا اقل * فما ذا يكون رجز اياسه عند نظر جميع هذه التغييرات
قد حدثت في كل شى * وعذابانه لم يشوبها تغيير ما ولو انه
يسير جدًا * ولعمرى ان ملذات هذه الحيوة لو لم يعرض لها
التغيير لكانت عذابات مرّ * فما ظنك في احتمال الهالكين
عذابات عديمة التغيير * فاى غضب اذًا يستحوذ علي قاين الشقى
حينما يتامل ان نيران القديس لورنسيوس قد طفيت * وسياط
القديس اكليمنضوس الانكرى قد كفت * وصليب القديس
اندراوس ارتفع * وصيامات القديس ايلاريون انتهت *
ومسيح القديس سمعان العمودى عدم * والات تقشفات
القديس دومينيكوس تلاشت * وجميع عذابات الشهدا
وتقشفات المعترفين قد زالت واستحالت الى لذات ابدية * اما
عذابانه فلم تعبر ولم تتغير ولا رجاء له بان تنتهى او تتغير * فحقًا
ان هذا من شانه ان يمزق قلبه بشدة الحزن * لاسيما اذ يرى
انه عاد من الممتنع ان يجد علاجًا ودوًا قد كان في وقته متيسرًا
سهلًا * وذلك كالغني الشرير الذى كان يقدر ان يربح الافراح
الدايمة بالفتات الساقطة من مايدته * والان يرى ابراهيم الجواد
يبخل عليه بقطرة ماء *

فليتنبه

فلينتبه اذًا المسيحي من رقاده * وليفتحن عينيه * وليهتم فيما هو
الان قادر عليه * اى في مداواة ما لا يقدر على مداوانه فيما
بعد * فالان الزمن مقبول مناسب * الان وقت الخلاص والغفران
الان وفي دقيقة واحدة يمكننا ان نكسب ما لا يمكن ان
نكسبه فيما بعد في مدة الابدية كلها * وهذا المعني يدلنا
عليه لهيب اتون بابل الذى ارتقى تسع واربعين ذراعًا حسبما
يذكر عنه الكتاب المقدس ولم يبلغ الى الخمسين * وسر
ذلك هو ان عدد الخمسين كان رمز الغفران الاسرايلى العام *
فهكذا لهيب جهنم المرموز عنه باللهيب البابلى * فانه وان ارتقى
فوق كل عذابات هذه الحيوة * فلا يبلغ ابدًا الى ربح الغفران
وترك العذاب ولو دام ربوات سنين من الزمان * ترى كم كان
يعطى الهالك لكى يستطيع ان يمارس التوبة مقدار ربع ساعة
من الايام والاشهر والسنين التي يصرفها الان بنوا البشر باطلًا
عبثًا * فلا نبدر قن اذًا هذا الشي الجزيل الثمن * ولا نضيعن
الزمن ونضيع المجد الابدى معًا * ولا نزج بانفسنا في خطر
السقوط في جهنم * ان زمن هذه الحيوة لثمين بهذا المقدار حتي
ان القديس برنردوس قال عنه مبالغًا ان ثمنه يوازى ثمن الله
عينه * وذلك لاننا به نكسب الله نفسه * فلا نبددن هذا الشي
الجزيل ثمنه * بل قلنزيحن به الابدية والهه الابدية ايضًا * فالجهلة

العالميون

العالميون يقولون لنتنعم الان * اما الحكما المحنكون فيقولون ان الاجدر هو ترك التنعم الان لنربح التنعم الابدى * العالميون يقولون لنبتغين الان ملذات العيشة الحاضرة * اما عبيد السيد المسيح فيقولون لنمت الان اجسادنا لكى نحيي الى الابد * الخطاة يقولون لنهمكن الان في تنزهات العالم * اما اتقيا الله فيقولون لنهجرن هذا العالم المتغير سرعة لنكون مع القديسين في * السما الى ابد الدهور *

الفصل العاشر

في ان الابدية لامثيل لها ولا تشبيه

كما انه لاتوجد متاسبة ولامشابهة ما بين المتناهي والغير المتناهي هكذا لاتوجد مماثلة ما بين الزمني والابدى * ومن ثم كما ان حبة الرمل والجبل العظيم يبعدان عن عز الله بعدًا متساويًا * هكذا لحظة عين ومدة الف سنة تبعدان عن الابدية علي حدٍ سوى * ولهذا قال بو سيوس ان المتاسبة ما بين دقيقة واحدة من الزمان وبين الف سنة هي اعظم من المتاسبة التي بين الف سنة والابدية وهكذا المرتل فانه لهذا السبب اذ شرع يتامل الزمن الماضي منذ ابتدا العالم الي عصره * كني الاجيال السالفة بالايام بقوله * تفكرت بالايام القديمة * وليس بعجبٍ انه دعاها هكذا حيث انه

في

في مكان اخر قال ان الف سنة في عيني الرب كيوم امس الذى
عبر * وقد احسن القديس يوحنا الانجيلي اذ دعا جميع السنين
التي من عصر الى انقضاء العالم ساعة واحدة * اما دانيال النبي
فانه اذ تكلم عن مجد الرسل القديسين قال انهم ينيرون
كالكواكب الساطعة الي الابديات الدايمة * هكذا يقيّة الانبيا
يدعون الابدية ابدية دايمة * وسنين ابدية * ودهور الدهرين
وهذ كلها كلاشي لايضاح دوام الابدية الابدى * فلو ان
قاين يعيش الي يوما هذا متمتعاً بكل سعادة هذا العالم * ثم يموت
في هذا اليوم * لما كان لهُ من جميع هذ الايام شي اكثر
مما لاخيه هابيل الذى قتله منذ خمسة الاف سنة وينيف * ولم
يكن بقى لهُ من كل لذاتهِ سوى فكر زوالها في الزمان المظلم
وفي ايام الابدية التي لاتحصى * على انه ان كان شر عذاب
ساعة واحدة ينسي تنعماً عظيماً كما قال ابن سيراخ * وبالنتيجة
ان عذاب ساعة واحدة يمحو ذكر لذات سنين كثيرة * فكيف
لايمحو عقاب ابدى ذكر لذة استقامت دقيقة واحدة وزج
فاعلها في جهنم * وان كان دقيقة موت الجسد تعدم الانسان
كل لذة * فما الذى تفعله ابدية موت النفس * فما الذى بقى
للملك اليوغابلوس في وقت موتهِ من جميع ملذاتهِ * لاشي البتة *
وبعد ان دفن في ابدية اللجة ما الذى بقى لهُ الان ويزاد ايضاً

سوى

سوى عذاب فوق عذاب * ووجع فوق وجع * وشقاء على
شقاء وويل ابدى * ان الناس جميعهم في ساعة الموت هم
متساوون نظرًا الى مايخص هذه الحيوة * لان الذى عاش كثيرًا
وتنعم تنعمًا وافرًا والذى عاش قليلًا وتنعم قليلًا او تعب كثيرًا
يكونان متساويين في ساعة الموت * لاذاك يشعر بعد بالتنعم
ولا هذا بالتعب * فالقديس رومولدوس الذى اصرف مية سنة
في عيشة قشفة جدًا لم يعد يحس بشيء بعد وفاته من جميع
تقشفاته * وهكذا القديس المعظم سمعان العمودى لم يشعر
بعد وفاته بشيء من جميع تلك التقشفات العجيبة التي مارسها
مدة ثمانين سنة * فمسحه ذاك الخشن الذى لبسه في هذه المدة
المستطيلة بغير انه يخلعه لافي الليل ولا في النهار * لم يعد الان
يسبب له المًا ما اصلًا * وصياماته تلك المتصلة وصلواته المتواترة
لم تعد تضايقه الان بتة * ان هذه جميعها انقضت وزالت ولم
يبق منها اثر * هكذا زالت جميع تلك العذابات القادحة التي
عذب بها الملوك والقضاة المغتصبون اكليمنضوس الانكرى
مدة ثماني وعشرين سنة * والان لم يعد يشعر منها بالم ما اصلًا *
لكنه من اجل اتعابه هذه يفوز الان بمجد ابدى *
فليتامل الان المسيحى مايجب عليه ان يختاره * وليذكر ان
اللذات التي يخطى بها الانسان والاتعاب التي يفى بها عن خطاياه

ستنتهى

ستنتهي علي حدٍ سوى * وبخلاف ذلك العذاب المسبب عن
الخطيّة والثوابُ الناتج عن الاعمال الصالحة لاينتهيان ايضًا *
وحينيذٍ فليختر ما يريد * وليتنظر كم يكون خيرًا لهُ ان يربح ثقل
مجد ابدي بواسطة تعب خفيف وجيز اعني به تعب التوبة * لانه
ولو انها كانت عتيدة ان تدوم مية سنة * فانها بالنسبة الى
الابدية هي دقيقة واحدة من الزمان * فلا يتضجرنّ من يمارس
افعال التوبة من اطالة الحيوة التي ليست هي بمستطيلة بازاء
الابدية * وقد قال القديس اغوستينوس قولاً حسنًا * ان
كل مالهُ نهاية فهو قصير * والحال ان الف سنة وربوات سنين
لها نهاية * فهي اذًا قصيرة * وهكذا كل زمان ولو مهما ظهر لنا
انه طويل جدًا * فهو قصير وبمنزلة دقيقة واحدة بالنسبة الى
الابدية * فان تكن الارض كلها ليس هي بالنسبة الى السما الاّ
بمنزلة نقط واحد مع ان السما محدودة * فهل يكون امرًا عجيبًا ان
لا يكون الزمن كله سوى دقيقة واحدة بالنسبة الى الابدية الغير
محدودة * فيالتفاقم جهل بني البشر الذين يستعظمون الزمان *
ويبذلون المجهود في تحصيل اللذات الزمنية والجاه العالمي في
هذه الحيوة القصيرة * اخبريني ياصاح لو يمنحك الله نصف ربع
ساعة فقط من الحيوة * وعرفت انهُ بعد موتك ينتهي العالم كله
ويتلاشي * فهل كنت تصرف ذلك الزمان في طلب الملذات

والكرامات

والكرامات الارضية * والحال ان القديس يوحنا البشير قال
ان العالم في عصره كان قد بلغ ساعة انتهايه * مع ان السنين
التي كانت من عصره الي انتها العالم كثيرة جدًا * وذلك لان هذه
السنين جميعها بالنسبة الي الابدية لم تكن غير ساعة واحدة * فكما
انك لم تكن تفتكر في ان تترك لك سمعة بعد موتك لو عرفت ان
العالم ينتهي بعد ذلك بساعة واحدة * فهكذا لا تفتكرن الان في
ذلك ولو بقي من الزمان اجيال كثيرة *
قل لي ياهذا لو علمت يقينًا ان حياتك تطول مية سنة وانك
لا تستطيع ان تحصل علي شيءٍ من المآكل الضروري لمعيشتك بها
الا في ساعة واحدة لا غير * وقد اذن لك ملك جواد ان تخرج
فيها من كنوزه كل ما تشاه لتحيي به * فهل كنت تصرف تلك
الساعة في الباطل كلا * بل كنت تبادر مسرعًا وتاخذ من
تلك الكنوز كل ما يمكنك * فلماذا اذًا هذا التواني * مع انك
عارف انه لا يكون لنفسك شي في الابدية غير الذي تربحه
الان وتستحقه في ساعة هذه الحيوة الحاضرة * فاعتبر الان
ما اقل الزمن المعطى لك لتهيي فيه زوادًا كافيًا لابدية حياتك
العتيدة * فكيف لا يهمك ذلك * كيف تلهو في متنزهات
هذا العالم منهمكًا في الضحك والهزء والتنعم * كيف لا تهتم
بعكس ذلك في طلب حزن الندامة * ولا تمزق لحمك بصرامة

تقشف التوبة * والحال انه كما قال حسنا القديس اغوستينوس
في تفسيره المزمور السادس والثلثين * قد كان يجب ان ترتضى
باحتمال تعب ابدى لاجل اكتساب راحة ابدية * وان تقتبل
وجعا ابديا لاجل سعادة ابدية * قال الحكيم في سفر الامثال *
في يمينه طول الايام وفي شماله المجد والغني * وبهذا اشار الى
كم يجب عليك ان تفرغ كل جهدك في اكتساب الابدى
وتفضيل الفضيلة علي كل شي زمني * لانه كما ان اليد اليمني هي
جزيلة القوة واليسرى ضعيفة * هكذا يلزمنا ان نستعمل كل
قوتنا في حفظ الابدية لا في حفظ الاشيا الزمنية * علي ان اعظم
خيرات هذا العالم واسمى امجاده ان لم تكن ابدية فلا تفيد شيا البتة

الفصل الحادي عشر

في ماهية الزمن علي راى اريسطوتاليس وغيره من الفلاسفة وفي سرعة تغيير هذه الحيوة وزوالها

انه وان كان مما تقدم مرادا قد اتضح ولاح اى شي هو الزمن
والحيوة الزمنية * وكذلك قد اتضح ما يعبر ويزول مع الزمن * الا
انه ينبغي الان بعد ايضاح الابدية المتقدم * ان نتامل ذلك بوجه
الخصوص والتفصيل لكي نحسن فهم خساسة الاشيا الزمنية
وعظمة الاشيا الابدية * فتعريف الزمن علي راى اريسطوتاليس

هو هذا * اى معيار الحركة او قياسها * فاذاً حيث لاتوجد حركة لايوجد زمن اصلاً * وقد اوضح ذلك ايضاً سبوسيبوس الفيلسوف بقولهِ * ان الزمان هو قياس سير الشمس * وقال بركلس انه هو عدد دوران الاجرام السماوية * وزعم الفلاسفة الفيثاغوريون ان الزمن هو الكرة الاخيرة التي تحرك الكرات الاخريات * اى هو السما الاخيرة التي سرعة حركتها تفوق طور العقول * وعلى حسب هذا الراى قال البرتوس الكبير * ان الزمن هو قياس حركة المحرك الاول * فالزمن اذاً هو عرض عديم الثبوت كالحركة * ولهذا قال ابن سينا ان الزمن هو شى اضعف من الحركة * فانظر اذاً ان كان يمكننا ان نعتمد علي الحيوة البشرية التي هى عديمة الثبوت وجزيلة الضعف * وسريعة في سيرها كالشمس ونجوم السما التي تفوق في سيرها سرعة سير الطيور وهبوب الرياح كلها * فالباشق هو جزيل السرعة في انقضاضهِ على الطير * واسرع منه هو السهم النافذ عن كبد القوس * واسرع من هذا هى الصاعقة المبرقة المنحدرة من عنان السما * الاّ ان هذه جميعها لاترينا سرعة خطوات الموت وعبور الزمن الذى يطير كنجوم السما علي حد سوى * والحال ان النجوم على حسب التحديد المرسوم من المعلم كلافيوس اليسوعي * تقطع بسيرها في مدة ساعة واحدة اربعماية وعشرين كرة ميل *

فبهذا

فبهذه السرعة يسير الموت في طلبك * فكيف لاتهلع ولاترتعد
فالقوس موثورة بازايك * وقد طار السهم منها وقرب منك *
فكيف لاتطاطي راسك قلما يكون * وكيف لاتتضع نادماً
انك ان عرفت بواحد وضع نارًا علي مدفع ليرميك بهِ * اما كان
ياخذك الخوف والرجفة والتحير * وان قيل لك ان السهم المميت
قد رشق وطار اليك اما كنت تموت من شدة الخوف والرعب
والحال انه من المحقق ان الموت الاتي اليك يسير في طلبك باعظم
سرعة من سرعة السهم * وانه في كل ربع ساعة يقطع عشر
كرات من المراحل ليصل اليك * ولست تعلم متي رشق *
ومن ثم يلزمك ان تنتظر في كل دقيقة *
وما عدا هذه السرعة المتعلقة بالزمن * فيجب عليك ان تعتبر
صفة اخرى لهُ وهي التي عينها اريسطوتاليس بقولهِ * ان الزمن
هو قياس الحركة * وبالتالي انه شي مركب من اجزاء سيالة
منسربة يتبع بعضها بعضاً * وهذه الصفة كما لحظ الامام ابن
راشد الاندلسي * هي شي متعلق بالزمن بضرورةٍ جوهرية *
حتي انه من المستحيل ان يقدر الزمن اشيا متحدة مقترنة بعضها
ببعض * بل انما يقدر شيئاً بعد شيءٍ * فلا يمكن ان يكون الشي
الثاني في الوجود الا بعد زوال الشي الاول * فالخيرات التي
يمكن ان يتمتع بها الانسان في زمن الطفولية * ينبغي ان

يفارقها

يفارقها حينما تاتيه خيرات زمن الشبوبيّة * وكذلك هذن يلزمه
ان يباينها حينما يحصل في زمن الشيخوخة * فامعن الان النظر
وتفرس بما عبر من حياتك وتامل اين الان طفوليتك وصباك
وشبوبيتك * فتجد فيك ميتات مختلفة * فافحص هكذا عن
الرجوليّة والشيخوخة فتجد انك قدمت مرات كثيرة * وقد اصاب
الفيلسوف بقوله انه لاتوجد دقيقة واحدة من الزمن لايقسمها
الموت بينه وبيننا * واذا ما احسنا النظر واجدنا الفهم فنرى
اننا لانعيش سوى دقيقة واحدة من الزمن * لانه ليس لنا من
الحيوة الّا الدقيقة الحاضرة * على ان السنين السالفة قد عبرت
وليس لنا الان منها شي البتة * فكاننا قد متنا نظرًا اليها * اما
السنون المستقبلة فلم ندخلها بعد وليس لنا منها شي * فكاننا
لم نولد بعد * فنهار امس قد مضى * ونهار غدًا لانعلم ان كنا
نحظى به * وكذلك قد عبرت ساعات كثيرة من اليوم الحاضر
لاندخلها بعد * والساعات الباقية العتيدة لانعلم ان كنا نبلغ
اليها * فعلى موجب هذا الحساب لسنا بحاصلين علي الحيوة الّا
في هذه الدقيقة التي نحن فيها موجودون وفيها نفسها ايضًا
نحن مايتون * وبالنتيجة لايسوغ لنا ان نسمي حياتنا الّا نصف
دقيقة * وشيًا ما غير قابل التجزى وهو متجزى ما بين الحيوة
والموت * وفي غاية اللياقة والصواب يمكننا ان نسمي هذن الحيوة

مع زخريا النبي ظل الموت * لان الموت ياتينا تحت ظلها * فكما
ان كل خطوة يمشيها الانسان يتبعه فيها ظله * هكذا كل خطوة
من حياتنا هذه تقترن بها خطوة الموت * فالحيوة اذاً بعكس
الابدية * لان الابدية تبتدى دايماً وليست هى شيأ اخر الا
ابتداء دايماً * اما حياتنا الزمنية فتنتهى في كل دقيقة * وقد
يمكننا ان ندعوها انتهاء او موتاً متصلاً * ولهذا لايمكن التمتع
بخيرات حيوة مثل هذه الحيوة * لانه اية لذة يمكن ان يحصل
عليها من ينظر جواداً قوياً مسوماً مزيناً بالنهِ ان كان لايزال
جارياً راكضاً بكل قوتهِ * فهكذا الاشيا الزمنية تجرى مسرعة
* في ميدان هذه الحيوة * ولذلك لايمكن التمتع بها *

الفصل الثاني عشر

في ان قصر هذه الحيوة يصير كل شي زمني اهلاً للاحتقار

حقاً ان الحيوة الزمنية هى الاسرع زوالاً من جميع الاشيا التي يتمتع
بها الانسان * لان الارزاق والارث والثروة وما يضاهى ذلك
يبقى موجوداً بعد موت الانسان * اما الحيوة فلا * لانها لفرط
ما هى رقيقة لطيفة ضعيفة تزول وتبيد بقليل من البرد او الحر
او من قبل رايحة يسيرة او نفس شخص مريض او نقطة سم *

فمثل

فمثل هذه الاشيا اليسيرة تكفى لهدمها وازالتها * ومن يتاملها
جيدًا لايجد زجاجًا يشبهها * لان الزجاج يستقيم اذا لم يلمسه
احد * فاما حياتنا فانها تبيد وتفني ولولم يلمسها احد * ثم ان
الزجاج اذا حفظ باحتراس يدوم دهورًا كثيرة * اما حياتنا فلا
يمكن ان نحفظها ولا بابلغ الاحتراس * وهذا قد فهمه جيدًا اسعد
ملوك اسرايل وافضلهم اقتدارًا اعني به داود الملك العظيم *
الذى اشتمل ملكه على مملكتين مملكة يهودا ومملكة اسرايل
وامتد متسعًا الي اقاليم اخر * وملأ بلاطه من الفضة والذهب
فهذا الملك العظيمة سطوته والجزيلة سعادته * لما تامل ان عزته
هذه العظيمة لها يوم تنتهى فيه * دعا ملكه وكنوزه حتي حياته
باطلًا * ولهذا قال هوذا جعلت ايامي محدودة وقوامى كلاشي
امامك * فكانه يقول ان كل الذى امتلكته من الغني والسطوة
فهو باطل * وحياتي نفسها هى باطلة اكثر من بقيّة الاشيا
فهذه حال الاشيا الزمنيّة ولو اننا كنا عتيدين ان نتمتع بها
الف سنة * فما الذى يجب علينا فعله اذ كانت عتيدة ان تنتهى
سريعًا وقبل الوقت الذى نخاله * فياليتنا نفهم جيدًا قصر هذه
الحيوة * فقد كنا نزدرى بلذاتها الباطلة * ونحتقر تنعمها الزايل
ان هذا لامر باهظ وضروري بهذا المقدار * حتي ان الله تعالى
امر احد انبيايه ان يخرج الي وسط الازقة والشوارع * ويطوف

المدينة صارخًا كبوق حي * ومفسرًا كم يكون قصر حياتنا
وسرعة زوالها * لانه اذ كان اشعيا العظيم منذرًا بروح النبوة
باعظم الاسرار واخفاها اعني به سر تجسد الكلمة الازلي * سمع
بغتةً صوت الرب قايلًا له اصرخ اصرخ * فاجاب النبي قايلًا ما
الذي تريد يارب ان انادي به صارخًا * فاجابه الرب قل هكذا
ان كل ذي لحم حشيش * لانه كما ان الحشيش الذي اخذ صباحًا
يجف مساءً ويفني * والزهر يذبل بدقيقة واحدة من الزمن *
هكذا حيوة كل ذي لحم تفني سريعًا * وجمالها يضمر ويضمحل
في يومٍ واحد *
وقد اراد الله ان ينادي النبي منذرًا بقصر حياتنا حيثما كان
يندر بالسر المحجوب عن افهام البشر وهو سر التجسد الالهي *
وذلك لان ضرورة معرفة هذه الحقيقة اعني قصر حيوة الانسان
وصعوبة استفهامها * هي بمنزلة سر مخفي * لانه مع اننا كل
يوم نختبر بالامثال والنموذجات هذه الحقيقة * فمع ذلك يظن
الاكثرون بان انتها حياتهم بعيد بعد * فلنسمعن اذًا من
قبل الله هذه الحقيقة * وهي ان كل ذي لحم حشيش * وكل
عمر قصير * وكل زمن وجيز * وكل حيوة مضمحلة * وان
المجموع العظيم من السنين هو عدم جسيم *
ولنتعلمن ايضًا هذه الحقيقة من المختبرين في معرفة هذه الحيوة

فربما يختلج في فكرك انك تعيش مية سنة * وقد يتبين لك
هذا حيوة مديدة * فاصغ لما قالهُ ايوب البار الذى عاش مايتين
وثمان واربعين سنة * ومن ثم امكنه ان يعرف حسنًا ماهيّة
حياتنا * وذلك نظرًا الى سعادة كل سنيها واتعابها * فيقول هذا
الصديق ان سني ليست شيئًا * فعلى رايهِ اذًا الحيوة التي تدوم
ثلثة اجيال ليست بشي * وقد تكلم مرات كثيرة في هذا الشان
اى عن قصر الحيوة * وفي ايراده ذلك استعمل تشابيه واستعارات
مختلفة * فتارة تراه يقول ان ايامه اسرع من ساعي البريد *
وتارة يخبرانها مرت اسرع من مرور سفينة في بحر تكدها ريح
شديدة * وانها اسرع من نسر منقض على طاير * وفي موضع
اخر يقول ان ايامه انقرضت اعجب من ثوب قصه حايك * ومن
اخرى يقول ان حيوة الانسان هى كزهر يلاس حينما يظهر وانها
تضمحل كظلٍ لاثبات لهُ * ولعمرى انه ليس بعجب ان يحكم هكذا
لا الذين عاشوا ثلثة اجيال فقط * بل الذين عاشوا اكثر من ذلك
ايضًا * كالذين كانوا قبل الطوفان والان اكثرهم في جهنم *
فاسمع ما يقولونه الان * ماذا نفعتنا الكبريا وما الذى اجراه
علينا الغني مع الافتخار * فقد عبرت هذه كلها وجازت كالظل *
فان كان الهالكون ينطقون هكذا * وهكذا يحكمون على عمر
ثمانماية سنة اى انه ظل وانهم كالذين توفوا بعد ولودهم بدقيقة

واحدة * فكيف تتصور في عقلك انك تعيش عيشاً مستطيلاً
اذ كان في عصرنا الوصول الي ستين سنة شيأ عظيماً * ولذلك
شبه اوميروس الشاعر اليوناني حيوة الانسان بورق الشجر الذى
لايدوم اكثر من فصل سنوى * وقد يستبين انه لا الفلاسفة
ولا القديسون وجدوا تشبيهاً كافياً لايضاح هذه الحقيقة *
وذلك لانه لاركض البريد ولاسرعة سير السفينة بالبحر ولاطيران
الباشق ولامرفوق السهم في الهوا * يقدر ان يوضح لناقصر
هذه الحيوة وسرعة زوالها * ولهذا قال فيلاميوس ان حيوة
الانسان ليست هي الا مولداً وموتاً * واننا عند مولدنا نخرج
من قبر مظلم وعند موتنا نلج قبراً اظلم وافزع * ثم اذا استخرجت
من هذه الحيوة القصيرة ما يذهب بالنوم فتكون قد اسقطت
ثلثها * وان لم يجب ان يحسب زمن الطفولية ايضاً ولا اعراض
اخر لاتدعنا ان نعلم ثمن الحيوة ونتمتع بها * فلا يبقى لنا منها سوى
نصفها * وهذا النصف الذى انزلته في حسابك كشي محقق
صحيح * اظن انابه انه غير محقق ولا صحيح * وانك لضال في
حسابك هذا * لان الحكيم يقول ان الانسان لايعرف يوم
انتهايه * ولذلك كما ان السمك والطير حينما يظنان انهما بعيدان
عن الشرك يتعرقلان فيه بسرعة * هكذا الموت يمشي وراء
الناس ويقتنصهم حينما يكونون متغافلين متغاضين عنه * فتامل

اذاً

اذ اكم تكون الاشيا الزمنيّة دنيّة حقيرة * وما اسرع زوال
كل مجد عالمي * لان جميع خيرات الارض لا يمكن ان تدوم
معنا الّا في زمن حياتنا * فان كانت الحيوة عينها شي دنى بهذا
المقدار * فماذا تكون الخيرات الزمنيّة التي ليست هي بخيرات
الّا لهذه الحيوة * ان ذلك التمثال الذى راه بختنصر الملك ولو انه
كان مولفًا من معادن ثمينة كالفضة والذهب * الّا انه كان
قايمًا على اقدام من خزف * ولهذا لما صدمه حصا صغير سحق
حالًا متلاشيًا * فيالهذا المجد العالمي المتاسس علي هذه الحيوة
التي تفنيها لاقطعة حجر فقط بل بزرة واحدة من عنقود * فحسنًا
قد قال المرتل ان الانسان بكل ماهو في زمن حياته هو باطل
مطلقًا * لان قصر الحيوة وحده يكفي ليصير كل خيرات الانسان
دنيّة * فالكرامات الدنيوية هي باطلة * وباطلة هي ثروة هذه
الحيوة ولذاتها * اذ كانت الحيوة نفسها باطلة زايلة * انه قد
ذكر عن الانبا غيريكوس من رهبنة القديس دوميتيكوس *
الذى قبل دخوله الرهبنة المذكورة كان فيلسوفًا وطبيبًا ماهرًا
وحصل بعد ذلك معلمًا لاهوتيًا بارعًا * فهذا سمع يومًا قراة
الاصحاح الخامس من سفر التكوين حيث يورد الكتاب المقدس
نسبة ادم ونسله هكذا * عاش ادم تسعماية وثلاثين سنة ثم
مات * وعاش ابنه شيت تسعماية واثنتي عشرة سنة ثم مات *

فاذ

فاذ سمع هذا المعلم المذكور شرع يتفلسف هكذا * ان كان
مثل هولاء الرجال المعظمين الذين عاشوا مثل هذا العمر المديد
التحق الموت بهم وانتهت حياتهم * فلا يسوغ لنا منذ الان
فصاعدًا ان نضيع الزمن في هذا العالم * بل يجب علينا ان نجعل
حياتنا في حالة ذات طمانينة وامان * لكي لانخسرها عند انتهايها
فبهذا التامل ترك العالم وترهب في رهبنة القديس دومينيكوس
حيث قضى حياته بعيشة مقدسة * فيا لكثافة جهل البشر *
الذين مع علمهم بقصر هذه الحيوة يهتمون جدًا في اطالتها *
مع انه كما قال سينيكا الفيلسوف * انه من المحقق ان الجميع
يستطيعون ان يعيشوا عيشًا صالحًا * ولا يستطيع احد ان
يعيش عيشًا مستطيلًا *
فكل ما لهُ انتها هو شي يسير دنّي لانه يأول الي التلاشي * فلماذا
تريد ان تخسر الكثير لاجل شي يسير * وتفقد الحقيقة لاجل
الخيال * فاعدم الان نفسك لذة ما ليلا تعدم جميع اللذات في
ابد الابدين * احتمل الان تعبًا ما ليلا تحتمل عذابًا غير محدود
في زمن غير متناهٍ * لانه كما قال القديس اغوستينوس * قليل
من المرارة في الحلق خير من عذاب ابدي في الاحشا * ان
السيد المسيح قد دعا ما يزول مع الزمن قليلًا * فدعا زمن الامة
قليلًا * ولو ان الاوجاع التي كابدها فيه قد كانت من شدة

جدًّا * هكذا الزمن الذى احتملت فيه رسله اضطهادات شديدة
وعذابات قاسية ومميتات هايلة دعاه ايضًا قليلًا * وكذلك
الزمن الذى نصرفه نحن في هذه الحيوة هو قليل ايضًا ويسير
جدًّا بالنسبة الي سني الابدية * الّا ان هذا الزمن القليل زمن
حياتنا هذه * فقد يتبين لنا كما قال القديس اغوستينوس زمنًا
مديدًا طويلًا لاننا موجودون فيه * الّا انه اذا ما انتهى فحينيذٍ
نعلم كم مقدار ما كان قصيرًا * فلو جعلنا انفسنا في انتهاء حياتنا
لعرفنا حينيذٍ جزيل قصرها * وان كل شي فيها ولو مهما تبين
لنا عظيمًا * هو كلاشي بالنسبة الى الابدية * ان السيد المسيح
ارسل الى الانبا كريستوفروس اليسوعي الجزيل الفضيلة
والاعتبار من يقول لهُ من قبله ان يتامل جيدًا هاتين القضيتين *
ما اعظم * وما اقل * فكانه تعالي يقول ما اعظم الابدية التي لانهاية
لها * ما اعظم الحظوة بالله الي الابد * ما اعظم الجلوس مع السيد
المسيح علي كرسي مجد ابدى * وما اقل واقصر واحقر زمن هذه
الحيوة وكلما يوجد فيها من التنعم الزمني * وهكذا القديس
برنردوس لم يزل يكرر لرهبانهِ قول القديس ايرونيموس * انه
لايجوز لنا ان نستصعب ونستطول التعب والعذاب الذى به
نربح المجد الابدى * فقد استخف يعقوب البار بتعب خدمتهِ للابان
مدة سبع سنين * وذلك لاجل كثرة حبه راحيل * فكيف يجوز

لنا

لنا نحن ان نستصعب ونستثقل الزمن الذى نصرفه في خدمة
الله * فانظر متاملاً من الذى تخدمه ولماذا تخدمه * ومن هو الذى
كان يخدمه يعقوب ولماذا كان يخدمه * فترى انك تخدم
الهاً حقاً لاجل مجد ابدى * وان يعقوب كان يخدم رجلاً وتنياً
خيتياً لاجل جمال راحيل * فقابل الان خدمتك مع خدمة
يعقوب * وانظر هل لك الان في خدمة الله عشرون سنة التي
خدمها يعقوب للابان * انظر هل يمكنك ان تقول عن نفسك
ما قالهُ يعقوب عن نفسهِ * احرقني الحر في النهار والبرد في
الليل * وكان النوم يذهب عن عيني * فيهن الخدمة الحسنة
خدم رجل صديق لرجل وتني * فكيف يجب عليك ان تخدم
الله وانت متعبد لهُ * اما يجب ان يتبين لك قليلاً كلما تفعله
في خدمة هذا الرب العظيم ومن اجل اجر عظيم ايضاً * فانظر
ما الذى تصرف فيهِ سنيك القصيرة التي اعطيتها لكى
تستحق بها سعادة ابدية * وانت تدعها
جارية عابرة عبثاً * خلواً من
* فايدةٍ ونفعٍ *

الفصل الثالث عشر

في ان الزمان هو فرصة الابدية

ان الزمان ولو مهما كان قصيرًا سريع الزوال * فله صفة جزيلة الثمن والاعتبار * وهي كونه فرصة الابدية * لاننا بزمن يسير نستطيع ان نربح ما نحن عتيدون ان نتنعم فيه الى الابد * ولهذا قول القديس يوحنا الانجيلي المحرر في النسخة اللاتينية انه قد اقترب الزمان * يقرا هكذا في النسخة اليونانية انه قد اقتربت الفرصة * وذلك لان زمن هذه الحيوة هو فرصة بها نستطيع ان نكتسب الحيوة الابدية * فالاقدمون لمعرفتهم بضرورة نفع الفرصة وجسامة فايدتها * جعلوها الهًا ليبينوا بذلك الفوايد الجليلة الواصلة منها للذين ينتهزونها * وكانوا يصورونها تصويرًا رمزيًا هكذا * امراة موضوعة علي بكرة تدور دايمًا * ولها على رجليها اجنحة * مشيرين بها الي سرعة جريها * ووجهها لا يبصر لكن مغطى بشعر راسها * والشعر الموضوع علي وجهها كثير وطويل * وذلك دليل علي صعوبة معرفة الفرصة * غير انه اذا ما حضرت فلك ان تمسكها به * اما من ورايها فلا شعر لها * بل راسها من ورايها صقيل جدًا * على ان الفرصة اذا ما ادبرت لن تجد من ورايها ما تمسكها به *

اما

اما اوسونيوس الشاعر الوتني * فزاد علي ذلك ما يدل به على
الندامة التي تستحوذ علي من يدع الفرصة ان تجتاز باطلاً بقوله *
ان الندامة مركبة علي مناكبها * لانها بعد مرورها لايبقى شي
اخر غير الندامة * واخرون صوروا الفرصة بايدى مملوة هدايا
واموالاً وافرة تجتذب بها اليها اناساً كثيرين من الانام * سايرة
صحبة الزمن الذى كانوا يرسمونه بزى متغرب ذى اربعة اجنحة
فالان اذاً نقول انه لو يامر ملك مقتدر معلماً ماهراً بان يهيي
له عملاً ما كاملاً من صناعته ليكون حاضراً في الوقت الذى يريد
هو اعني الملك ويطلبه منه * وكان هذا العمل يقتضى مدة سنة
ومع هذا يمكن ان يطلبه قبل تمام هذه المدة * وانه اذا خالف
امر موتاً يموت * فهل كان يمكن ان يتهاون هذا المعلم في
تكميل هذا العمل كلا * فقل لي الان ياهذا اما نحن الذين
توعدنا الله بخسارة الحيوة الابدية ان لم نكن صورنا في نفوسنا
صورته تعالي وثبتنا في نعمته * فكيف اذاً نتهاون في هذا
العمل الذى امرنا تعالي به بوصية صارمة * وندع فرصة ربح
خلاصنا ان تجتاز باطلاً *
قال تاوفرستوس وديموكريتوس الفيلسوفان * ان الزمن هو
نفقة ثمينة جداً * وقال زينون الفيلسوف ان الزمن هو الشي
الذى يحتاج اليه الانسان اكثر احتياجاً * اما بلينيوس فكان

يعتبر الزمان اعتبارًا هذا حده * حتي انه لم يكن يضع منه دقيقة
واحدة * واذا ابصر يومًا ابن اخيه متمشيًا بوجه التنزه * وبخه
على ذلك قايلًا لهُ * انه قد كان يمكنك ان تصرف هذا الزمان
في شي افضل وانفع * ومرة اخرى اذ كان ذلك الشاب يسمع
احد خدامه يقرا لهُ كتابًا * فاتفق ان غلط القاري فاوقفه
الشاب ليصحح اللفظة التي غلط بها * فاذ راى ذلك بلينيوس
احتسبه نقيصة في ابن اخيه وتضييع زمان * ولذلك وبخه عليه
ايضًا * اما سينيكا الفيلسوف فلافراط اعتباره الزمن كان يفضله
على كل شي * ومن ثم قال في هذا الصدد هكذا * من تراه يقدر
ان يثمن الزمان تثمينًا واجبًا * فان كان العلما الوتنيون قد
اعتبروا الزمان بهذا المقدار مع انهم لم يكونوا يعلموا انه به تربح
الحيوة الابدية * فما الذي ينبغي ان نفعله نحن المسيحيين *
فاعتبرنّ الان ان ندامتك ستكون ابدية ان لم تنتهز فرصة
الزمن لتكتسب ملكوت السّما * ليت شعري ماذا يكون حزنك اذ
تفتكر انك بقليل من الاجتهاد كان يمكنك ان تربح هذا الملك
السّماوي * وانك قد خسرته لاجل لذّة وقتيّة * فما اشد ما كان
غيظ العيس وما امر اسفه لما استفاق على ذانهِ ورای ان اخيه
الصغير قد اتخذ بركة بكوريته لانه قد كان اباعه اياها باكلة عدس
فكان ينتحب ويعج بخوار عظيم من شدة حزنه * ويتصور متحرقًا

من

من ازدياد رجزه * فانظر ذاتك انت في هذه المرآة * اذ قد بعت
ملكوت السما لاجل لذة يسيرة زايلة * فما الذى كنت تفعله لو
تسقط في جهنم سوى ان تحزن متوجعاً بدموع ابدية علي ما
خسرته بزمن وجيز * ان اختان لوط الذين كان حثهم على
الخروج من المدينة والهرب معه * فقد كان يمكنهم ان ينجوا من
النار فلم يرتضوا بمشورة لوط بل ازدروا بها * الا انهم اذ راوا
المطر الناري هاطلاً عليهم ومحرقاً اياهم والمدينة معاً * فماذا تراه
كان حزنهم علي رذلهم المشورة الحميدة واهمالهم الفرصة الخلاصية
هكذا احنون الملك الذى وجد فرصة مناسبة جداً للاصطلاح مع
داود الذى كان ارسل اليه مقدماً له شروط الصلح فلم ينتفع
منها * فهذا الملك الجاهل اذ شاهد مدنه تحترق بالنار وسكانها
يذبحون كالغنم في المجزرة * فترى ما الذى كان يمنعه ان يعطيه
لان ينتفع من تلك الفرصة ويصطحب مع مثل هذا الملك العظيم
ويحفظ ملكه بالسلام * غير انه لامناسبة بين هذا وبين رجز
الخاطى الهالك الذى ينظر ذاته محترقاً بنار لانهاية لاضطرامها *
ويتامل نفسه انه قد حصل عدواً لملك السما الى الابد * وانه
من المستحيل ان يملك مع القديسين * فيالهُ من حزن مذيب
ورجز كلبي يعتريه الي الابد * ان اللص الشرير الذى صلب مع
السيد المسيح ووجد مع رفيقه اللص الاخر فرصة سعيدة لربح

الخلاص فلم ينتفع بها * فكم تكون الان شدة ندامته على
جهله وحرقة بكايه علي غباوته * وكم تكون ندامة ذلك الغني
الشرير الذى وجد ايضاً فرصة جيدة قد كان يستطيع بها ان
يفتدى خطاياه لو وجد رحوماً نحو لعازار المسكين * ولم ينتهز
هذه الفرصة بل تغاضى عنها معرضاً * وظهر نحو ذلك المسكين
اشد قساوة من الوحوش * اذ كانت الكلاب تحنو عليه
وتلحس جراحاته مداوية لها * وهو لم يسعفه ولا بفضلات
مايدته * فما الذى يقوله الان وما الذى يندب به نفسه اذ قد
حصل فاقداً كل شي ولا يمكن ان يسعف بشي حتي ولا بنقطة
ما * وذلك لانه ابى ان يجود ولو بفتات مايدته على الفقرا *
فاعتبر الان ان زمن حياتنا كله هو علي الحقيقة فرصة لربح المجد
الابدى * ومع ذلك فقد تعرض في مدة حياتنا فرص اخر يتعلق
بها خلاصنا تعلقاً خصوصياً * واذا انتهزناها واستفدنا منها
نلزم الله بان يعيننا عوناً خصوصياً * كما عرض ليوسف الصديق
حينما فر من ايدى سيدته وغادر رداءه في يدها ليلا يغيظ الله
خالقه * فانه بهذا الفعل العظيم جدا الزم الله بان يهتم فيه اهتماماً
خصوصياً * وينعم عليه بحسنات جليلة * وهكذا سوسنة
العفيفة فقد انتفعت من الفرصة التي عرضت لها * وربحت بها
الخلاص * لانها اذ اختارت ان تموت افضل من انها ترتضى بالدنة

الدنسة التي كان يغريها بها ذانك الشيخان * حصلت على استحقاقات غزيرة ونعم جليلة * فلنحذرن اذاً من اننا نهمل فرصة ما لممارسة عمل ما صالح قد يمكن ان نلزم الله به بالاهتمام في خلاصنا اهتماماً خصوصياً * وفي هذا قال الحكيم لا تفوتن يوماً صالحاً ولا يتعدينك جزء من عطية صالحة *

وقد قال شيشيرون في تعريفه الفرصة انها جزء من الزمن مناسب لفعل شيء ما * وقال ميتريداتس ان الفرصة هي امر جميع الاشيا الواجب فعلها * وقال بوليبيوس ان الفرصة تروس في كل امر بشري * ومن ثم نرى بعضاً من المعلمين الروحيين اذ تكلموا عن انتهاز الفرصة لممارسة عمل ما صالح * قالوا ان ذلك علامة ودليل على الانتخاب للمجد الابدي * فانظر كيف اجتهدت راحيل مسرعة لان تخفي اوثان ابيها التي كانت استرقتها * اعتبر كيف بادرت ابيغال الي ملاقات داود الملك ليلا تفوت الفرصة المناسبة لتسكين غضبه * فلو انها تاخرت قليلاً فلا ريب ولا جرم في انها قد كانت حصلت مع زوجها واهل بيتها في خطر فقد حياتهم * لاحظ كيف اسرع ابو الاباء ابرهيم في طلب الثلثة الملوك الذين كانوا اسروا لوط ابن اخيه * فلو انه يهمل الفرصة لم ينج لوط من الاسر ولم يفز ابرهيم بالظفر * وشاول الملك بايما جهد وسرعة جمع جيشاً لياتي الي معونة مدينة تابيس جلعاد

في الوقت المناسب * فلا نكن اذًا في هذا الامر اعني في انتهاز
الفرصة نظرًا الي الخلاص * اقل اجتهادًا وسرعة مما كان
اوليك نظرًا الى الاشيا العالميّة * فلنصغين الي مشورة الحكيم
القايل يابني ان كفلت صديقك فخلص نفسك لانك قد حصلت
بين يدى قريبك * فليتامل اوليك الذين تعاهدوا مع الشيطان
بسبب خطاياهم * ولينظروا باية سرعة ينبغى ان يفروا من
ايديهِ خلوًا من اضاعة الفرصة والزمن * وليتامل ايضًا اوليك
المغرومون لله لاجل كثرة احساناته اليهم وعظمتها * ولاجل
ما عاهدوه بهِ تعالي معتبرين باى اجتهاد وسرعة يجب عليهم
ان يفوا ما هم ملتزمون بهِ * وهذا قد نبهنا عليه
الرسول بقولهِ واقول هذا يااخوتي ان
الزمان يسير

هو

المقالة الثانية

في الفرق ما بين الزمني والابدى نظرًا الى نهاية الحيوة الزمنية والزمان مطلقًا وهي تسعة فصول

الفصل الاوّل

في نهاية الحيوة الزمنيّة

فلنعتبرنّ الان اعراض حياتنا هذه الشقيّة الكثيرة المضادة اعراض الابدية * ولنبتدين من العرض الاول * وهو ان حياتنا هذه لها انتها * ولنا في هذا الامر شيان يجب ان نتاملهما * اولهما انتها حياتنا * ثانيهما كيفيّة انتهايها * ولعمري انه لو امكن ان يكون انتها حياتنا تحت اختيارنا * وسنوا سكنانا هنا تحت سلطاننا * وهكذا تكون كيفيّة خروجنا من هذا العالم ولو انه يكون خلوًا من مرض وموت * لكان مجرد كون الاشيا الزمنيّة عتيدة ان تنتهي هو سببًا كافيًا لان نحتقرها * ان اناء البلور البهي لو يدوم نظير الذهب لحصل اكثر ثمنًا من الذهب نفسهِ * الّا انه لكونه سريع العطب فلا اعتبار لهُ * مع انه

ليس من المستحيل ان يحفظ زمانا مستطيلا * وهذه الشابة
توجد في حياتنا هذه * بل ان سرعة عطبها وزوالها هي اعظم
من سرعة عطب البلور * لان حياتنا هي خاضعة لالوف الوف
من الخاطر * فلو انها سلمت من هذه الاخطار جميعها لوجب علينا
ان نحتقرها مع كل خيراتها الزمنية * لكونها عتيدة ان تنتهي
وتزول * الا ان الذي يلاحظ بعد ذلك كيفية انتهايها بواسطة
الموت والامراض والكوارث التي تسبق الموت وتمهد لهُ
الطريق * فله ان يتعجب منذهلا من ان الانسان المولود للموت
يعتبر السعادة الزمنية مع انه عارف بالشقا المتعلق بها * فلننظر
الي الشقا الذي ادرك انتيوخوس الذي ملك اقاليم جزيلة العدد
فهذا الملك العظيم اذ كان زاهيا بنجاحهِ استحوذت عليه مالیخوليا
مهلكة سلبت منه النوم والعقل ايضا * فلم يعد يقدر يغمض
جفنيه ليلا ونهارا * ثم اخذ يتقاى امعاه من حلقهِ * وتخلع جسمه
فصار عاجزا عن كل شي عدا التالم * فالذي كان قبلا يتبين لهُ ان لهُ
سلطانا علي امواج البحر وانه ضابط في يده اعلي الجبال * حصل
عاجزا عن كل حركة لايستطيع ان يخطو خطوة واحدة * والذي
كان بالامس موشحا بالخز والارجوان وغير ذلك من الثياب
الثمينة المزخرفة تفوح منه الروايح الذكية * غدا بغتة جيفة
مستكرهة تنبعث عنه نتانة غير محتملة * حتي اضطرت خدامه

بان

بان يبتعدوا عنه هاربين * واذ كان حيا بعد امتلا جسمه
دودا كان يمزقه ويرعاه * الي ان استفرغ اخيرا نفسه الشقية
مجدفا * فتامل اذا انتيوخوس هذا حينما كان يتلالا افضل
من الذهب علي خيل مسومة * مزعزعا الارض بصولته وسلطته
وكثرة عساكره * ثم لاحظه بعد ذلك ملقي علي الفراش عديم
القوة بالكليّة * مكمد اللون منتن الرايحة * متروكا من الجميع
مزبلة للدود * فمن ذا الذى بعد مشاهدته هذا الانتها يحسد
انتيوخوس ويشتهي ابتلاه * من ذا الذى بعد تامله هذا الموت
يطلب سعادة الحيوة الزمنيّة * من ذا الذى يختار وظيفة علاقتها
هذا الشقا العظيم * فاعتبرنّ اذا ايها المومن حد خيرات هذه
الحيوة التي هى كمياه الاردن الصافية التي تنتهى الي حماة البحيرة
السادومية المايتة * تامل كيف انتهت حيوة الهيرودسيين اعني
الاسكالونى واغريبا * فذاك انتهى ماكلاً للدود * وهذا انتهى
ماكلاً للقمل * لاحظ ايضا كيف انتهى اخاب الذى انتصر على
بلاد سوريا وعلى اثنين وثلاثين ملكا * فقد انتهى ملكه
وفنيت حياته بسهم خرق لبته واحشاه * فامتلات مركبته
الملوكيّة من دمه ولحسته الكلاب كدم فريسة * ومثله
انتهت حيوة ابنه يوارم * لان اعداه طعنوه بسيف نفذ ظهره
وقلبه فطرح مايتا وتناثرت لحمه العقبان * ولم يعط من ارض

مملكة ستة اشبار لدفنه * ومن ذا الذى عند مشاهدته قيصر
المظفر المكلل باكاليل انتصاراته العديدة * يقرب ان يخطر
في فكره انه سيراه بعد ذلك مخرجاً نفسه بثلثة وعشرين تبعاً
دمويا * ومن كان يعتقد ان قورش الذى اخضع لقضيب سلطنته
ممالك الماذيين والاثوريين والكلدانيين * وبانتصاراته المتصلة
في مدة ثلاثين سنة ملاء العالم ذهولاً ورهبة * هو عتيد ان
يموت بحيلة امراة * ومن ذا الذى لا يتحير عند نظر اسكندر
الملك الكبير الذى بقوة سيفه انتصر علي بلاد العجم والهند والعالم *
تحور اخيراً قوته كلها بحمى يسيرة فيحصل بها مدنفاً * وبهذه
الحرارة اليسيرة يتلاشي اقتدار العالم وعزه *
فبالصواب اذاً اقال احد الفلاسفة ان راس الاشيا هو الانتها *
لانه كما ان الناس تعرف من الوجه * هكذا يجب علينا ان نعرف
الاشيا من انتهايها * والحال ان انتها الحيوة انما يكون شقياً *
فالحيوة اذاً كلها لا تكون الا شقية * فلا ينخدع عن احد من
قبل عافيته وقوته * اوثروته وسلطته وعزته وعظمة بلاطه
وكثرة اصدقايه وجمال بردته وسمو رتبته اودرجته * لانه بمقدار
سمو سعادته يكون عظم شقايه * علي ان انتها كل سعادة هو
شقا بذاته * ولهذا لما سمع اجيزيلاوس اناساً يمدحون سعادة
بريامووس ملك العجم * قال لهم كفوا عن هذا الامتداح لان حيوة

بريامو‌س تنتهى بالاوجاع * وقد اثبت هذه الحقيقة ماغون قايد
جيش كارطاجنه واخو انيبال المظفر فهذا اذسقط جريحا يجرح
مميت * اخذ يخاطب اخاه المذكور قايلا هكذا * ما هذا الانتهاء
انتهاء الحيوة والسعادة العالمية * فما اعظم جهل الذين يرغبون
القيام في مكان شامخ سام * ان حال المقتدرين من شانها ان
تجلب العواصف * وعند الانتهاء يرون انفسهم علي حافة
الاستغراق * فيالعظم خطر قمة الكرامات السامية ما اخدع رجا
اصحابها وما ابطل مجدهم المبني علي الغش والكذب * ويالشقا
حيوة قد حكم عليها بتعب متصل * فماذا تنفعني تلك الحروب
التي احرقت فيها افخر القصور واحصن المدن التي هدمتها
وفتكت بشعوبها * وماذا تفيدني الان تلك المنازل التي شيدتها
وزينتها بالذهب والفضة * اذقد حصلت الان جريحا مطروحا
علي الارض اموت ايسا في هذا القفر * فما اكثر المقاصد التي
ترددها الان ياالخي في عقلك * ولست تعلم ماذا يكون انتهاوها المر
فاذكنت تبصرني الان منطلقا عنك فاعلم انك سترحل بعدى
وتتبعني سريعا * هذا ماقالهُ ماغون لانيبال اخيه *
فلنكتفين في هذا ولا نوردن كل انواع الموت * بل فلنلاحظن
ذلك الذى تعد الناس موتا سعيدا * اعني الموت الذى بهِ يفقد
الانسان الحيوة لا بنوع اغتصابى او فجاى * بل بمرض ما طبيعى *

الا

الا اني اقول هل يكون شقا اعظم من الذى يحسب سعيدًا لاجل
كونه شقاءً * وما اكثر اوجاع من يموت علي هذا النحو *
فكم يتضيق من اعراض هذا الموت * اعني من حرارة الحمى
التي تحرق احشاءه * والعطش المذيب الذى ينشف شفتيه
ويبسهما ويصدعن التكلم * ووجع الراس الذى يمنعه عن
الفهم * وضيق القلب الذى يمزقه ويوصله لغشي مميت * وغير
ذلك من الاوجاع التي هى اكثر عددًا من الاعضا ولا علاج لها
الا بالادوية المرة المستكرهة التي ليست هى باقل ايلام من الوجع
وزد علي ذلك سجس افكاره لالتزامه بمفارقة من يحب وما يحب *
وفوق هذا جميعه عدم علمه بالمكان الذى يذهب اليه هل يكون
جهنم او السما * فان كان مجرد ذكر الموت مرًا فماذا يكون
اختباره والاجتياز به * ان شاول الملك قد كان بطلًا باسلًا ذا قلب
شجيع * ومع ذلك اذ سمع وتحقق انه سيموت في الغد سقط علي
الارض غاشيًا من شدة خوفه * فلا خبر اذًا الرهب للخاطى وافزع
من ان يقال له هكذا انك الان تموت وتباين كل لذاتك * وتلتزم
بان تودى لله الحساب عن جميع حياتك * فلو ترمي قرعة لرجل
مذنب مستوجب الموت ليعرف بايما نوع يموت * هل قتلًا
بالسيف امر خنقًا * وهل يكون ذلك بتمزيق اللحم بترضيض
الاعضا * فترى كيف يكون حال قلبه وهو منتظر وقت نصيبه *

هكذا اقل ماذا تكون حال رجل يفتكر في حال نزاعه انه بعد
ساعة او اكثر قليلاً يخرج الحكم عليه بالابدية اما في جهنم
اما في السما * فلعل هذا ليس هو بشقاء عظيم * فما هي اذاً الحيوة
التي ندعوها سعيدة * فان كان مثل هذا الانتها يتبين لنا سعيداً
ولم نرد ان نعتمد علي راينا * فلندن ممن هو في حال المنازعة
ولنسالهُ عن رايهِ بهذه الحيوة * ولنستخبرنه عن ذلك مستفهمين
حينما يضيق صدره وتغور عيناه * ويصفر انفه وتيبس رجلاه
وتبرد ركبتاه * ويكمد لون وجهه وترتخي مفاصله وتقرب الي
السكون وتضيق انفاسه * ويكون ماسكاً في احدى يديهِ ايقونة
السيد المسيح * وفي الاخرى شمعة مكرسة * والكاهن يسعفه
في ان يموت موتاً صالحاً ويحثه علي فعل الندامة * فحينئذٍ
سله لتعلم ماذا يقول عن حياتهِ * فبلا شك انها بمقدار ما كانت
او فر سعادة * بقدر ذلك يراها حينئذٍ اكثر خداعاً * وانها
قد كانت كاذبة لانتهايها على النحو المذكور * فما الذي كان
حينئذٍ يبدل جميع خيرات الارض بهِ * اني لاظن انه كان يعطيها
كلها مجاناً * بل انه كان يعطي ما هو اثمن منها لكي لا يكون
امتلكها قبلاً ان كان قد صارت لهُ سبب الخطية * ولقد كان
يدفع كل شي لكي يحصل علي اعتراف جيد * قال فيلبوس الثالث
ملك يسبانيا التي لا تغرب الشمس عن حدود ملكها * اني لاشتهي

ان اكون بدلت هذا الحكم العظيم بمفاتيح وظيفة بوابٍ
في رهبنة متضعة * فحقًا ان الموت يقدم لنا ثورًا عظيمًا نطلع
به علي خداع العالم * فتامل لي هذا الامر وهو انك في وقت الموت
تشتهي ان تكون عملت قبلًا ما تكون حينيذٍ عاجزًا عنه *
فافعله اذًا الان وانت قادر عليهِ * فلو تمتع احد بجميع لذات
العالم حتي ساعة موتهِ * فما الذى يبقى لهُ منها في تلك الساعة
لاشي البتة * بل انما يبقى لهُ ضيق قلب اليم ويأس مميت * هكذا
قل من جهة افعال التوبة والسيرة القشفة * فلو احتمل احد حبًا
بالسيد المسيح ما احتملته الشهدا جميعهم * فلا يشعر حينيذٍ
بشي من ذلك * بل انما يكون حاصلًا علي سرور عظيم وعزاءٍ
جسيم *
ناشدتك الله ان تصغى وتتامل قليلًا ما هى الغاية التي خلقك الله
لاجلها وتركك في هذه الحيوة حينما كان قادرًا ان ينقلك
الى السما * فلعل قصد تعالي كان هذا وهو ان تفرغ جهدك
في ان تضيع الزمن كوحش منغمس في وحل الشهوات الحسيّة
اللحمية * او في طلب كرامات خياليّة * لالعمرى * بل انه
تركك علي الارض لكى تمارس افعال الفضيلة وتستحق بها
ملكوت السّما * فافهم اذًا ما انت ملتزم بهِ لباريك * وهو
ان تظهر لهُ امانتك باحتمال التعب في خدمته * فلهذا ادخلك

تحت

تحت رايته لتحارب عنه وتغار علي كرامته ولهذا قبلك في جندية
هذه الحيوة كما يدعوها ايوب الصديق * فما رايك بجندى يخلع
عنه الاسلحة في حين الحرب * وعوضاً عن ان يحارب مكافحاً
يلهو ويمرح لاعباً * وما قولك عن رجل حكم عليه بالموت
وهو يمزح ضاحكاً فيما هو الي القتل ذاهباً * فالانسان منذ
خروجه من مستودع امه لايزال ساعياً الي الموت الذى حكم
به عليه * ولا يدرى ان كان بعد موته لايساق الي موتٍ ابدى
في جهنم * الّا انه قلما يكون يعرف ان هذا شي ممكن فكيف
اذاً ينبسط في لذات هذا العالم لاهياً * انه لو عرف التاجر انه
عند وصول مركبه الي الميناء يدركه الغرق * فهل كان يوسقه
شيأً ثميناً * فياما اكثر الذين بعد تحصيلهم حملاً ثقيلاً من
الخيرات الزايلة هلكوا عند الموت * لانهم لم يريدوا ان
يفارقوها ولا حيثما كانت هي تفارقهم * قد خبرا ومبرتوس عن
رجل ما كثير الغني * انه اذ حصل في حال الموت امر خدامه
بان ياتوه بكل انية بيته الذهبيّة والفضيّة * فلما وضعوا ذلك
تجاه عينيه * طفق يخاطب ذاته بذاته هكذا قايلاً * انظرى
يانفسي هذه كلها * فها انا اعاهدك بان امتعك بجميعها
وباكثر منها جداً ان كنت لاتفارقين جسدى * وفيما هو يتكلم
هكذا اشتدت عليه اوجاع مرضه * فصرخ حينيذٍ برجز عظيم

قايلاً ايتها النفس العادمة الوفا * لانكِ لاتريدين ان تفعلى ما
ارغبه منكِ وهوان تستمرى في جسدى * فاذهبي اذًا الي
الشيطان * قال هذا واسلم نفسه الشقيّة * فمن هذا الخبر يمكننا
ان نفهم بطلان الاشيا الزمنيّة * والضرر الواصل منها لمن
يضع قلبه فيها بمحبة متجاوزة الحد * لانه هل يوجد اعظم
بطلانًا من كون شي غير نافع عند الاحتياج الكلىّ * وهل
يوجد شز اعظم من كون شي مضرًا للنفس * قد ذكر المعلم
روبرتوس ليسيوس * انه اذ كان يحث مريضًا ماعلي الاعتراف
بذنوبهِ والاهتمام في خلاص نفسهِ * كان اهل بيته يتزاكضون
في داره من جهة الي جهة مجتهدين ومجدين في اختلاس ما
يقع تحت يدهم * فلما شاهد ذلك المريض * اهمل كل فكر
يخص خلاص نفسهِ * ولم يفتكر الاّ فيما يسرق من امواله ومتاعهِ
ثم اخذ يتنهد ويصرخ قايلاً * الويل ليّ ثم الويل ليّ * لاني تعبت
جدًا في ربح هذا الغني الغزير والان تضطرني الضرورة لا بتركهِ
فقط * بل بمشاهدة اختلاسهِ مني ايضًا * فيا موالي وياذخايري
اهكذا تنتقلين عني الي ايدى غريبة * واذكان يشكو هكذا
انتهت حيانه وهو متغاضٍ عن خلاص نفسه ومات كانه وثني *
وقد خبر المعلم فيسنسيوس عن رجل كان اقرض واحدًا اربعة
دنانير بشرط ان يردها اليه اثني عشر دينارًا بعد اربع سنين *

فقبل

فقبل تمام هذه المدة حضرت ساعة نهاية حياته الاخيرة * فافتقد
كاهن وشرع يحتذبه الي الاعتراف * الّا ان المريض لم يكن يجيبه
الّا بهذه الكلمة لاغير * لى عند فلان اثنا عشر دينارًا * وفي
حال قوله هذا فارقت نفسه جسمه ومات * وخبرنا القديس
برنرديوس انه اذ كان احد الكهنة يحرض مريضًا علي التوبة
كان المريض يسال الكاهن عن سعر الحرير وثمن الجوخ *
فمع ان الكاهن كان ينبهه بغيرة عظيمة قايلًا له دع عنك هذه
الامور جانبًا وافتكر في خلاص نفسك * فلم ينتصح المريض
بل كان يكرر سوالاته المتقدم ذكرها مستخبرًا عن التجارة
والارباح الدنيوية * ولانّ الكاهن شدد نحوه التنبيه محثًا اياه
على الاعتراف بحرارةٍ فاجابه حينيذٍ قايلًا غير ممكن يا ابانا ان
اعترف * فهذا كان كل اعترافه * ثمّ بعد قوله هذا اسلم روحه
وهلك *

فهذا هو الاجر والثواب الحاصل من الخيرات الارضية للذين
احبوها * فاهًا علي جهل بني ادم * انهم قد اعطوا هذه الحيوة
القصيرة ليربحوا بها الخيرات السموية الراهنة * وهاهم يصرفونها
في ربح الخيرات الارضية الزايلة * التي لافراط حبهم اياها هي
عتيدة ان تهلكهم الى الابد *

فهات الان لنتقدم الي ما قدام * ولنتامل انسانًا يموت علي

اسعد ما يكون من الحالات * ويكفينا ان ننظر كيفيّة هيئة عند
انفصال النفس من الجسد * فما اشنع ما تكون جثته حينيذٍ
وما ارهبها * فترى محبيه واصحابه جميعهم يبتعدون عنه
هاربين * ولا يطيق احدهم ان يمكث وحده لديه ليلة واحدة *
واما اقرباوه فيجتهدون في ان يخرجوه سريعًا في كفن خلق *
وبعد دفنهم اياه بيومين اذا ما تذكروه احيانًا فيكون ذلك
امرًا عظيمًا * فها هو ذا الذى كانت اوسع المنازل ضيقة لديه *
قد جلس وامتد بكليته في مكان طولهُ عشرة اشبار * والذى
كان يضجع على الفرش الليّنة الناعمة قد غدا فراشه السوس
وغطاوه الدود كما قال اشعيا النبى واذ يكون مرعيً وماكلاً
للدود والحيات تكون اقرباوه مبتهجين من مونهِ متنعمين بوراثتهِ
فتفرس ان امكن في جثةٍ بعد مونهِ بثمانية ايام * فيالهُ من
منظر مستكره مرهب * فهل يوجد فرق ما بينهُ وبين كلب ميت
مدود ملقى على المزابل * فهذا هو حال جسدك الذى تعزه
الان وتنعمه * الذى ربما يكون بعد اربعة ايام مرعيً وماكلاً
للدود والحشرات * خبرنا المعلم اسكندر قايلاً انه فتح يومًا قبر احد
الامرا * فابصر الحاضرون ضفدعة ضخمة جدًا تاكل وجه الامير *
ومعها حشرات كثيرة مختلفة الانواع يقرضن لحمه بانيابهن *
فلما اخبر بذلك ابن الامير * وكان اذ ذاك شابًا في عنفوان صبايهِ *

فبادر

فبادر مسرعاً ليرى ما سمع به * فاذ ابصر ذلك متاملاً * قال متنهداً
ومتاسفاً * فهذا اذاً هو حبيبنا الذى نربيه في التنعم * ونضجعه
علي الفرش اللينة في المنازل المبهجة * ونغذيه بالذ المآكل واثمنها
ونرطبه بالطف المشارب وارقها * ونكسوه بافخر الملابس وانعمها
فالاولي اذاً بى ان اعامله الان بصرامة * واميته بافعال التوبة
حتي اذا ما مات وانا حى لايضطهدني وانا ميت * فبعد هذا التامل
عزم على ترك امريته واباطيل العالم * واختار حال الفقر حباً
بالسيد المسيح * فذهب مختفياً الي رومية * وهناك اخذ يعذب
جسده بصرامة التقشفات * ممارساً افعال القداسة * وكان
يقيت جسمه مما يربحه من صناعة عمل الفحم * فاخيراً اتفق
يوماً وهو ماضٍ الى رومية ليبيع فحمه * ان اعتراه بغتة مرض
عضال فاحتمله بصبر عجيب * ثم اسلم نفسه المباركة بيدى سيده
وفي حين موته قرعت كل نواقيس رومية من ذاتها * فاندهش
الحبر الاعظم من هذه الاعجوبة مع كل اكابر بلاطه * فاخبره
راهب ما قديس بعلة العجب * وكان ذلك الراهب معلم اعتراف
الامير المتوفي * واتفق مع ذلك ان وجد وقتئذٍ في رومية جنود
وقواد مرسلين من بلاده ليفتشوا على اميرهم المذكور *
فنقلوا جسده الي مدينته بكل اكرام وتوقير *
وذكر ايضاً عن القديس فرنسيس بورجيا اليسوعي الذى

كان

كان قبل رهبانيته نايب ملك يسبانيا في بلد كاتالونيا * انه بعد
موت الملكة اليصابات امراة كارلوس الخامس * سلمرلهُ جسدها
ليدفنها في مدينة غراناتا * وكان جسدها محفوظًا داخل
ثابوت من رصاص * فلما وصل الي المدينة وفتح الثابوت ليسلم
جسد الميتة امام شهود * فراى الجسد قد تغير بكلية وصار منظرًا
مستكرهًا مريعًا * حتي انه لم يعد يجسر ان يثبت بالقسم كحسب
العادة * ان هذا هو جسد تلك الملكة التي كانت اعجوبة دهرها
في البها والجمال * واذ ابصر ذلك الملتيمون ارتدوا عنه
راجعين * لعجزهم عن مشاهدة هذا المنظر الشنيع واحتمال تلك
النتانة الصادرة منه * فمن ذا لايرى من هذا بطلان العالم * لانه
هل يوجد شي افضل شرفًا واكرامًا من شخص الملك او الملكة
في حين حياتهما * فها هو ذا بعد موتهما يهرب منهما كل حواشيهما
مشمازين منهما ومستكرهين منظرهما * ففي زمن حياتهما كان
الذي يقترب منهما ويكلمهما جاثيًا امامهما يعد حظه سعيدًا *
الّا انه بعد وفاتهما يفر منهما كل احد ويتركهما الجميع طعامًا للدود
والكلاب * وهذا قد اختبرته ازبل الملكة * فلنعد الى
تتمة الخبر * وذلك ان نايب الملك المتقدم ذكره اعني فرنسيس
بورجيا * اذ تفرس بهذا المنظر المخيف * اخذ يتامل فيما كانت
الملكة وهي حية وما صارت وهي ميتة * وكان يقول في

نفسهِ هكذا * اين ذلك الوجه البهى * فقد استحال الي مادة
منتنة ومرعي للدود * اين تلك العزة والهيبة المتلالية قبلاً في
كل جسدها * فبمثل هذه الاعتبارات تغير قلبه * وعزم علي ترك
كل الاشيا الزمنيّة وطلب الاشيا الابدية * وقصد انه منذ ذلك
الحين فصاعداً لايخدم ربا سوى الذى لايعتريه الموت *
ولعمرى انه بالصواب كان فلاسفة الهند المدعوون براكمان
يضعون امام باب بيوتهم قبوراً مفتحة لكى يتذكروا الموت
في دخولهم وخروجهم علي الدوام * لعلمهم بان ذكر الموت
يفيد جداً لاصلاح السيرة * وايضاً انه لحق ما قالهُ افلاطون في
هذا الصدد * وهو ان الحكمة هى التامل في الموت * وقد
خبرنا المورخون عن رجل ماذى سيرة ردية اعترف عند الحبر
الاعظم بخطايا ثقيلة جداً * وفي انتهاء اعترافهِ قال انه لايقدر
ان يمارس صوماً ولا بقيّة افعال التوبة القشفة * ومن ثم طلب
من البابا الّا يضع عليهِ قانوناً ثقيلاً * فوهبهُ الحبر الاعظم خاتماً
مكتوباً هكذا * اذكر الموت * وامن بان كل من يقع نظره
علي الخاتم يقرا تلك الكتابة ويتذكر الموت * فلما فعل هكذا
مدّ بعض ساعات * اثر ذكر الموت في قلبه تاثيراً هذا حد *
حتي انه ارتجع الي الحبر مقدماً نفسه لاحتمال اشق القوانين
واصعبها * فلذلك يبذل الشيطان كل جهدهِ في ان يلهينا عن

ذكر الموت وتامله * انني لاتعجب حقًا من ان فكر ضرر
زايل او خسارة زمنيّة من عادته ان يسلب من الناس الرقاد
ويمنعهم عن لذّة الوسن * وان حقيقة الموت الذى هو ارهب
* من كل الاشيا المرهبة لاتوثر في قلوبهم ولاتحركها *

الفصل الثاني

في صفات نهاية الحيوة الزمنيّة

انه ماعدا الشقا الذى تنتهى به السعادة العالميّة * فقد توجد
اعراض اخر باهظة مقترنة بنهاية حياتنا يجب علينا جدًا ان
نعتبرها لكى نحتقر جميع خيرات هذه الحيوة * ولذلك نتكلم الان
عن ثلث صفات من الاعراض المذكورة * فالصفة الاولى هى
ضرورة توكيد الموت الذى لاعلاج لصده * الصفة الثانية هى
ابهام وقت الموت وعدم معرفة كيفيته * لانه مامن احد يعرف
متى ياتى الموت ولا كيف ياتى * الصفة الثالثة هى وحدة
الموت لانه من الممتنع ان نصلح بموت ثانى نقص الموت الاول
فلنتكلمن اولًا عن الصفة الاولى اعني عن ضرورة الموت *
فنقول ان الله لم يضع قط شريعة ثابتة غير قابلة الانحلال نظير
شريعة الموت * لانه تعالى حل نظام الطبيعة وشرايعها * الّا
انه لم يحل قط شريعة الموت ولا سيحلها ابدًا * وهذا الحكم الالهى

لم يتم نحو الذين كانوا يستحقون الموت فقط * بل تم ايضاً في
من كان يقتضى الصواب ان يكون محلولاً ومبرءاً منه * فقد
انحلت في الجبل بسيدنا يسوع المسيح الشرايع الطبيعية القديمة
اى ان يكون التناسل البشرى بواسطة رجل وفقد بتوليّة الوالدة
فلكى لايكون هذا في اتلاد السيد المسيح * اضطرالهُ هذه الشريعة
الطبيعية باعجوبتين مذهلتين * ليتلد ابنه الازليّ من ام بتول *
اما شريعة الموت فلم يحلله تعالي منها ولو انها لم تكن مرسومة من
اجلهِ * وذلك لانه كان هو واضع الشريعة وبريئاً من كل خطيّة
حتي الاصليّة التي تصيرنا اهلاً للموت * بل انه قد كان يحق لجسده
الاقدس عدم الموت الذى هو احد الاربعة الكمالات البهيّة *
وذلك لاجل مشاهدة نفسه القدسيّة الجوهر الالهى * فمع هذا
كله لم يدع ابنه ان يمتنع بحقهِ هذا الكليّ الصواب والعدل *
لكن بقوة يده الضابطة الكل حصر في نفسهِ المجيدة تلك
الكمالات السعيدة * وصدها عن ان تصدر من قبلها في جسده
كما كان ينبغى * وهذا كله لكى يموت * ولكن ان كان يتبين
لاحد ان ابن الله اذ كان قد ضمن فدا الجنس البشرى *
فلذلك لاق بجلال حنوه ومحبته ان يموت موت الصليب *
فاقول الآن ان هذه الحجة لاتنسب لوالدتهِ المثلثة الغبطة * لانها
اذ كانت بريئة من الخطية الاصلية لم تكن خاضعة لشريعة الموت

ومع

ومع هذا فلم يرد الله ان ينجيهما من الشريعة العامة الكلية
الضرورة * فما هو ادًا هذا السحر الذى يظلم عقولنا ولا يدعنا ان
نتحقق جيدًا ضرورة الموت مع انها محققة غاية التحقيق *
ولعمرى انه لو كان الموت شيًا غير محقق * لكان مع ذلك من
شانه ان يصير الانسان مستيقظًا محسنًا الحذر على الدوام *
لانه اذا ما افترضنا ان الله خلق العالم مملوًا من البشر * وقبل ان
يموت واحد منهم عرف هذا الامر * وهو ان واحدًا من الناس
اعترته حمى وبائية * وشوهد منهم طريح الفراش حاصلًا في
اعراض المرض المميت * اى انحصار القلب * والغشي المرعب *
والعطش المذيب * وسجس المخيلة والاضطراب * وانحلال
القوى * الى ان يحصل اخيرًا امام الجميع في حال النزاع * فيكمد
لونه * وتنقطع انفاسه ويموت * ويعود جسده باردًا عديم
الحركة * اما كان الجميع يتذهلون من هذا المنظر متحيرين *
واما كان يلم بهم الخوف والرعب بزيادة اذا ما شاهدوه بعد
ذلك بثلثة او اربعة ايام منتفخًا منتنًا وقد ابتدا ان يدود *
فبلا شك انهم كلهم كانوا يرتجفون لخوفهم من ان يصير بهم هكذا
ثم لو ان الله يقول لهم * اني لست اريد ان جميع الناس يموتون
لكن البعض منهم * ولم يقل تعالى من هم الذين لا يموتون *
اما كان يستمر كل واحد في حال الاضطراب * خايفًا من

ان يكون احد الذين يدركهم شقا الموت * والحال ان هذا يصيبنا
جميعنا بلا شك * ومع ذلك فلا نفتكر به * فان كان الموت الذى
تحت الارتياب والشك من شانه ان يخيف هكذا * فكيف لا يخيفنا
الموت المحقق عندنا والموكد غاية التوكيد * فلو انه عز وجل يقول
ان من الجنس البشرى جميعه يموت واحد فقط * لكان الجميع
يفزعون * فلماذا لا تفزع انت اذ قد اضطر الجميع بالموت *
ولست تدرى ان كان الموت لا يفاجيك قبل الجميع * فلو ان الله عين
الشخص العتيد ان يموت قبل الكل * ومع ذلك عاش هذا
ملتهيا متغاضيا عن الموت * فما الذى كانت تقوله بقية الناس
عنه * انما كانوا يندهشون من غباوة تغافله عن هذا الامر
المرهوب * فبلا شك انهم كانوا يزدرون به ويوبخونه بحدة على
التهايه الملتوى في مثل هذا الامر الباهظ قايلين له * كيف وانت عتيد
ان تعود الى تراب تنعم جسدك الذى عن قريب سيدفع ماكلا
للدود كيف وانت انسان ملتزم ان تمتثل بازاء عرش الله * لا تفتكر
في الحساب الاخير الذى سيطلب منك * كيف لا تزدرى بكل
هذه الاشيا الزمنية وتحتقرها * اذ كان قد حكم عليك بالموت
وانت عتيد ان تفارقها * فنحن يحق لنا ان نهتم في بناء المنازل
وجمع الاموال لان حياتنا لا تنتهى * اما انت الذى حياته مستعارة
ومضطر بان يردها غدا * فما بالك تهتم في بناء القصور واحتشاد

الغني الذى لاتحتاج اليه * فكيف لاتختار لسكناك كوخاً لتستعد
بهِ نفسك لسكناك في القبر المعد لك *
قد ذكر احد المعلمين المعتبرين خبراً مناسباً جداً لازالة ضلالنا
هذا فقال * ان جندياً ما خدم سيده خدمة نصوحة سنين
عديدة * فحصل عنده جزيل الكرامة والاعتبار * فاتفق انه
مرض اعني الجندى المذكور مرض الموت * فاذ شعر سيده
بذلك وافاه حالاً باطبا حاذقين لمداواته وشفايهِ * ثم طلب منه
باجتهاد ان يكشف لهُ كل ما يهواه قلبه واوضح لهُ انه لمستعد ان
يرضى خاطره في كل ما يرغب ويشا * غير مبالٍ من الاسراف
ولامعتبر التعب * فبعد ان اسهب الكلام في هذا المعنى * قال
لهُ المريض اني اريد منك احد ثلثة اشيا * وهو اما النجاة من
الموت الذى قد حضر * واما تخفيف اوجاعي الشديدة منذ ساعة
واحدة لاغير * واما ان تبصر لي بعد الموت منزلاً مناسباً اوى
اليه واستريح فيهِ ليلة واحدة فقط * فاجابه سيده ان هذه كلها
متعلقة بارادة الله وحده وقوته الضابطة الكل * فاطلب مني
غير ذلك ولو مهما كان ثميناً بشرط ان يكون ممكناً * فاني
اقدمه لك حالاً لامحالة * فقال لهُ الجندى فقد ذهب اذاً باطلاً
كل التعب الذى احتملته في خدمتك * ولم اجتنِ نفعاً من كل ما
فعلته لاجلك في جميع ايام حياتي * ثم اقبل بوجهه علي الحاضرين

المحدقين به وقال لهم متاسف ودموع ذارفة * انظروا يا اخوتي
كيف اصرفت انا الزمان باطلاً في خدمة هذا السيد * متمماً
اوامن باجتهاد جزيل * مخاطراً بنفسي مطوحاً اياها في خطر
الهلاك الابدى * فتاملوا الان ضعف اقتداره عن اسعافي * لانه
لايقدر ان يسعفني ساعة واحدة في ضيقتي هذه الشديدة *
فها انا انصحكم يا ايها الاخوة بالمسيح * ان تنعموا النظر مستيقظين
وتتعظوا بضلالي متحذرين من مثل هذا الخطر العظيم * واجتهدوا
ان تخدموا في هذه الحيوة سيداً ليس انه يقدر ان يخلصكم من
الشقا الزمني فقط بل انه يكللكم ايضاً باكليل المجد في الملك
الابدى * فياليت الله يرتضى ان يشفيني بصلواتكم * فاني
اعاهد باني منذ الان فصاعداً لااخدم اصلاً سيداً عاجزاً عن
مكافاة خدمتي * بل افرغ جهدى كله في اني اكرم من له
قدرة ضابطة الكل * يستطيع بها ان يسترني ويستر العالم جميعه
وبهذا الاعتبار حصل المريض على ندامة قوية وتوفي * وترك
لنا نموذجاً فاعلياً لنصرف جيداً الزمن الموهوب لنا من الله
لنربح به الثواب الابدى *

فهات الان لنعتبرن صفة الموت الثانية وهى ابهام وقته * فنقول
حقاً ان الموت شي موكد * الآ ان وقت ورودة هو غير معروف
وتحت الارتياب * لانه من ذا يعلم ان كان يموت شيخاً ام شاباً *

بمرض ام بصاعقة او سيف * بانحلال القوة رويدًا رويدًا ام فجاءة
هل يموت بين الناس امرء في البراري المقفرة * فالموت لا يزال
بابه مفتوحًا * وهذا العدو لا يبرح مشهرًا حربته ليصمي فوادنا
بها في حين لا نعلمه * فها هو ذا الرعاة لا يزالون محترسين على
رعاياهم مع كلالهم المنتهية * مع انهم لا يظنون بترجيح ان الذيب
يطرقهم و يفترس شيئًا من مرعيتهم * لكن لاجل مجرد امكان
الامر * وكذلك المدن الحصينة فحراسها يسهرون لاجل حفظها
حتي في ازمنة الصلح والسلامة ايضًا حينما لا يوجد خوف من
قبل الاعدا * وذلك من اجل هذا فقط وهو لانه يمكن ان يغتالهم
عدو علي غفلة * هكذا اذا ما سمع احد بوجود لصوص يمكن
ان ينزلوا علي بيته ليلًا * فيستمر طول الليل مستيقظًا ليلا يفاجوه
وهو نايم فينهبوا امتعته * والحال ان طروق الموت ليس هو
تحت الارتياب * بل هو شي محقق غاية التحقيق * فكيف
لا تسهر ساهرًا مستيقظًا علي نفسك * مع انك لا تعلم متي تموت
فلو كنت جالسًا تحت شي ثقيل معلق فوق راسك بخيط رفيع *
اما كنت توجد متحذرًا علي الدوام غير متغافل عن هذا الخطر
فكيف اذًا يمكنك ان تستمر دقيقة واحدة من الزمن في حال
الخطية المميتة * وانت معلق فوق لجة جهنم بخيط رفيع خيط
هن الحيوة السهل انقطاعه والممكن في كل وقت باسباب كثيرة *

اى اما بقطع عرق في الصدر * واما بفتح دملة في الاحشا *
او بخار يتصاعد الي الدماغ * او بنقطة تنحدر على القلب *
او بغير ذلك من الحوادث الجزيلة العدد * التي كل واحدة منها
هي كافية لموتك *

ان الاسرايليين اذ كانوا غير عارفين بوقت سفرهم * فاستمروا
مستعدين علي الدوام للسفر مدة الاربعين سنة التي مكثوا فيها
في البرية * فكن اذًا في حال الاستعداد دايمًا * لانك لاتدرى
متي يكون رحيلك * ولعمرى انك اذا ما قصدت سفر يوم واحد
فانك تعد كل شي باجتهاد وبعد الاجتهاد البليغ تجد غالبًا انك
نسيت شيًا ما مما يلزم * فها هوذا انت قريب من السفر الابدى
فهل تظن انك تكون قد استعددت لهُ حسنًا ان كنت لاتعد
نفسك لهُ ابدًا * فمن ذا لا يشتهى ان لا يوافيه الموت الا بعد
المواظبة علي خدمة الله قليما يكون سنتين * والحال انه ليس
لك ولا سنة واحدة موكدة * فلماذا لاتبتدى ان تخدمه تعالي *
فلا تعتمدن على قوة مزاجك وشبوبيتك * لانه قد يتفق مرات
كثيرة ان يثب الموت بغتة في حين لانفتكر فيهِ * ويوم الرب
ياتي كلص في الليل كما قال الرسول ولايدرى احد باتيانه * بل
قد يكون رب البيت مستغرقًا في نوم ثقيل * انه في اليوم المتقدم
على خروج بني اسرايل من مصر * قد كان عظما المصريين

يفتكرون

يفتكرون باموركبيرة * ويقصدون ان يتموها بعد يوم
او بعد سنة * فلم يصل احدهم الي صباح اليوم الثاني * ولذلك
قد احسن جدًا ذلك الرجل الحكيم الذى اخبر عنه غيدو المورخ
انه اذ عزمه صاحب له لان ياكل معه في الغد * فاجابه قايلاً *
لماذا ياصاح تعزمني لان اتي اليك وليمتك في الغد * وانا منذ سنين
كثيرة لم اجسر ان اعد نفسي بيوم ثانٍ * لكني اتوقع الموت
في كل ساعة * وترى ما الذى يعنيه النبي بقوله تغرب الشمس
وقت الظهيرة سوى هذا المعني * وهو انه لما تحال الناس انهم
حاصلون علي نصف طريق حياتهم وفي زهرة عمرهم * ولذلك
يترجون سنين عديدة واموالاً غزيرة وعرساً معتبراً وكرامات
عالمية * فوقتيذٍ يوافيهم الموت * واليوم المعين لاعظم متنزهاتهم
يلاشي كل شي من مامولاتهم * كما تم فيما اخبرنا عنه اسكندر فايا
فقال المخبر المذكور * ان لاديسلاوس ملك ونغاريا وبوميا *
كان قد خطب لابنه ابنة كارلوس ملك فرنسا * فلما حان
وقت زيجتهما * ارسل اناساً كثيرين من اشراف مملكته *
ليرافقوا في الطريق العروسة ابنة ملك فرنسا * وكان من اعظم
المرسلين شرفاً اسقف مدينة باسو * والبقية كانوا سمايتة
شريف * متوشحين بافخر الملابس الملوكية * وما عدا ذلك فارسل
اربعماية بنت من اجمل بنات الدولة * وكلهن كن مزينات

باثمن الحلل وابهى الجواهر * وقد كانت مركباتهن مصفحة كلها
بصفايح الذهب * ومعهن هدايا ثمينة الى الخطيبة * فلما دخل
هذا الحفل العظيم مدينة باريس * قبل وصولهم الي البلاط المعد
لهم * وصل اليهم من قبل ملك اونغاريا ساعٍ على الخيل بمكتوب
من الملك المذكور يخبرهم به ان ابنه العروس قد مات *
فيالهُ من حزن عظيم وغم جسيم استحوذ ليس علي قلب المرسلين
فقط * بل علي قلب ملك فرنسا ايضاً * حتي انه لم يستطع ان
يكلم المرسلين ولا ان يواجههم * فارتد المرسلون الى بلادهم
بالويل والثبور * فهكذا يعرف الله ان يحيل النهار الاوفر نوراً
وفرحاً الي ظلام وغم جزيل كما قال النبي *
فقل لي الان يامن يوخر توبته وهو متكل علي الرحمة الالهية
من اين تعرف ان كنت تعطى زمناً لتدعوها وتستغيث بها *
واذا ما اعطيت هذا الزمن * فمن اين تعلم ان كانت تستجيب لك *
وكيف تقول انك تخاف العدل الالهي وانت توخر توبتك الى
مقدارٍ ما من السنين الي حينما تتركك الرذايل اكثر مما انت
تتركها * ان البعض من الناس يعاملون الله سبحانه كما صنع
ديونيسيوس الملك مع صنم اوفولو * فهذا الملك نزع عن الصنم
ثوبه المصفح بالذهب وقال نحوه هكذا * ان هذا الثوب لا يناسبك
في زمن الشتاء لانه بارد * ولا في زمن الحر لانه ثقيل جداً *

فهكذا هولاء لايجدون طقساً مناسباً لخدمة الله * لانهم في
زمن الصبا والشبوبيّة يقولون انه لم يات الزمان بعد * فستاتي
الشيخوخة وحينيذٍ نعتني في الفضيلة * اما الان فلسنا نريد
ان نضعف قوتنا ونذبل زهرة عمرنا بافعال التوبة * حذراً من
ان نعود بقيّة ايام حياتنا عاجزين عن كل عمل * واذا ما بلغوا سن
الشيخوخة فيعتذرون قايلين اننا موجعون لاقوة لنا الان
نمارس افعال العيشة القشفة * وعلي هذا النحو يريدون ان
يخدعوا الله * الّا انهم يخدعون انفسهم * وقد رذل القديس
يعقوب الرسول هذا الخطاب * اعني قولنا اننا سنمضي غداً الي
المدينة الفلانيّة ونقيم هناك مدّة سنة * ونحن لاندري ماذا
يكون في الغد * فان كان اذاً هذا القول اعني اننا نستطيع
كذا في الغد ليس هو بحسن نظراً الي الاشيا الزمنيّة * فكيف
لايكون قولاً ذا جهالة وغباوة نظراً الي ما يخص خلاص النفس
الابدي * القول الذي به نعد اننا بعد عشر سنين او عشرين
سنة او في حين الشيخوخة نعتني فيما يخص خلاصنا * لانه قد
يمكن الّا نكون عتيدين ان نبلغ الي هذا الزمن * ولماذا نوخر
الي الغد امراً مثل هذا جزيل الاعتبار يجب علينا جدّاً ان نكمله
الان سريعاً * واذا لم نكمله اليوم فقد يمكن الّا نبلغ الي الغد
لنكمله * وهذا الخداع نفسه قد كان منخدعاً به القديس

اغوستينوس قبل توبته * ولذلك اخبر عن نفسه قايلاً هكذا اني
كنت اشعر بنفسي انها ممسوكة من خطاياي مرتبطة بها *
وكنت اصرخ متنهداً قايلاً * الامر اقول غداً غداً * ولماذا لا ينتهي
دنس سيرتي في هذه الساعة * هذا ما كنت اقوله وانا ذارف
الدموع السخينة بقلب منسحق انتهى *
اما في بيان صفة الموت الثالثة وهي وحدة الموت * اذ اننا
لانستطيع ان نصلح بموتٍ ثانٍ عكس الموت الاول * فنقول
في ايرادها * ان الله قد وهب الانسان حواساً مضاعفة
كالعينين والاذنين واليدين والرجلين * حتى اذا عدمت الواحدة
يستغني عنها بالاخرى * اما الموت فاخص به موتاً واحداً * فاذا
اتفق ان يصير هذا الموت شريراً * فنكون قد هلكنا الى الابد *
فيالارهاب صفة الموت هذه ما ارعبها * حيث ان الشي الافضل
اعتباراً من جميع الاشيا اعني به الموت * لا تجربة له ولا اختبار
ولا علاج * ومع ان الابدية هي متعلقة بهذا الوقت الاخير *
لم نعط ان نموت سوى مرة واحدة * وعكس هذا الموت الوحيد
لا اصلاح له اصلاً * خبرنا بلوتركوس عن قايد ما يدعى
ليسيمكوس * انه وبخ يوماً جندياً علي زلة صدرت منه في
الحرب * فوعد الجندي بانه لا يعود اليها اصلاً * فاجابه القايد
الحكيم ما هذا الكلام * الست تعلم ان الحرب لا يزل فيه احد

مرتين انتهى * فلو تعطى قوس لرجل فلاح لم يبصر قط سهما في
كل حياته * ويومر بان يرمى الغرض المبتعد عنه جدًا بسهم نافذ *
ولكن بهذا الشرط * وهو انه ان زل المرة الاولى واخطا الغرض
يحرق حيًا * وان اصابه يعطَ اموالًا عزيزة وهبات جسيمة *
فمن يستطيع ان يصف ضيق هذا الرجل وخوفه حال اضطراره
بفعل مستصعب جدًا لم يباشر في حياته قط * مع علمه انه ليس
له ان يصلح غلط الضربة الاولى بضربة ثانية * فهذه الحال هي
عين حالتنا نحن * لاننا لم نمت حتى الان ولا مرة واحدة * ولم نختبر
قط هذا الامر العسير * وها نحن عتيدون ان نموت مرة واحدة *
وبهذا الموت الاول والوحيد قد تعلقت اما ابدية العقوبات
الجهنمية واما ابدية الافراح السماوية * فكيف اذًا نستمر متغاضين
عن اكتساب الموتة الصالحة التي من اجل اكتسابها فقط قد
خلقنا * ان الافعال البشرية الممكن تكريرها هذه الحال حالها *
وهي انه اذا تم الفعل الاول بعكسٍ * فقد يمكن ان يتم الاخر
حسنًا * وبالنتيجة ان الذي نخسر في المرة الاولى يمكن ان
نعوضه بالثانية * فالتاجر مثلًا اذا غرق له مركب موسوق في
البحر * فقد يمكنه ان يربح بمرة اخرى ما خسر بالمرة الاولى * اما
الموت فانه اذا ما حصل مرة واحدة شريرًا فلا يمكن ان يصير صالحًا
ابدًا * ولقد احسن احد المعلمين العابدين بقوله * اننا نرى جميع

الذين

الذين يريدون ان يباشروا صناعة او قضية ما عالمية باهظة *
فانهم يفتكرون باجتهاد في الوسايط المساعدة والاكثر مناسبة
لبلوغ كمال العمل المقصود * فكيف اذا يتغاضى الاكثرون عن
تامل ما يبلغ الى موت صالح * حيث ان هذا اصعب الامور
الدنيوية كلها واعظمها * فليكن اذا سلوكنا علي الارض سلوك
اناس عتيدين ان يموتوا * معتقدين اننا سنموت حقا *
مظهرين بافعالنا اننا عارفون بما سيصيبنا * وغير عالمين متي
يوافينا * فليجتهد كل منا في ان يمارس كل عمل من اعماله كانه
العمل الاخير * وانه عند انتهايه تنتهي حياته * وعلي الخصوص
لايتاخر في اصلاح سيرته * في قمع اهوايه المنحرفة * في تجريد
افكاره من الارض ورفعها مع قلبه الى السما * وذلك بتوجيه
عواطفه الي الله خالقه * ان الشجرة المعوجة ان قطعتها تسقط
حيثما كانت مايلة * فان كنا مادمنا عايشين
على الارض غير مايلين نحو السما * فما هي الجهة
التي نسقط فيها * فلنخف
ثم فلنخف من
* جهنم *

الفصل الثالث

* في الدقيقة الكائنة مابين الزمان والابدية * وفي ان هذه *
الدقيقة مخيفة جدًا لانه بها تنتهي حياتنا
فيا ايتها الدقيقة دقيقة حياتنا الاخيرة وبدء الابدية ما ارهبكِ *
وما اكثر ما انتِ مخيفة مرعبة * وذلك ليس لاننا بكِ نفارق
الحيوة فقط * بل لاننا حينيذٍ نلتزم ايضًا برد الحساب عن
الحيوة * وبان نلج بلدًا غريبًا غير معروف منا * انه بدقيقة
واحدة تزول حياتي * وفي هذه الدقيقة نفسها امتثل امام
الديان * وحينيذٍ تورد بازاء وجهي جميع خطايای الجزيلة العدد
والعظيمة جدًا * ويقضى عليّ بالخلود اما في السماوات في جهنم *
وليس لهذا الامر الذى هو اعظم الامور سوى دقيقة واحدة *
فلا يبقى محل للتبرير ولا للنقل الدعوى الي محكمة اخرى * ولا يفيد
حينيذٍ الاجتهاد ولا الاستشفاع * فيالها من دقيقة مفزعة قد
تعلقت بها جميع هذه الاشيا الباهظة * ويالها من دقيقة عظيمة
اعظم من جميع دقايق الزمان والابدية * يالها من دقيقة ليست
هي زمنًا ولا ابدية بل مدار الزمان والابدية * وبها يتميز الزمان
من الابدية * يالها من دقيقة يسيرة ضيقة وعظيمة جسيمة *
تنقضي بها اعظم الامور وتحوى امورًا جسيمة *

فلكي نفهم جيدًا ما اخوف هذه الدقيقة التي لا يستطيع الخاطي ان ينجو بها من عدل الديان الغضوب * لا بشفاعة القديسين ولا بصلوات الكهنة * فينبغي ان نورد ما ذكر القديس داميانوس في رسالته الي البابا اسكندر الثاني * الخبر الذي يقول عنه هذا القديس ان كل من يتذكر تقشعر لحمانه خوفًا ورعبًا * فيقول ان رجلين ذهبا الي الحرش ليحتطبا حطبًا * فخرج عليهما تنين ضخم جدًا ذو راسين * مبرزًا لسانيه بشكل سهمين * وعيناه تقدحان شررًا * فبرز اليه اشجع الرجلين ولما دنا منه ضربه بطبرٍ كان في يده لقطع الحطب * فقطع احد راسيه * غير ان الطبر فلت من يده بعد الضربة * فلما شعر التنين بجراحه الاليم * هجم على الرجل وانشب فيه انيابه * فشرع يصرخ المسكين طالبًا من رفيقه انه اما ان يسرع الي عونه واما ان يناوله الطبر ليخلص به ذاته من ذلك التنين الذي كان يسحبه الي وكن * الا ان رفيقه العديم الشجاعة بالكلية * لم يجد في قلبه قوة سوى للهرب * فهرب وغادر رفيقه في يد التنين الذي سحبه الي وكن وافترسه هناك * ثم يقول القديس المتقدم ذكره اعني داميانوس * انني لا اقدر ان اصف كم مقدار ما يرعبني هذا الخبر * وقد اتامل مرات كثيرة حال هذا التنين وحال هذا الرجل في تلك المغارة * حيث لم يكن من

يقطع الحرب بينهما * ولا معين ولا منقذ * ولا تفيد الرجل القابض عليه التنين شجاعته ولا قوته ولا صراخه * فان كان تامل القديس حال انسان ايسٍ من كل معونة في خطر موت زمني * قد افعم قلبه رعبًا وحزنًا هذا عظم مقداره * فماذا يكون رعب الخاطى وخوفه في تلك الدقيقة المرعبة التي فيها يحكم الله عليه حكمًا اخيرًا * وفيها يعدم الشقي كل رجاء عون وعلاج وخلاص * ويسلم لانياب التنين الجهنمي الذى يقبض عليه حالًا * ويغلل نفسه ويسحبها الى اللجة المظلمة الجهنمية * فاذكر بخوف واجب ما قاله النبى عن الشيطان ليلا يخطف مثل الاسد نفسي حيث لا منقذ ولا مخلص * فياما ارهب الوقوع في يد اركون الشياطين * حينما يكون الخاطى متروكًا من جميع البشر والملكية * ومن ملكة البشر والملكية ومن ابى المراحم *

قال الانبا الياس اني اخاف مرتعبًا من ثلثة اشيا * اعني الدقيقة التي فيها تنفصل نفسي من جسدى * والدقيقة التي فيها احضر امام الله للدينونة * والدقيقة التي فيها يبرز القضا علىّ * والحال ان هذه الثلثة الاشيا تتم في دقيقة الموت * فياالها من دقيقة مرهبة تقطع خيط الزمن وتمد سدا الابدية المتعلقة بالموت * الذى سيوافينا اذ نكون مهتمين في اطالة حياتنا * وفي هذا

الصدد

الصدد قد اورد بولس اميليوس خبرًا عن كارلوس ملك نافارا * فهذا الملك اذ خارت قوته لاجل افراط انهماكه في اللذات اللحمية الدنسة * امرت الاطبا بان يلتف جسمه بملاحف مبتلة من مياه مستقطرة من ما العنب * فلفه احد خدامه وخيط عليه الملاحف المبتلة بالما المذكور * واذ لم يجد مقصًا حاضرًا لديه ليقطع به الخيط * فاحرقه بشمعة متقدة * فعلق اللهيب بالخيط ثم بالملاحف المبتلة بالعرق * فحصل الملك مستغرقًا في اللهيب * فمات لساعته * وكانت حياته متعلقة بخيط ابادها بمثل هذا الموت المريثي لهُ * ولعمري ان خيط حياتنا لسريع قطعه كقطع خيط كتان * ومن ذا يقدر ان يحصي كثرة الاسباب والطرق التي منها ياتينا الموت * وما اصغر واخف الاشيا المتعلقة بها حياتنا اذ قد تكون متعلقة بخيط رفيع بل بشعرة واحدة * لانه هكذا زالت حيوة فابيوس احد القضاة الرومانيين القدما * اى بشعرة وقفت في حلقهِ اذ كان يشرب حليبًا فاختنق بها ومات * على ان الموت لا يجد بابًا مغلوقًا في وجههِ * بل انه يدخل في مسام الهوا * ويصادر الحيوة ويقتنصها * فقد تحقق بالاخبار ان اناكراون الشاعر مات من حبة عنب * واخر يقال لهُ دروسوس اذ كان يلعب بتفاحة صغيرة وقفت في حلقهِ وخنقته * حتي ان شهوات النفس ولذات الجسم تمهد الطريق

للموت وتوسعه * وهكذا اوميروس اعظم شعرا اليونانيين قتله
الم المالنخوليا * وبعكس ذلك شاعر اخر يدعي سوفوكليس توفي
بغتة من فرح مفرط * وكذلك ديونيسيوس الملك مات من افراط
فرحه بسماعهِ خبر انتصار عسكره على الاعداء * واوريليانوس
الملك قضى اجله وهو راقص في يوم عرسه مع ابنة دوميسيانوس
الملك عروسه * وكورنيليوس غالوس وطيطوس اتيريوس
وغيرهما كثيرون ماتوا في حال فعل الزنا * فلينتصح كل
احد ولا يقل اني لست اموت اليوم * لان هولاء جميعهم الذين
ماتوا بغتة لم يظن احدهم بانه يموت في ذلك اليوم * فالذي
* عرض لغيرك يمكن ان يعرض لك ايضاً فتنبه *

الفصل الرابع

* في السبب الذي من اجلهِ يكون انتهاء الحيوة الزمنية مخيفاً *

فان كان الموت من شانهِ ان يرعبنا بهذا المقدار لانهُ بهِ ينتهي
كل ما لنا في هذه الحيوة * فكم وكم يكون مرهباً مرعباً
لاننا نلتزم فيه ان نودي حساباً عاماً لذاك الديان العادل الذي
سيكون حينيذٍ غير شفوق * الذي مات لكيما نستعمل كل شيء
استعمالاً حسناً * ولهذا كان ايوب الصديق يحسن حساب

حيانهِ * ومن اجل ذلك افتخر الله بهِ انه خليله * وقد شهد الروح
القدس انه لم يزل البتة في كلما قالهُ في زمن ضيقتهِ * ولم يعذبهُ
الله لاجل خطيّة صدرت منهُ * بل انه قدمهُ لنا مثالاً للصبر
والفضيلة * وهو عينهُ قال عن نفسهِ ان ضميرهُ لم يبكتهُ على شي
ومع هذا كله فقد اشار الي ان رد الحساب الاخير امام الله لرهيب
بهذا المقدار * حتي انه لافراط خوفهِ من صرامتهِ قال هكذا * من
يعطيني ان تعضديني في الجحيم وتسترني حتي يجوز غضبك *
علي ان مجرد النظر الى الرب في يوم غضبهِ وحينما يكون تعالي
هو الشاهد والديان معاً * سيكون مرهباً مرعباً بهذا المقدار
حتي ان الذهبي فمهِ قال في عظتهِ الرابعة والعشرين على
انجيل متي * انه خيرلنا ان تتساقط علينا الصواعق * من ان
نرى ذلك الوجه الوديع المحبوب قد استحال الي وجهٍ غضوب
يرذلنا ويقصينا عنهُ * ونشاهد عينيهِ تعالي تلك الكليّة الحنو
والهدو مشمازتين من مشاهدتنا *
وقد اتفق يوماً في هذه الحيوة حيث ملك الله هو ملك الرحمة *
ان ايقونة سيدنا يسوع المسيح المصلوب اصرفت عينيها
بغضب عن جماعةٍ من الاشرار اذ كانوا ينظرون اليها *
فكفاهم ذلك ليسقط منهم ثلثماية نفس على الارض مغشيين
ولبثوا علي هذه الحال عدة ساعات لم يستطيعوا القيام * فماذا

يكون

يكون اذًا خوف الخطاه عند نظرهم لا الى ايقونة ابن الله
المصلوب * بل الي اقنومهِ الالهي نفسهِ * لا في حال اهانة
الصليب * بل في منبر عزتهِ وسدة عدلهِ * لا في زمان الرحمة *
بل في محل الصرامة القصيي * لا عريانًا وبايدٍ مسمرة * بل
متسلحًا ضد الخطاة مجردًا سيف رجز غضبه ليدينهم وينتقم
من معاصيهم * ولعمري انه اذا ما حقن نهر عظيم وحبس عن
جريهِ السريع مدة عشرين او ثلثين سنة * فيخزن ويحقن في
باطنه مقدارًا عظيمًا من الماء * فان اطلقت بعد ذلك تلك المياه
فيكون عزم جريها عظيمًا بهذا المقدار * حتي انه لا جسر ولا
قلعة تستطيع ان تثبت امامه * والحال ان العدل الالهي المدعو
من دانيال النبي لا نهرًا من الانهار فقط * بل نهرًا ناريًا * فهو
محبوس ومضبوط مدة عشرين او ثلثين سنة * اعني مدة
حيوة الانسان * فما اعظم ما تكون لجة هذا الغضب المجموع
وما اشد ما يكون عزم جريه علي الخاطي في وقت الموت *
فهذا هو الغضب الشديد الجزيلة صرامته الذي سيبصره الهالك
الشقي في وجهِ الديان فيستوعب منه خجلًا ويمتلي رعبًا *
ولافراط خجلهِ وخوفهِ يغشي عليه ويسقط ايسًا * ومن ثم قال
دانيال النبي ان النار تندفق عن وجههِ تعالي * وان عرشه يكون
من لهيبٍ * وبكراته من جمر نار * على انه تعالي يكون بكليته

نارًا وصرامة وعدلاً * وما عدا ذلك فان بكرات عرش الله الديان
الرهيب تعني سرعة جرى قدرته الضابطة الكل في اخذ ثاره
وانتقامه من الخطاة * فاما هوشع النبي فمثله تعالي بوحش
غضوب * فقال عن لسان الله * انا امضي الي ملاقاتهم * اي
انا اهجم حينيذٍ عليهم * مثل الدب الذى خطف جروه * وامزق
احشاهم افسنخهم وافنيهم كالاسد * وحقًا انه لن يوجد بين
الوحوش اشرس طبعًا ولا اقسا من الاسد والدب حينما يخطف
جرو احدهما * فانهما يهجمان برجزٍ مفرط علي كل من التقيا به *
فهذه الحقيقة اذ تاملها الانبا اغاثون وهو مشرف علي الموت *
استحوذ عليه التحير ولبث في هذه الحال ثلثة ايام فاتحًا عينيه
وشاخصًا * ومن شدة خوفه لم يستطع ان يتحرك يمينًا او
شمالاً * علي ان الله الذى سكت صابرًا ايامًا كثيرة فانه سيصرخ
في ذلك اليوم الذى تكلم عنه هكذا على لسان اشعيا النبي
قايلاً * اني حتي الان استمررت صامتًا وصابرًا * فالان اتكلم
مثل الطالقة * فهذا اليوم اذًا وهذه الساعة سيكونان زمن
عدل محض لاتمازجه رحمة * فلا يكون لاحد رجا شفقة او عون
الا من قبل اعماله الصالحة *

فيا ايها الانسان المتمتع بعد بزمن هذه الحيوة * اذكر متاملاً
انك لعتيد ان تبصر هذا الوقت الذى لا ينفعك فيه دم السيد

المسيح * ولا صلبه * ولا شفاعة مريم الكليّة الحنو * ولا صلوات القديسين * ولا رحمة الله * لكن مراحمه السالفة تصيره تعالي ان يشدد نحوك عدلهُ * ولا يكون لك عون في هذه الساعة من احد * بل ان الجميع ينهضون ضدك * فالعذرا ام الرحمة * نفسها بل رحمة الله ايضاً عينها * ودم المسيح مخلصك * وملكك الحارس * والقديسون جميعهم ينهضون ضدك ويهملونك * ولا ترافقك سوى اعمالك * فانظر الان كيف يجب ان تعد نفسك لهذا اليوم * فاجتهدن الان بان تنتفع من دم السيد المسيح وتصيره مفيدًا لخلاصك * والاّ فانه يعود لك سببًا لهلاكك * فان كان هذا حقًا وحقًا لا يوجد شي اصدق منه * فكيف لا تتامله وكيف لا تبتعد عن كل ما يصدنا عن تاملهِ * ولماذا لا ننتصح بمشورة الانبا امون الذى لما استشاره راهب ما حديث مستخبرًا عما ينبغى ان يفعله لكى ينمو في الفضيلة * فاجابه الشيخ قايلاً * اذهب وكن مرددًا في عقلك الفكر الذى يتردد في عقول المجرمين المسجونين * الذين لا يزالون يسالون عن القاضى اين هو ومتي يجي * واذ يكونون منتظرين العذاب لا يبرحون يذرفون الدموع فهكذا يجب علي الراهب ان يكون حاصلاً على الدوام في منقع الخوف والرعبة * موبخًا نفسه هكذا قايلاً * الويل ليّ انا الشقى ترى كيف يكون وقوفي امام منبر ابن الله * وكيف يكون الحساب

عن افعالي * فانك ان تاملت هذا تاملاً متصلاً قال الانبا المتقدم
ذكره * فيمكنك ان تخلص * ولعمري انه ولو مهما اجتهدت
في البلوغ الى هذه الحال * فلا يمكن ان يكون اجتهادك
متزايداً *
ثم انه في ساعة الموت سيرى الانسان منظراً اخر رهيباً يصير
هذه الساعة مخيفة جداً في الغاية * وهو منظر بشاعة الخطية
التي ستعرف حينيذٍ جسامة قبحها معرفة جلية * وهذا قد اشار
اليهِ دانيال النبي بقولهِ * ان منبر الله من لهيب نار * لانه ما علا
ان النار تحرق فانها تبرق وتضي ايضاً * فهكذا في الدينونة
الالهية لا يحكم الله بصرامة العدل فقط * بل انه سيكشف تفاقم
خباثة البشر ايضاً كقول المرتل * انك قد وضعت اثامنا
امامك ودهرنا في ضوء وجهك * فالخشبة اذا كانت في الما
فانها ولو مهما كانت ثقيلة ضخمة يستطيع صبي صغير ان
يحركها بسهولة من هنا الى هناك * وما ذاك الآن نصفها
مستغرق في الما * الا انه متى اخرجت من الما فيعلم حينيذٍ جزيل
ثقلها * ويحتاج الى اناس اقوياء لكي يحركوها * وحينيذٍ تستبين
بكليتها * فهكذا الان لا نشعر بثقل اثامنا ما دامت مستغرقة في
مياه هذه الحيوة الكدرة الممتوجة * ونصفها مختفياً عن معرفتنا
الا انه في حين خروجنا من هذا العالم فاننا نجدها غير محتملة

لافراط

لافراط ثقلها * وظهورها الكلّي يملانا من الخزى والخجل *
فيكون حينيذٍ ضمير الخاطى مطعونًا بسيفين * احدهما كثرة
خطاياه التي لايحصى عددها * والاخر عظم قبحها * لانه اولًا
ينذهل متحيرًا اذ يطلع فيبصر خطايا كثيرة لم يستيقن عليها
قبلًا * والذى هو امر من هذا هو ان الذى كان يظن به انه عمل
صالح يحد حينيذٍ اثمًا * لانه اذ ياتي الزمن المعين من الله للقضا
الاخير * فيحكم حينيذٍ حكمًا عادلًا علي الاعمال الصالحة كقولهِ
تعالي بفم النبي * اذا اخذت انا دولة قضيت بالعدل * فياما
اعظم الاختلاف ما بين حكم الله وحكم البشر * لان الروح القدس
يقول ان احكام الله تشبه لجة عميقة * وان افكاره لبعيدة عن
افكار بني البشر كبعد الارض من السّما * فان كان الناس
الروحيون المتصفون بعقل ثاقب حاذق يجدون ناقصًا ما يتبين
لبقيّة الناس كاملًا * ويرذلون بالصواب ما يمدحه اولئك بالغلط
فترى كيف تكون الابصار الالهيّة العتيدة ان تجد شايبة ونقيصة
في طهارة تشبه طهارة الملايكة * وان كان تعالي وجد شرًا
في الملايكة كما قال الكتاب المقدس * فكيف يمكن ان تختفي
عنه ذنوب البشر * وان كان يفحص عن اورشليم المقدسة
بتدقيق بليغ * فماذا يكون الفحص عن بابل الدنسة * وان كان
قد عامل الابرار بصرامة هذا عظم مقدارها فماذا يفعل باعدايهِ

فهناك تظهر جهارًا جميع الاعمال التي مارسناها وتلك التي
اهملناها ايضًا * وهناك يتضح اثمًا ليس الشر الذى ارتكبناه فقط
بل الخير الذى اهملناه ايضًا وقد كان يجب علينا فعله * والخير
الذى فعلناه ولم نفعله جيدًا كما كان ينبغى * فحينيذٍ يفحص
عن الجميع ويكشف ويشهر الكل وسيحضر الشيطان المشتكى
ويفحص عن دعوتك ويشهر كلما عرف من ذنوبك * والذى
لايعرفه لايكون مخفيًا لان ضميرك سيصرخ ضدك ويشكوك
ولانه يمكن الّا يكون ضميرك قد اطلع علي كل اثامك *
فملاكك الحارس الذى هو الان معينك ومعضدك يكون
حينيذٍ خصمك * والذى لايكشفه الشيطان ولا يعترف بهِ الضمير
ولا يشهد بهِ الملك الحارس * فلا يمكن ان يختفى عن الديان
الذى سيكون حينيذٍ هو الشاهد والخصم معًا * فانه تعالي
يكشفه ويشهر بحكمتهِ الغير المتناهية علي ان اعينه عز
اسمه احدق من عيون القطا * فتنفذ الى اعمق مخدع ارادتنا
وترى هناك اشياء كثيرة ردية قد كنا نعدها حميدة * فيالها
من محاكمة مستغربة حيث لايوجد من ينكر ويجحد * وحيث
الجميع يشتكون حتي المذنب عينه * يالهُ من حكم مريع حيث
لايوجد من يشفع ويدفع * حيث يكون المشتكون اربعة *
الشيطان وضميرك وملاكك ودينك نفسه * الذى يشتكى

حينيذٍ عليك موردًا لك اشيا كثيرة قد كنت تعتمد عليها
لتبرير نفسك *
فماذا يكون اذًا احزنك وخجلك حينما يحتسب الله شرًا ما اعتقدته
انت خيرًا * قل لي من ذا الذى لم يكن يظن بعوزا الاسرايلي انه
قد فعل حسنًا اذ دنا من تابوت العهد وسند بيده اذ كان
مشرفًا على السقوط * الّا ان الله لم يرَ هكذا بل احتسب
فعله هذا خطيّة وانتقم منه بالموت لاجلها * موضحًا لنا بذلك
ان الاحكام الالهيّة لمختلفة جدًا عن الاحكام البشرية * ومن
لم يكن يحسب ما فعله داود اذ رام ان يعرف عدد شعبه ان فعله
هذا كان ضربًا من الحكمة وحسن التدبير * فمع ذلك قد عد
الله هذا العمل اثمًا * ولاجله عاقبه بطاعون لم يرَ مثله الى
يومنا هذا * وقد ظن شاول الملك لما تاخر صاموئيل عن
الحضور انه عمل عملًا جزيل التقوى والعبادة اذ ضحى لله
القرابين * الّا ان هذا العمل نفسه حسبه الله خطيّة ورذله
من اجلها * هكذا قد كان يظن بغفران اخاب لبنداد ملك
سوريا بعد انتصاره عليه انه فعل صالح جيد جدًا * ومع ذلك
فقد اغتاظ الله من ذلك بهذا المقدار * حتي انه ارسل الي الملك
اخاب نبيًا قايلًا له انه سيموت لاجل فعله هذا * وان العقاب
الذى كان يستحقه اهل سوريا وملكهم يعاقب به هو وشعبه

فان

فان كان في هذه الحيوة قد ظهرت احكام الله مختلفة بهذا المقدار
عن احكام البشر * فماذا يكون في تلك الساعة المرهبة التي قد
اعدها الله واخصها لابراز كل صرامة عدله * فحينيذٍ يظهر كل
جسامة شر الخطيّة ومناقضتها العقل النطقي * وبليغ شناعتها
المسببة في النفس من عظمة الاسيّة الى الله رب البرية *
وعدم الوفا وكفران الجميل نحو دم سيدنا يسوع المسيح *
وجزيل الضرر الذى وصل منها الى الخاطى نفسهِ * وماهية
جهنم الذى يسقط فيها لاجلها * والمجد الابدى الذى يحسن بسببها
وقد يجد الخاطى في كل واحدة من هذه المذكورات سببًا كافيًا
لان يملأ قلبه حزنًا وغمًا وقنوطًا * وان يجرى من عينيه
دموعًا لا عزاء لها * فماذا يكون اذًا فعلها كلها معًا * فان
كان النظر الى شيطان واحد يخيف بهذا المقدار * حتي ان
كثيرين من النساك اختاروا ان يكابدوا جميع عذابات هذه
الحيوة افضل من انهم يبصرونه خزاه الله دقيقة واحدة مع ان
شناعته المستقبحة انما هى صادرة عن خطيّة واحدة فقط *
فكيف يكون حينيذٍ حال الخاطى الذى ينظر ليس الشيطان
فقط مع كل سماجته * بل انه ينظر مع ذلك ذاته الشنعة نظير
الشيطان * وربما انها اكثر بشاعة من بشاعة شياطين
كثيرين * فليتصح اذًا كل منا فليتصح * لاننا جميعنا

عتيدون

عتيدون ان نظهر امام الديان العادل المرهوب * الذى سيكشف
كل شي ويحاسبنا علي ادني ما يكون *
وهذا الحساب الاخير الرهيب لا يصير على وجهِ العموم والاجمال
بل انهُ يصير بالتدقيق عن كل شيٍ فردًا فردًا بالتفصيل
والتصريح * ويطلب الرب من قهرمانهِ حساب تصرفه بكل فلس
من ارزاقهِ * فالشريعة البشرية رسمت الا يقبل الحاكم في
محكمتهِ دعوى علي شي دني وطفيف * اما في المحكمة الالهيّة
فتقبل الدعوى على شي باهظ ودني علي حد سوى * ولاثبات
ذلك خبرنا مورخون كثيرون عن راهبين متصفين بسيرة
مقدسة كانا يحبان بعضهما بعضًا محبة خالصة * فمات
احدهما * واذ كان الاخر ممتثلًا امام الله مصليًا * ترای لهُ
الميت بمنظر حزين كايب لابسًا اثوابًا حقيرة رثة * فسالهُ
الراهب الحيّ عن سبب حالتهِ هذه * فاجابهُ الميت قايلًا ثلث
مرات هكذا * ليس يصدق احد * ليس يصدق احد * ليس
يصدق احد * فطلب منهُ الحيّ شرح هذه الكلمات * فاجابهُ
الميت قايلًا * انهُ لا يمكن ان يفهم احد كم يدقق الله في طلب
الحساب عن ادني شي * وعظم جسامة العذاب المرسوم منهُ
تعالي لاجلهِ * قال هذا وغاب عن نظرهِ *
ولعمري انهُ قد يمكن ان نفهم ما ارهب ما يكون الحساب في

في

في ساعة الموت مما حدث لكثيرين من عبيد الله قبل خروجهم
من هذه الحيوة * خبرنا القديس يوحنا كليمكوس عن راهب
ما يقال له اصطفانوس * فهذا بعد المواظبة على الرياضات
الرهبانيّة اعواماً كثيرة * نال من الله موهبة الدموع ومواهب
اخر جزيلة جليلة * فتاق الي كمال الوحدة والانفراد * فابتني له
قلاية في منحدر جبل خوريب حيث راى ايليا النبي تلك الرويا
العظيمة * ثم بعد ذلك رغب ان يصرف ايامه في سيرة اكثر
تقشفاً * فذهب الى مكان يدعي سيدن الذى هو مسكن
المتوحدين المبتعدين من المدن واهل العالم نحو سبعين ميلاً *
فمكث هناك زماناً مديداً بعيشة ضيقة وتعب عظيم * ثم انكف
راجعاً الي دير الاول المقدس * وكان له تلميذان راهبان من
بلاد فلسطين * فمكث معهما زماناً يسيراً ثم اعتراه مرض الموت
فقبل ان يموت بيوم واحد سهما بغتة وصار مندهشاً * وشرع
ينظر يميناً وشمالاً مدلاً علي ان اناساً اتوا ليحاسبوه * فكان
يجيبهم قايلاً * اى نعم اني صنعت هذا لكنني صمت لاجله هذا
المقدار من السنين * ومن اخرى كان يقول * لقد كذبت لانه
لم يصدر مني هذا ابداً * ومن اخرى قال انني لست انكر هذا الا
اني ندمت لاجله وبكيت زماناً مديداً * وما رست كثيراً من افعال
المحبة نحو القريب * ثم بعد ذلك قال * اما هذا الذى تورده

الان ضدى فليس ليّ ما اجيب عنه غير اني اتكل على الرحمة
الالهيّة * لعمرى انه كان منظرًا مخيفًا يرثى لهُ * ثم يستتلى
القديس كليمكوس قايلًا * ويلى ويلى ماذا يكون مني ان
كان مثل هذا الناسك المتوحد يقول انه ليس لهُ ما يجيب بهِ
اعتذارًا عن نفسهِ * مع انه كان لهُ في الرهبنة اربعين سنة *
واعطى من الله موهبة الدموع * وقد شهد ليّ بعض يقول
القديس * ان هذا الناسك كان في البرية يطعم بيت تمرًا بريًا
شرسًا * فمع جميع هذه العلامات الدالة علي بر وقداسة
سيرتهِ * جرى الحساب عليه في وقت موتهِ بصرامة وتدقيق
هذا حد * حتي انه حصل علي حال الشك في كيف تنتهى دعوته
وقد جا ايضًا في تواريخ رهبنة القديس فرنسيس عن راهب
مبتدى * انه لما مرض وقارب الموت * صرخ صراخًا مريعًا
قايلًا ليتني لم اخلق اصلًا * وبعد ذلك بيسير قال زنوا وزنًا
مستقيمًا * ثم قال ضعوا قليلًا من استحقاقات الامر سيدنا يسوع
المسيح * ثم بعد ذلك ببرهة قال الان صار جيدًا * اما الرهبان
الحاضرون لديهِ * فاذ سمعوا ما كان ينطق بهِ هذا الشاب الفاضل
بصوت مرهب مرعب * امتلاوا ذهولًا ورهبة * فلما رجع الي
وعيه سالوه عما قالهُ وعن سبب صراخه الرهيب * فاجابهم
قايلًا * انني في هذه الرويا وجدت نفسي حاصلًا في الدينونة

الاخيرة

الاخيرة * ورايت الحساب عن ادنى شيءٍ وعن كل كلمة بطالة
دقيقاً صارماً بهذا المقدار * حتي ان استحقاق الانسان بالنسبة
الى الخطايا هو كلاشي * ولهذا صرخت ذلك الصراخ الاول
المرعب * وبعد ذلك رايت ان شرور الانسان تزان باحتراسٍ
عظيم * واما افعالهُ الصالحة فتعتبر قليلاً * ولذلك قلت الكلام
الثاني * واذ ظهر ليّ ما فعلته من الخير كلاشي * قلت الكلام
الثالث لتبرير نفسي * ولان استحقاق الام السيد المسيح رجح
كفة الميزان التي وضعت فيها اعمالي الصالحة * فحكم ليّ حالاً
بالنجاة والخلاص * ولهذا قلت انه الان قد صار حسناً * قال
هذا وتوفي مسلماً روحه بيد خالقها *

وقد يوجد للخطاة منظر اخر مرعب جداً عند انتهاء هذه الحيوة *
وهو اطلاعهم على جسامة المواهب الالهيّة وعدم وفايهم
عنها وكفرانهم بالجميل * وقد اشار الي ذلك دانيال النبي بقولهِ
انه يخرج من الديان نهر ملتهب * فبلفظة نهر يشير الى كثرة
الحسنات الالهيّة التي يفيض الله بها ذاته ويشركنا في خيراته
وبقولهِ ان هذا النهر العظيم يكون في ذلك اليوم من نار * يدل
على حدة الصرامة التي بها يطلب الله الوفا عن هذه العطايا *
وعلي وضوح مبلغ هذا الدين لمعرفتنا * وعلي اندهاشنا وخجلنا
العتيد من عدم اعتبارنا هذه الحسنات ومكافاتنا الجود الالهي

بالخيانة

بالخيانة * وحقًا انه ليعترى الخطاة الغشي من افراط الخزى والخوف اللذين يلمان بهم عند نظرهم سمو جلال الخيرات التي من الله عليهم بها * وانه تعالي لم يكن قادرًا ان يفعل لاجلهم اعظم من ذلك * وانهم لم ينتفعوا من ذلك اصلاً * فتامل الان هذه العطايا الالهيّة مفصلاً * فالعطيّة الاولي هي الخلقة التي بها منحنا الله الوجود * وقد اشار اليها سيدنا يسوع المسيح بقوله عن رب البيت الذى غرس كرمًا * فما الذى كان يمكن ان يصنع الله في ذلك اكثر من الذى صنع * لانه جل سخاوه منحك بهذا الاحسان كلما انت عليه نظرًا الى الجسد والنفس * فلو انك تحتاج يدًا واحدة لكنت تشكر فضل من يعطيكها * فكيف لاتشكر فضل الله الذى خولك يدين ورجلين وقلبًا ونفسًا وكلما انت حاصل عليه * فما ذا كنت قبل ان يبدعك فقد كنت لاشي * والان انت حاصل علي كون لايوجد افضل منه في العالم العنصرى * قالت الفلاسفة ان ما بين الوجود وعدمه بعدًا غير متناهٍ * فانت اذًا ملتزمًا لله علي نوع غير متناهٍ لا لانه خولك كونًا شريفًا فقط * بل لانه منحك اياه بمحبة غير متناهية * مميزًا اياك ومفضلك علي كثيرين لايحصى عددهم قد كان قادرًا ان يخلقهم * فاهملهم وقدمك عليهم خلوًا من ان يحثه علي ذلك استحقاقك * ولم يكتف تعالي بذلك

اى في انه خلقك ومنحك هذا الكون الشريف * بل انه خلقك لسعادة فايقة الطبيعة * وجعل لطبيعتك غاية لايمكن ان يوجد اعظم منها وهي الحظوة بخالقك الي الابد * حتي انه من المحال ان توجد خليقة تسموك قدرًا وشرفًا نظرًا الي هذه الغاية السامية فما الذى كان يمكن ان يفعله الله لاجلك افضل من ذلك * حقًا انه من اجل هذه العطيّة فقط كان يجب عليك الّا تحرك يدك ولا طرفك الّا من اجل الله وحده * لان الذى يغرس شجرة لهُ حق علي كل اثمارها * فكم بالحرى الله الذى خلقك لهُ حق علي كل افعالك التي هي ثمار الانسان *

الّا ان هذه العطية التي هي موهبة الوجود * فانها وان كانت عظيمة جدًا فليست هي باعظم من الموهبة الثانية التي هي حفظ الوجود الموهبة التي بها حفظ الله حياتك حتي الان واحتملك ولم يزجك في جهنم كما استحققت ذلك الف مرة بسبب خطاياك * انظر كم من الناس لم يحفظهم الله في هذه الحيوة * ولم يحتملهم بعد ارتكابهم الخطية مرة واحدة لكنه طرحهم في دركات الجحيم * ولو نال بعضهم ما نلت انت من الغفران لاظهروا احسني الوفا والشكر لله افضل منك * فانظر كم من الملايكة قد طرد الله حالًا من السما بعد خطيتهم الاولي * فانتج من هذا انك لملتزم لله لاجل حفظه اياك اكثر مما انت ملتزم لهُ لاجل تكوينك * لانه

مع انك عدوه تعالي قد حفظ حياتك واحتملك * نعم انك لم تكن تستحق ان يخلقك * الا انك لم تكن فعلت شيئا تستحق من اجله ان يمسك عنك هذا الاحسان * اما الان فقد استحققت مرات كثيرة ان يعدمك هذا الوجود ويسلب منك هذا الاحسان * غير ان الاحسان الثالث احسان التجسد الالهي * يسمو على هذين الاحسانين المتقدم ذكرهما سموا لايحد * ويشير الى ذلك السيد المسيح بقوله ان رب الكرم ارسل اليه ابنه * فهل كان ممكنا ان يفعل الله لاجل خلاصك * اكثر من ان يرسل الي العالم ابنه الوحيد ليصير انسانا * لعمري ان قدرة يد الله الضابطة الكل لاتستطيع ان تصنع لاجلك افضل من هذا * فاعتبر انه تعالي لم يفعل لاجل المليكة ما قد فعل لاجلك * فكيف تدع ان تحبه السارافيم اكثر مما تحبه انت * تامل ايضا انه تعالي كان يقدر ان يفديك بصيرورته ملاكا ومجرد صلاته * الا انه احب ان يصير من اجلك انسانا ليلا يعدم طبيعتك هذا الشرف الوسيم وقد ذهب قوم من العلما اللاهوتيين الي ان سبب سقوط المليكة هو لانهم ابوا ان يخضعوا لمن كان ادني منهم نظرا الي الطبيعة * وذلك اذ كشف الله لهم انهم عتيدون ان يلتزموا بالسجود لانسان يكون الها معا ويتسلط على جميع مراتبهم * فان كان هذا الراى محقا فتامل كم تكون

ملتزما

ملتزماً لله لاجل هذا الاحسان العظيم الذى به احب ان يصير
انساناً لاجلك ليلا تهلك * مع ان احسانه هذا كان عتيداً ان
يصير سبب هلاك جميع اوليك المليكة الافضل منك طبعاً *
اعتبر انه بهذا الاحسان انقدك من الخطيّة وانتشلك من الجحيم
حينما كنت عادماً كل عون بشرى ايساً بالكليّة * تامل انه
تعالي رفعك الى نعمته وميراث ملكوته * وانظر كيف تمم هذا
الاحسان الجسيم فتممه بمحبة لاتحد وكلفة لاتقدر لانه كما قال
الرسول اختاران يتلاشى لكى يرفعك * وذلك باتخاذه طبيعتك
اختيارياً خلواً من اضطرار * ولكن لاجل هذا السبب فقط *
وهو لكى يكللك باكرام لم يمنحه للمليكة * فانظر هل استطاع
الله ان يصنع لاجلك افضل مما صنع * وهل كنت تقدر انت
ان تفعل ضد اشر مما فعلت *

وتشبه هذه العطيّة العطيّة الرابعة * وهى موهبة الافتدا الذى
افتدانا به السيد المسيح بالامه وموته * وقد اخبرنا عن ذلك قبل
موته قايلاً * ان الابن المرسل من رب الكرم قتله الكرامون *
فهل عاد يمكن لابن الله ان يفعل لاجلك اكثر من انه يموت
ويهراق دمه الزكى لاجل خلاصك * مع ان هذا لم يكن ضرورياً
لخلاصك * نعم انه كان ينبغى ان يصير الله انساناً او ملاكاً
لكى يفتديك بكلما تقتضيه صرامة العدل * الا انه لم يكن

ضرورياً

ضروريًا ان يتالم ويموت * والحال انه اذ اختار ان يتالم *
لم يرتضِ ان يتالم كيفما اتفق * لكنه اراد ان يتالم باغراط هذا حد
حتي انه اتضح جليًا انه لايمكن ان يوجد علي الارض اعظم
منه * فمثل بازاء عينيك سيدنا يسوع المسيح مصلوبًا علي جبل
الجلجلة * وانظر هل يمكن ان يهان احد اكثر مما هو حاصل
بهِ من الهوان * لانه تعالي صلب ما بين لصين بعد ان حكم عليهِ
تعالي انه رجل مفتن عاصٍ علي قيصر * مبتدع تعليمًا مخالفًا *
والحال ان هذين الاثمين اللذين نسبا كذبًا للسيد المسيح * من
شانهما ان يشينا عرض المتلوب بهما اكثر مما تشينه بقيّة
الاثام * لانهما يصيران مهانًا محتقرًا ليس المتلوب بهما فقط * بل
نسله ايضًا جيلًا فجيلًا * ثم تامل حال فقن في حين موتهِ * فانه
اذ كان متردّدًا علي الارض لم يكن لهُ ما يسند اليهِ راسه * الّا
انه كان مترديًا باثوابٍ لستر جسده * اما في حين الامهِ وموتهِ
فترك عريانًا ولم ينل نقطة ما لاطفا حرارة عطشهِ * تامل شدة
اوجاع موتهِ فمن هامتهِ حتي قدميهِ لم يوجد فيهِ موضع خاليًا
من الالام المميتة * لاحظ يديهِ ورجليهِ مثقوبة بمسامير جافية
وراسه مكللًا بالشوك * فتجد في الامهِ تعالى كل شي مفرطًا
قد فعلته من اجلك محبته اياك المفرطة * التي احبت ان تفعل
من اجلك كل ما امكنها ان تفعله * فتامل الان ما الذى يجب

عليك

عليك ان تفعله انت وتحمله حبًا لابن الله الذى اقتبل مثل هذه الالام من اجلك * ولاجلك صنع كل ما كان قادرًا عليه وهو القادر على كل ما يريد *

ثم زد على هذه الاحسانات جميعها العطية الخامسة وهى الاحسان الالهى الفايق الذى به منحك الله تعالي ذاته ماكلاً ومشربًا في سر القربان المقدس * ولعمرى انه يتبين ان الاقانيم الالهية الثلثة قد سعت بطريق الغيرة في حب الانسان لان الاب الازلىّ بتسليمه ابنه الوحيد للموت حبًا بالبشر عمل مالم يكن ممكنًا ان يوجد اعظم منه * وها هوذا ابن الله قد فعل ما يفوق علي ذلك برسمه السر الاقدس الذى به بلغت محبته الي اقصى حدودها * وانتهت علي نوع ما حسنائه الالهية الى غاية كمالها * من حيث انه تعالي بهذا الاحسان يهبنا ذاته ويدخل الي قلبنا لكى يجتذب محبتنا * فالذى لا يحبه تعالي لاجل هذا الاحسان فكم تكون دينونته * فلذلك حسنًا قد قال الرسول الالهى * ان من يجاسر على ان يتناول القربان المقدس بغير استحقاق * فانه ياكل دينونة الله ويشربها * اى انه يبتلع كاس رجز غضب الديان المرهوب *

فبماذا يجيب الخاطى حينما يحاسب عن جميع هذه الحسنات * ولعمرى ان القاتل مثلاً اذا ما حضر موت انسان شرير حكم

عليه

عليه بالموت * فيتداخله الخوف من ان يقبض عليه ايضاً
ويحكم عليه هكذا * فكيف لايخاف من هو سبب موت الله *
وبماذا يعتذر حينما يشتكى منه وعليه بهذا الاثم الجسيم * لان
السيد المسيح كما قال الذهبي فمه يخاطبه هكذا * انني حينما لم
تكن في الوجود خلقتك وسلطتك علي كل ما يوجد علي الارض مما
خلق * ومن اجلك ابدعت السما والجو والبحر والارض وجميع ما في
العالم * واما انت فقد اهنتني وعاملتني كاني احقر الاشيا كلها
وادنى من الشيطان نفسه * ومع هذا فقد ضاعفت احساناتي
الاولي اليك باحساناتٍ اخرى جديدة * ومن اجلك اخترت انا
الاله والرب والسيد ان اصير عبداً واسيراً * وقد لطمت وبصق
علي وجهي كاسير مجرم * وقد ارتضيت بالموت موت الصليب
لكي انقذك من الموت * وبعد هذا جميعه فقد صرت لك
شفيعاً في السما * ومنحتك الروح القدس * ودعوتك الي الملك
السماوي * واحببت ان اكون لك راساً وعروساً * وثوباً
ومسكناً * وماكلاً ومشرباً * وراعياً واخاً * واخترتك
الى ميراث المجد الابدي * وانتشلتك من ظلام الموت الى
نور حيوة الابد * فاذ يورد لنا السيد المسيح هكذا مفعولات
محبته هذه المفرطة * فباي جواب نجيبه * وبماذا نعتذر *
حقاً انه ليشملنا حينيذٍ الخزي المميت من عدم وفائنا * ومن

كونها

كونا قد منحنا الشيطان سببًا لان يستهزى بمخلصنا قايلاً
بخوه تعالي هكذا * انت قد خلقت هذا الانسان ولاجلهِ صرت
بشرًا وقضيت حياتك علي الارض في الاتعاب * ولاجلهِ مت
بشدة الالام والاوجاع * اما انا فبخلاف ذلك لم افعل لاجلهِ شيًا
اصلاً * بل لم ازل راغبًا لهُ كل يوم الف جهنم * ولشدة بغضي لهُ
كنت اريد ان اشرب دمه * ومع هذا كله فقد افرغ جهد
كله في ان يرضيني ولم يفتكر في رضاك اصلاً * انت هيات
لهُ المجد الابدى اجرًا وثوابًا * وانا قصدت ان اعذبه في لجة
جهنم * ومع هذا فقد خدمني بامانة مجانًا * انت اعددت لهُ
اجرًا عظيمًا * وها هو قد كافاك بالخيانة * فلو كنت انا خلقته
وفديته لكنت عددت ذلك احتقارًا ليّ * فالان اذ قد فضلني
عليك واختار ان يكون ليّ افضل من ان يكون لك * فيجب ان
يكون ليّ لانه دفع اليّ نفسه مرات كثيرة وعلي انواع مختلفة *
ثم ان الحساب الاخير لا يصير عن العطايا العامة فقط * بل عن
الخاصة ايضًا * وذلك كالامثلة الصالحة التي راياها *
والمذاكرات الحميدة التي سمعناها * والالهامات الالهية التي شعرنا
بها * فلنرتعدن اذًا عند ذكرنا هذا الحساب الصارم الدقيق *
الذى من اجلهِ كان الانبا تاليلاوس يرعب ويبكي بكاءً مرًا * واذ
سيل عن سبب ذلك قال هكذا * اننا قد اعطينا هذا الزمان

فان

فان تهاونا نحن به فيكون الحساب عظيماً ويطلب منا كثيراً *

الفصل الخامس

في ان الله يحكم بصرامة شديدة في هذه الحيوة ايضاً

انه لكي نفهم جيداً صرامة حكم السيد المسيح على الخاطي في انتهاهذه الحيوة * فلنورد شيئاً قليلاً من صرامة حكمه تعالي عليه في هذه الحيوة نفسها حيث يعامله برحمةٍ * لنستنتج من ذلك ماذا يكون حكمه تعالي عليه حينما يكون ملك العدل فقط * فقد خاطب الله شعبه بفم حزقيال نبيه قايلاً هكذا * اني عن قريب اسكب عليك غضبي * واتم فيك رجزي * واحكم عليك بحسب طرقك * واضع عليك جميع اثامك * ولعمري انه ليس بعجبٍ ان يصيب الخطاة الذين تباعدوا عن الله وتركوه مثل هذا المصاب * اذ انه تعالي يعامل بهذه الصرامة نفسها الذين يغارون لمجده * فلننظرن كيف يصور لنا زخريا النبي هذه الدينونة الالهيّة في شخص يشوع بن يوزاداق الحبر الاعظم * الذي كان عايشاً في ذلك العصر * فالنبي راى الحبر الاعظم ماثلاً بازاء ملاك الرب * والشيطان قايماً من عن يمينه يقاومه * وقد ظهر الحبر المذكور في هذه الدينونة كجمر جهنمي ملتهب متدنس

لاثواب بالدخان * لان الكتاب المقدس يدعوه قبساً منشولاً
من النار باثواب مدنسة * فان كان مثل هذا الحبر الراغب
مجد الله بغيرة مضطرمة نجل امام ملاك الرب وظهر هكذا *
فترى كيف يظهر الانسان الخاطى امام الله الذى احتقرنا موسه *
وهذا المعني قد اوضحه السيد المسيح في سفر الرويا حيث حكم
علي اساقفة اسيا السبعة وهم احيا * وقد كان منهم قديسون
معتبرون معظمون كالقديس تيموثاوس تلميذ الرسول بولس
والقديس بوليكربوس * والقديس كوادراتوس * والقديس
كاربوس * والقديس ساغاريوس * فلننظر اولاً كيف كان
سيدنا يسوع المسيح جالساً حينما دانهم وباية صرامة حكم
عليهم * فيقول الكتاب المقدس اولاً انه تعالي كان جالساً فيما
بين منارات منتقة ينبثق منها نور عظيم * وكان في يد سبعة
كواكب نيرة جداً جداً * ووجهه يلمع كالشمس في نصف
النهار * وبصورة كان يظهر ادنى شي مما حولهُ * وعيناه كانتا
متقدتين كاللهيب * فهذه جميعها تشير الى دقة الحساب الالهى
وجلى ايضاح جميع الخطايا * وانه تعالي لايمكن ان يخفى عليه
شي * ثم انه يقول ثانياً وكان في فمهِ سيف ذو حدين * وبهذا
يشير الى ان فعله يكون اكثر صرامة من قولهِ * ثم يقول
اخيراً انه عز وجل قد كان في كل اعراض هذه الرويا مرهباً

بهذا

بهذا المقدار * حتي ان القديس يوحنا صاحب الجليان مع انه
لم يكن من جملة الملائين * ارتعب فرقاً وسقط علي الارض مغشياً
والحال انه ان كان التلميذ الحبيب الذى لم يكن الله مسخطاً عليه
اذ شاهد غضبه تعالي على اناسٍ اخرين قد كان يريد سبحانه
ان يعاملهم برحمة سقط علي الارض مغشياً * فماذا يكون
بعد هذه الحيوة حينما يظهر ابن الله تجاه الخاطى بكل رجز غضبه
خلواً من كل رجا رحمة * فحقاً انه لو امكن ان تموت الانفس
لماتت الف مرة عند مشاهدتها هذه الرويا المهيلة المرعبة *
فلننظرن ثانياً ما راته اعين السيد المسيح النارية لما فحص عن
اعمال الاساقفة المتقدم ذكرهم * الذين وان كان قد دعاهم
تعالي مليكة * الّا انه مع ذلك وجد فيهم اشياء كثيرة توجب
التوبيخ * وذلك ليتم قول ايوب الصديق ان الله وجد شراً
في مليكته * فمن ذا الذى كان يمكن ان يختلج في فكر ان
السيد المسيح ينتهر القديس تيموثاوس المحبوب والممدوح من
القديس بولس الرسول * وانه جل اسمه يتوعد بالطرد من
الكرسي الافسسي ان لم يتب ويصلح سيرته بالارتداد الى
نشاطه الاول * وانه تعالي يجد في القديس كاربوس اسقف
برغاموس وكذلك في اسقف تياتيرا ما يوجب التوبة * وان
اسقف سردس المشتهر اسمه بالقداسة يحك تقدس اسمه في

حال

حال خطيّة ممية * وان اسقف اللاذقيّة الذى لم يبكته ضميره
علي شي يدعوه رب المجد شقيًا وفقيرًا فاقدًا كل فضيلة واعمى
وعريانًا * فما اصدق ما قالهُ الحكيم ان الانسان لايعرف هل
هو مستحق المحبة او البغضة * ولهذا كان الملك والنبي داود
يطلب من الله ان ينقيه ويطهره من الخطايا المجهولة منه *
فيا ايها الرب القدوس والديان المرهوب * كيف لاتخافك الناس
لاجل خطاياهم المعروفة منهم * مع انه كان ينبغي ان يخافوا
جدًا من اجل خطاياهم الخفيّة عنهم * فالله اذًا يدين بتدقيق
هذا حق * حتي انه من سبعة اساقفة مشتهرين بالقداسة وجد
ستة غير بريين مما يوجب التوبيخ * اذ قد وجد في احدهم
التواني * وفي الاخر عدم الثبات في الخير * وفي الثالث الجبانة *
وفي الرابع الكسل * وفي الخامس الخوف والفزع الباطل *
وفي السادس الجهل وعدم الافراز * واثنان من هولاء قلما
يكون وجدا في حال الخطيّة المميتة * فان كان عينا الله وجدتا
زلات في مثل هولاء المليكة * فما الذى تجدانه فينا نحن
الخطاة *

وقد انتفع هولاء الاساقفة جدًا من علمهم بدينونتهم من الله *
لان الذين عرفنا اسماهم من جملتهم * قد تحقق انهم توفوا
قديسين وحررت اسماوهم في سنكسار الكنيسة * فهكذا

يفيدنا

يفيدنا جدًّا علمنا باننا سندان بهذه الصرامة * وتصدنا معرفتنا
هذه عن ان ناسي الي المحسن الينا بحسنات لاحد لعددها ولا
تقدير لعظمتها * وعن ان نباشر خدمته تعالي بتوانٍ وكسل *
لكن نمارس افعالاً صالحة مملوة كمالاً * فلا يسمع احدنا ما قيل
لاحد هولا الاساقفة ليتك باردًا اوحارًا * لكن لانك فاتر لا بارد
ولا حار فسابتدي ان اتقاءك من فمي * فلنحذرنّ من ان نصير
سببًا للسيد المسيح لان يتقاءنا * اي ان يبغضنا ويرذلنا *
ولننظر ماهية محبتنا هل هي مملوة * لانها لا تكون كذا ان كنا
نحب هذا ولا نحب ذاك * اذا اشتهينا خيرًا للمحسن الينا وبغضنا
من اضربنا * ان كنا نصنع الخير ولا نريد ان نحتمل الشر *
فانظر هل تحتمل ثقل القريب كانه ثقلك * لعلك تفضل رايك
ومرغوبك علي راى الغير ومرغوبه * اعتبر هل ان محبتك لله
تحتمل الاشيا المستصعبة اختيارًا * اوانك ربما تحبه تعالي بالكلام
لا بالافعال * تامل هل اتضاعك مملو هو * وذلك ليس بالهرب
من الكرامات الزمنيّة فقط * بل بابتغا الاهانات وطلبها ايضًا
لا بعدم تفضيل ذاتك على احدٍ فقط * لكن بوضع نفسك تحت
الكل ايضًا * انظر هل ان صبرك هو مملو * اعني هل تحتمل
ما يرد عليك من هذه الجهة او من تلك علي حدٍ سوى * هل
تحتمل ذلك كمن لا يشعر بصعوبة * افتكر ايضًا هل طاعتك مملوة

هي * لانك ربما تطيع في الاشيا الخفيفة السهلة لا فيما تجد ثقيلاً وعسرًا * اوانك تطيع من هو نظيرك لا من هو دونك * فتلاحظ فيه كونه انسانًا لا كونه نايب الله * ومن ثم تطيع قهرًا لا بانصباب القلب * فاعتبرن قولهُ تعالى لاسقف سارديس اذكر كيف اتخذت * فلا يقول لك الرب اذكر ما اتخذته وقبلته بل كيف اتخذته * لاننا لسنا بملتزمين لله بجوهر الحسنات الالهيّة فقط * لكن بنوع منحها ايضًا واعراضها * فاذ قد كلف الله قدرته الضابطة الكل لاجل خيرك * فابذل انت ايضًا كل قوتك في تمجيد تعالى وخدمته *

الفصل السادس

في انتهاء الزمان مطلقًا

انه ماعدا انتهاء الزمان الخصوصي زمان حيوة كل واحد منا * فانه سينتهي كل زمان على الاطلاق ايضًا * وكل شي سينتهي معًا * فانظر اذًا كم هي باطلة الاشيا التي بها تريد الناس ان يديموا ذكرهم بعد مماتهم * وذلك كابتنا المنازل الملوكيّة وماشاكل ذلك * والحال انه ستهدم المدن ومنازل الملوك * وينتهي كل شي * لان كل زمني ينتهي * فما اكثر ما كان يرغب المجد العالمي شيرشرون الخطيب الفصيح ومعلم الخطبا وامامهم *

فهذا

فهذا كتب رسالة مطنبة الي احد محبيه مورخاً واقعة كان
هو ابتدعها ليشرف بذلك اسمه ويديم ذكر بتاريخ ما فعله
الّا انه اذ تامل بعد ذلك ان الزمان عتيد ان ينتهي مع العالم *
علم حينيذٍ وتحقق انه لامجد ولاذكر دايم في العالم * ولذلك قال انه
لاجل حريق الارض الذى لابد ان يكون في الزمن المعين * لايمكننا
ان نكتسب مجداً لاابدياً ولامديداً * قال التلميذ الحبيب في جليانه
انه ابصر ملكاً قوياً جداً منحدراً من السّما * ملتحفاً بسحابة
ومكللاً بقوس قزح * ووجهه كان منيراً كالشمس * ورجلاه
كعمودى نار * فوضع احديهما علي البحر والاخرى على البر *
وصرخ بصوتٍ عظيم مرهب جداً كاسد زائر * فارتجفت الارض
بسبعة رعودٍ هايلة * وللوقت رفع ذلك الملك العظيم يده الي
السّما * فان قلت وماهو سبب هذه الامور المرهبة والحوادث
المرعبة وماهو مدلولها * اجبتك هو ان الله اراد ان ينادى
هكذا بانتهاء الزمان * ليكون اعتقادنا بذلك وثيقاً * فحلف ذلك
الملك العظيم بالحيّ الى دهر الدهرين * الذى خلق السّما ومافيه
والارض ومافيها * والبحر ومافيه * انه لايكون زمن فيما بعد
فهل عاد يمكن ان تتوكد حقيقة انتهاء الزمن * اكثر من
ان ملاكاً سماوياً اثبتها لنا بقسم على هذا النحو العظيم
المرهوب *

ثم ان النبوات التي وردت عن انتهاء الزمان هي مخيفة مرعبة بهذا المقدار * حتي انه لولم ينطق بها الروح القدس لما امكن ان يصدقها بشر * ومن ثم بعد ان اورد السيد المسيح بعضاً منها لتلاميذه * عقب قولهُ بشكل قسم حسب عادته تعالي اذ كان يقصد ان يثبت امورًا باهظة فقال * الحق اقول لكم ان هذا الجيل لايزول حتي يكون هذا كله * فاذ قد تقرر اذًا وتحقق ان الذكر البشري ولو مهما كان عظيماً قوياً سينتهي لامحالة مع انتهاء الجنس البشري نفسهِ * فلنبذل جهدنا في ان نثبت في ذكرٍ ابدي ذكر من ليس لهُ انتهاء * قال النبي ان ذكر الصديق يكون دايماً ابدياً * اي ان الله الازليّ الابدي يذكر الى الابد * اما ذكر الناس لنا فيزول بزوالهم *

الفصل السابع

في كيف تتغير العناصر والسما عند انتهاء الزمان

فهات الان لنعتبرنّ كيف ينتهي العالم كله * علي انه من نوع زوالهِ المرعب ينتج ان الناس قد تصرفت بالاشيا العالميّة تصرفاً رديًا * لانه لولا كثرة شرور العالم لما كان انتهاؤه بهذا المقدار شقيًا * قال القديس اكليمنضوس الحبر الروماني ناقلاً

ماكان تعلمه من القديس بطرس الرسول * ان الله عين من
الازل يوما يواجه فيه جيش العذابات مع جيش الاثام * وهذا
اليوم يسمى في الكتاب المقدس * يوم الرب * فان كان خوف
هذا اليوم كحسب كثرة الخطايا وعظمتها * فلست اتعجب مما
تقولهُ الكتب المقدسة والابا القديسون عن افراط هولهِ *
لكن كما يحدث في الحروب البشرية وهو انه قبل ان يصطدم
الجيشان ويلتحما بشدة الطعن والضرب * يخرج من الطرفين
بعض من الجنود فتحدث وقايع جزية قبل ابتدا الحرب * هكذا
في ذلك اليوم الرهيب الذى فيه يلتقى جيش العذابات مع
جيش الاثام للحرب * يبتدى الله اولاً بارسال بلايا متنوعة
شيأ فشيأ بمنزلة جماعة من العسكر يتقدمون المعركة بحربٍ
وجيزة وهذا ما اشار اليه الرسول يوحنا في جليانهِ حيث يقول * انه
راى بعضاً من الجنود يخرجون الي الميدان وهم راكبون علي خيل
مختلفة الالوان * بيض وحمر وسود وخضر * فيتقدم الله ويرسل
تارة جوعاً * وتارة طاعوناً * وتارة حرباً * وتارة طوفاناً *
وتارة زلازل * وتارة قحطاً وغير ذلك * والحال ان كان الناس
يتضيقون جداً من قبل هذه البلايا * فماذا يكون اذا حال
الخطاه حينما يفرغ العدل الالهى كل قدرته * وتقوم كل خليقة
ضدهم وتحاربهم * ويكون قايد هذا الجيش غيرة العدل الالهى

لانهُ

لانه كما قال الحكيم تاخذ حينيذٍ غيرة الرب سلاحًا * ويمنطق
الخليقة بسلاح الانتقام لكى ينتقم من اعدايه * والعالم يحارب
معه الجهال اى الخطاة *

ولعمرى انه ليس هو بمبالغةٍ قول الانجيل المقدس ان الناس
يختفون لافراط خوفهم مما ياتى علي جميع المسكونة * لانه كما
ان الانسان الملقب من العلما بمختصر العالم او عالمًا صغيرًا * اذا
قرب وقت موته تختبط فيه المواد * وتظلم حواسه التي هى كالنيرات
والنجوم * ويضطرب العقل الذى هو بمنزلة القوى السّماوية *
فهكذا واعظم من ذلك يصير في العالم الكبير اعني المسكونة
كلها * لان الشمس تستحيل الي ظلام والقمر الي دم * والنجوم
تتساقط * علي انه اذ يشعر العالم بان انهدامه قد قرب وموته
قد حضر فيضطرب ويتحرك بضجيج عظيم قبل ان يخل * فان
كان القمر والشمس وبقيّة الاجرام السّماوية المظنون بها
انها غير قابلة الفساد * هى عتيدة ان تتغير وتظلم بهذا المقدار *
فما الذى يجرى بالعناصر المتعلقة بها والسريعة التغيير طبعًا
فكيف يتحرك الهوا من قبل الزوابع * والرياح الزعازع *
وازدحام البروق اللوامع * وانقضاض الصواعق * وكرور
الرعود السوابق * كيف ترتجف الارض من الزلازل وتنفلق
من كل ناحية انفلاقًا مذهلًا منفكًا * وتبرز من جوفها جبال

نار ملتهبة فتبتلع المدن وتتقوض القلاع الشامخة وتندك
دكًا دكًا * ومن تراه يقدر يصف شدة زجير البحر وزيره
فتراكم حينيذٍ امواجه متعالية حتي توشك ان تغرق
الارض كلها * وقد تغرق الاكثر منها * ثم ان البحر المحيط
يزبد ويهيج بهذا المقدار * حتي تكاد الناس تموت من الخوف
ولهذا قال سيدنا يسوع المسيح * ويكون في الارض ضيق
الامم من اختلاط صوت البحر وامواجه *
فكيف يكون حينيذٍ حال البشر اى في حين هذا الاضطراب
العظيم اضطراب الارض وتبلبلها * فانهم ينقلبون باهتين
كالموتى * وكل يشخص في رفيقه وينظرهم هذا المتردد الي
صورهم صور الموت * يتضاعف خوفهم وفزعهم * فيبطل
حينيذٍ الاخذ والعطا * وتخلو الشوارع والمحاكم * فلا يوجد
وقتيذٍ من يرغب الكرامات العالميّة واللذات اللحمية والكنوز
الارضية * ولا من يسكن في القصور والمنازل الملوكيّة *
ولا من يفتكر في المآكل والمشارب * لكن الجميع يفتكرون
في ان يجدوا لهم ملجا ينجون به من الطوفان والزلازل والرعود
والصواعق * الا انهم باطلاً يطلبون حينيذٍ مهربًا وملجا لانه
اين حينيذٍ المفر واين المهرب * من ذا الذى يفتخر حينيذٍ
بشجاعته وعقله * من يتذكر البهاء والجمال وما يضاهى ذلك من

الاشيا المعتبرة الان * لانه ان كان حينيذٍ ينسي كل احد ما يخصه
فكيف يذكر ما يخص غيره * من يفتكر حينيذٍ في بطش
اسكندر الملك وعلم اريسطو * ام حكمة اعظم حكما العالم *
فيدفن وقتيذٍ ذكرهم ويضمحل مع العالم الى الابد * تامل
حال النوتيّة حين اشرافهم على الغرق * فتراهم قد سلبت
عقولهم من قبل هول البحر ونظرهم اختباط امواجه * فيصرخون
ويندرون ويصلون * وقد يكون عجيبًا حينيذٍ تجردهم من
محبة الخيرات الدنيوية * وباجتهاد كلّي واسراع عجيب
يلقون الوسق في البحر * فكيف اذًا تكون حال الناس في
ذلك اليوم لاسيما الخطاة الذين بسببهم تحدث هذه الاشيا
المرعبة *

فان شيت ان تفهم عظم الخوف العتيد ان يستولي على
الجميع حينما يتسلح العالم مع الله ضد الخطاة * فاعتبر ما حدث
من قبل بعض تغييرات خصوصيّة طبيعيّة * فتعلم من ذلك ما
ارهب ما يكون منظر مجمل جميع البلايا * خبرنا الكاردينال
يعقوب البادواني * انه في عصر اعني في سنة الف وستماية
وست وخمسين * في اليوم الخامس من شهر كانون الاول *
تزلزلت مملكة نابولي مدة ثلث ساعات قبل الصبح * وفتحت
الارض فاها وابتلعت قصورًا وقلاعًا عظيمة * وقتلت من

الناس نحو سبعين الفاً * فاى شي اذاً ابقى ثابتاً عند البشر ان
كان الارض التي يدوسونها لاثبات لها * واين عادوا يجدون
شياً راسخاً بعد ان ظهر الشي الوحيد الذى كان في العالم
راسخاً يتزعزع هكذا * فمن اين حينيذٍ لايانينا الموت اذا كان
يخرج من تحت ارجلنا * وقد خبرنا افاغريوس المورخ انه في
ليلة عرس موريكيوس الملك * حدثت في انطاكية زلزلة
عظيمة هدمت اكثر منازل المدينة * وقتل تحت ردمها نحو
سبعين الفاً * ويذكر ايضاً بلينيوس * انه في زمن طيباريوس
قيصر انهدمت بزلزلة واحدة اثنتا عشرة مدينة كبرى وقد اخبر
نيكيفوروس انه في زمن تاودوسيوس الملك حدثت زلزلة
عظيمة متسعة اتصلت من الاسكندرية الي انطاكية * والي
ممالك اخر شرقاً وغرباً * واستقامت ثلثة اشهر حتي خيل ان
العالم بلغ انتهاءه * وقد يجب ان نورد ما كتبه القديس
ايرونيموس والمعلم اميانوس الذى شاهد الامر عياناً * وهو
انه بعد موت الملك يوليانوس العاصى * حدثت زلزلة عظيمة
ارتجفت منها الارض كلها * وتجاوز البحر حدوده بهذا المقدار
حتي ظن الناس ان قد عاد الطوفان ثانية وقد حضر تلاشي
العالم * لان السفن ارتفعت فوق اعلي منازل المدينة
الاسكندرية * بل فوق الجبال ايضاً * ولما سكن البحر

ورجع الي حدوده * استمرت تلك السفن علي اسطحة المدينة
المذكورة كما يشهد نيكيفورس المورخ اليوناني * خبرنا ايضا
تريتميوس وغيرن من المورخين * انه في سنة الف ومايتين
وثماني عشر * هاج البحر ودخل الي مدينة فريسيا * فمات
من الناس اكثر من مية الف نفر * ومرة اخرى دخل البحر
المدينة المذكورة * وذلك في سنة الف ومايتين وسبع وثمانين
فغرق ثمانين الف نفس * وقد ذكر سوريوس المورخ *
انه في سنة الف وخمسماية وتسع * في اليوم الرابع عشر من
شهر ايلول * هاج البحر ما بين القسطنطينية وبارا بهذا المقدار
حتي انه ارتفع فوق الاسوار * واهلك اناسا كثيرين جدا *
فماذا يكون اذا حينما يامر رب العالمين المطلق جميع العناصر بان
تثب علي الخطاة * وحين تتسلح كل الخليقة لتنتقم لخالقها من
الاثمة الذين كافوا حسناته بالخيانة والكفران *
ولعمري ان الهوا الذي هو الطف العناصر والذها * الذي به
نسمة حياتنا وتنفسنا * فهذا لما يطلق الله له العنان يتخذ قوة من
الضعف هذا عظم مقدارها * حتي انه يقلب ويهدم كل ما يجد
امامه * ويستاصل الاشجار المتعمقة شلوشها ويجذفها الي
مسافة بعيدة * وقد ذكر سوريوس المورخ انه في سنة
الف وخمسماية وسبع في اليوم الثامن والعشرين من ايار *

هاجت

هاجت في مملكة النمسا ريح عاصفة بهذا المقدار * حتي انها زعزعت البيوت * وباعدت بين سطحٍ وسطحٍ * وخبرنا مورخ اخر انه شاهد بعينيه في عصر الملك اريغوس السادس خشاباً ضخمة جدًا متطايرة في الجو نحو ميل * وذلك بشدة الريح لاغير * فليس اذًا لنا ان نتعجب مما ذكر يوسيفوس المورخ اليهودى واوسابيوس القيصرى * وهو ان برج بابل اعجوبة العالم هدمه الله بقوة الريح لاغير * وماذا نقول ايضاً عن مثل هذه الحوادث المسببة عن هذا العنصر اللطيف * فقد عرفنا ان الهوا هو الذى حمل البرد الذى قتل انعام مصر * وفي بلاد فلسطين وقع برد ثقيل كبير قتل من العموريين اناساً لا يحصى عددهم * وقد ذكر ايضاً انه في سنة الف وخمسماية واربع وعشرين وقع في بلاد ايطاليا في مدينة كريمونا برد بقدر بيضة الدجاجة * وانه في سنة الف وخمسماية وسبع وثلثين * امطر الله علي مدينة بولونيا حجارة ثقل كل واحدة ينيف عن اربعة ارطال ونصف * وفي بلاد التيمن وقع برد بقدر جمجمة الانسان * وفي سنة ثلثماية وتسع وستين وقع برد على القسطنطينية مثل قطع الصخور * فلم يات اذًا حزقيال النبي باخبار واهية بقوله انه في انتها العالم تقع حجارة ثقيلة جدًا * ويقول صاحب الجليان ان ثقل كل حجر يوازى قناطير كثيرة * فالريح التي ترمى حجارة هذا

عظم مقدارها * ماذا يكون ضجيج الرعود الحادثة عنها *
خبرونا انه في بلاد سيتيا سمعت رعود مفزعة بهذا المقدار *
حتي مات من صوتها خلق كثير * فماذا يكون ضجيج العواصف
الاخيرة وشدة ارهابها حينما يريد الله ان يلاشي هذا العالم *
فجميع ما ذكرناه من هذه البلايا السالفة هو كلاشي او كابتداء
الحرب بالنسبة الى ما هو عتيد ان يلم بالخطاة حينما تحيط بهم
وتحاربهم كل خليقة * اى جميع العناصر منتقمة لله خالقها *
خبرنا القديس غريغوريوس الكبير * انه شاهد في رومية
في زمن الطاعون صواعق منقضة من السما تضرب الناس
وتهلكهم * فماذا يكون حال الناس حينما تمطر السما عليهم
قطعًا كالصخور من الكواكب * انه لقد ارتجف العالم وتحير
لما اظلمت الشمس سبعة عشر يومًا على زمن ايريني الملكة
وقسطنطين الملك * وحينما خطف ضو الشمس والقمر في زمن
اسباسيانوس الملك * فماذا يكون اذًا حينما تخفى الشمس
اشعتها والقمر ينقلب لونه الى دم * دليلًا علي انه قد حان
الزمن الذى تنهض فيه الخليقة لمحاربة الخطاة الذين احتقروا
خالقهم * فمن جهة تنهض الارض ضدهم بزلزالها كانها لم
تعد تطق ان تحملهم * ومن جهة اخرى تحدق بهم المياه
وتطلبهم حتي في منازلهم * واما الهوا فلا يدعهم ان يخرجوا

الى

الى الصحارى * ومن ثم لايكون امرًا عجيبًا طلب الخطاة
من الجبال ان تقع عليهم * ومن الاكام ان تخفيهم * ولعمرى
ان تصورهذه الاشيا بالعقل لاسهل من وصفها بالفم او بالقلم *
فتامل ان الخلايق التي هى الان خادمة لنا تكتيب وتحزن من
ان الخطاة يستخدمونها في احتقار خالقها * اما في انتهاالازمنة
فتلقى عنها نير الطاعة والخدمة وتنتقم منا لاجل استخدامنا اياها
ظلمًا واحتقارنا باريها * فتتغير حينيذٍ الطقوس وتختبط العناصر
وكل خليقة تخالف شريعة الذين خالفوا شرايع الله *
فلنوردنّ الان هذه البلايا المقدم ذكرها ونثبتها بشهادةٍ
افضل توكيدًا وايقانًا * فنقول ان القديس يوحنا الانجيليّ قدْ
ذكر في سفر الرويا * انه سيكون برد ونار ومطر دموى
يحرق ثلث المسكونة مع الشجر والعشب كلهِ * ولا تقف البليّة
عند هذه الحدود * لانه بعد ذلك يظهر حالاً جبل عظيم من نار
ويسقط في البحر * فيكون ثلث مياههِ دمًا * ويحترق ثلث مافيه
من المخلوقات وثلث ماعليهِ من السفن * ثم يسقط من السما نجم
عظيم من نار يلتهب كمصباح متقد * وينقسم الى شرارات
كثيرة * فيسقط في الينابيع والانهر * ويصير المياه لامرةً
كالاقسنتين فقط * بل انه يصيرها مميتة مهلكة ايضًا * فيموت
كل من يشرب منها * ثم بعد هذا يظهر ملاك فيضرب الشمس

والقمر

والقمر والنجوم فيذهب ثلث نورها * ومع جميع هذه البلايا *
يفتح فم الهاوية السفلى * فيصعد منها دخان تظلم منه الشمس
والهوا * ويخرج منه جراد كثير يغطى كل وجه الارض * لايضر
عشبا ولاما هو اخضر بل انما يحارب الخطاة اعلم الله في مدة
خمسة اشهر * لايبرح بها يعذبهم بلدغ انكى من لدغ العقارب
وليس لنا ان نستغرب ذلك * لانه قد زعم بعض من المعلمين
المعتبرين * ان الجراد المذكور يكون شياطين بصورة جراد *
وقد يضرب الله الخطاة في تلك الازمنة الاخيرة ببلايا اخر كثيرة *
لانه كما ان الله قبل ان اهلك المصريين في بحر القلزم وخلص
شعبه ضرب مصر بضربات شديدة مريعة كما ذكر في
سفر الخروج * هكذا قبل ان يغرق الخطاة في بحر النار
الجهنمية التي ستكون حينيذ ممتدة على وجه الارض وقبل ان
ينقد منها قديسيه * يتقدم فيضرب الارض بضربات اخوف
واعظم من ضربات مصر * بمقدار ما يكون العالم حينيذ
اشر من مصر * لانه تعالى سيضرب الارض بزلزال لم يرَ مثله *
فتهبط به جميع الجزاير في لجج البحر * وتتهدم الجبال وتندك
فتعود سهلا * وفيما بين كثرة الرعود المهيلة والصواعق المهلكة
تتساقط حجارة عظمى رجما على وجه الارض *
فتامل الان ماذا يكون شقا حال الخطاة بعد هذه الضربات

كلها حينما تظهر تلك النار الاكلة المذكورة في الكتاب
المقدس * التي تخدر من السما او تصعد من جهنم او تكون من
الموضعين معًا كما قال البرتوس الكبير * تلك النار التي تحرق
كل شي وتصير كل ما تمسه رمادًا * فماذا ينتفع به حينيذٍ
محبوا العالم من اوانيهم الذهبيّة والفضيّة واثوابهم الخزية *
ومنازلهم المزينة وقصورهم المشيدة * وبقيّة الاشيا المعتبرة
علي الارض * ماذا تفيدهم حينيذٍ اذ تحترق تجاه اعينهم * فلا
يعود احد وقتيذٍ يذكر في المدارس اريسطو ولا شيرشرون
ولا افلاطون ولا سينيكا ولا اسكندر * لان كل صيت يضمحل
وكل ذكر يتلاشي *
فان اردت الان ان تعلم شدة خوف تلك النار العتيدة ان تحرق
العالم كله * فاعتبر شدة الخوف التي تعترى الناس الان حينما
تتعلق النار في منازلهم * فكيف تظن انه كان ضجيج الناس
وعجيجهم في رومية العظمى * لما احترقت ستة ايام وست
ليال * واى بكاء وعويل كان في مدينة تروايا لما دفعت طعامًا
لنارٍ اكلة * واى صراخ وتولول حدث في صادوم وعامورة
وبقيّة الخمس المدن لما امطر الله عليهن نارًا وكبريتًا ملتهبًا
الي ان صرن رمادًا * وكيف كان حزن اهل اورشليم اذ
شاهدوا النار متعلقة بالهيكل الذى كان در المملكة والعجوبة

العالم * ولكى نقرب اكثر قربًا من دهورنا هذه فنقول * كيف
كان حال اهل مدينة يستوكلمو من مملكة سوا سياحينما
انحدرت علي المدينة المذكورة صاعقة احرقت اكثر
شعبها الذى كان عدده يفوق ستة عشر الفًا * واذ اراد
الاخرون ان ينجوا من النار بركوب السفن والهرب على البحر
غرقوا فيه جميعهم * فليعتبر كل منا حال شقا اولئك المساكين
حينما كانوا يبصرون النار تحرق منازلهم وجميع اموالهم *
ولم يمكنهم ان يخلصوا منها شيًا * وكان الرجل يسمع ولولة
امرأته وصراخ بنيه الذين احاطت النار بهم * ولا يجد سبيلًا
لانقادهم * وهكذا فليعتبر حال اولئك الذين هربوا من النار
والتجاوا الى مياه البحر بغاية الرعبة والخوف * كيف كانت
ضغطتهم وعويلهم بعد قليل اذ ابتدا البحر ان يبتلعهم
بتغريقه السفن التي ركبوها * فقس على هذا ضيق حريق
العالم العامر * لان الذين ينجون من طوفان البحر وهول الرعود
ورجم الصواعق وشدة الرياح العواصف وهدم الزلازل * يدركهم
الطوفان النارى الذى يحرق كل شيء وبه تنتهى حيوة البشر
وذكرهم *
ولعمرى انه من هذا الحريق العام حريق المسكونة كلها *
يمكننا ان نعرف جيدًا دناءة كل ما هو الان معتبر في هذا العالم

وان

وان ندرك ايضاً تفاقم عظمة الخطية * لان الله جلت قدوسيته يرسل هذه النار لتطهير الارض التي قد تدنست بخطايانا كما طهرها سابقاً بالما * ولا يخلص من هذه النار سوى الصديقين الذين يكونون حينئذٍ في الوجود * وذلك لكي يتضح ان هذه النار هي مفعول الخطيّة لاغير * وانه لا نجاة منها الاّ بالفضيلة والقداسة * وقد لحظ البرتوس الكبير حسن مناسبة العناصر التي قد عزم الله مرتين ان ينتهي بها العالم * فاستخدم في المرة الاولى المياه ضد نار الشهوة اللحمية المستولية على العالم * وفي المرة الثانية يستخدم النار ضد برودة المحبة العتيقة ان تحمد العالم في زمن شيخوخته * والحال كما انه في الطوفان الاول لم ينج احد غير نوح مع اهل بيته لاجل استحقاق عفتهم * هكذا في الطوفان الاخير لا تمس النار الصديقين المفعمين حباً لله *

وكما ان مياه الطوفان لم تهلك الذين كانوا ناجين من نار المحبة اللحمية * هكذا طوفان النار لم يمس من يكون مضطرماً بالمحبة الالهيّة

*

الفصل الثمانين

في السبب الذي من اجلهِ يجب ان ينتهي العالم على نوعٍ مرعب هكذا ثم تصير الدينونة العامة

انه لقد قال قولاً محققاً الانبا ديونيسيوس الكارتوسي * ان ارهب ما يكون في ذلك اليوم الاخير هو الحق العتيد ان يكشف ضد الخطاة * ولعمري ان اصوات الرعود والابجار وغير ذلك مما ذكرناه * لا يرعب الخاطي ويوله بمقدار ما يرتعب ويتالم حينما يرى ويتحقق كم كان يجب عليهِ ان يخدم الله * وكم قد حصل مذنباً لانه ابى عن خدمتهِ * ولهذا لاق جداً انه بعد الدينونة الخاصة التي تتم في حين موت كل واحدٍ * تصير دينونة اخرى عامة يحكم الله فيها على الجميع معاً * ويبرر جهاراً اعدلهُ نحو الهالكين والشياطين ايضاً * ولانه غالباً لا يموت مع الانسان ولا يزول كل ما يخصه كما لحظ القديس توما اللاهوتي * لكن يبقى بعد موتهِ جسمه واولاده وبعض افعالهِ ونموذجاتهِ وموضوعات عواطفهِ * فمن ثم يقتضي الصواب ان تدخل هذه كلها في دينونته العامة * لكي يعلم انه لا يلتزم ان يعطي حساباً عن حياتهِ فقط بل عن الاشيا التي تبقى بعد موتهِ ايضاً * فياما اعظم ما يكون حينئذٍ خجل المتكبرين

محبي الجاه العالمي * الذين لم يحفظوا العدل مع القريب حبًا
للشرف الزمني وقد تغاضوا عن ممارسة الفضيلة * ما اكثر
ماكان مجد اسكندر الملك الكبير ويوليوس قيصر في هذه
الحيوة * ولكن كيف حصلا على هذا الشرف الا بالجور والظلم
وسفك دما اناسٍ ابرياً من الذنوب * فهذه الافعال التي مدحت
في مدة دهور كثيرة * سوف تهان وتشنع في اليوم الاخير قصاصًا
عن امتداحها الماضي * وهكذا يصير بالابا الذين يولدون ثانيةً
ويحيون باشخاص اولادهم * فيلانون ويشجبون ثانية بمقدار
امثالهم الردية التي قدموها لاولادهم * وقد قال ايضًا القديس
المتقدم ذكره * انه من اجل ان الجسد يبقى في الارض بعد
الموت * فيجب ان يلان كل واحدٍ ثانية في الدينونة العامة
لان اجسادًا كثيرة من اجساد الابرار دفنت في بطون
الوحوش الضارية * وكثيرًا منها عدم الدفن * وبخلاف ذلك
اجساد كثيرة من اجساد الاشرار دفنت باكرام جزيل في قبور
مفخمة * فهذا الانعكاس يصلحه الله في ذلك اليوم * فالخاطي
الذي وضع جسده في قبر مزخرف يشاهده حينيذٍ في حال
الاهانة والشقا والعذاب * اما البار الذي لم يدفن بعد موته لكن
قبر في جوف الغربان او بطون الوحوش * فانه يبصر جسده
مكللاً بالنور * واخيرًا يقول القديس توما اللاهوتي * ان الاشيا

الزمنيّة التي وضع الانسان فيها قلبه وحبه اذا ما استقامت بعد
موته زماناً مستطيلاً او يسيراً * فلابد ان تدخل في الدينونة
الالهيّة * فانظر الان جيداً ما يميل اليه قلبك منعطفاً * فالاشيا
الارضية التي نحبها اكثر حباً نشتهي ان تدوم زماناً مديداً *
فان لم تدم هذه الاشيا بعد موتك فيكون ذلك انتقاماً منك
وعقاباً لمحبتك * وان استقامت بعد ذلك فلك ان تخاف من ان
يكون دوامها اجراً زمنياً لبعض افعال صالحة فينقص لذلك
اجرك الابدي او يسلب منك بالكليّة * وما عدا ذلك فلانّ
الانسان لايخطي بالنفس فقط بل بالنفس والجسد ايضاً * فوجب
ان تحضر النفس والجسد ويقفا بازا عرش السيد المسيح للدينونة
وان يتم ذلك جهاراً ليلا يعتمد احد علي السر والخفا في حال
فعل الخطيّة * اذ كانت خطية عتيدة ان تشتهر ويدري بها
الجميع * فحقاً ان الدينونة هي شي مرعب جداً * لانه مما تقدم
ايراده من قول ايوب الصديق قد تبين لجميع القديسين انها
ارهب من عقاب جهنم نفسه * ومع هذا فعتيدة
ان تكون وتضغط الخاطي مرتين * وتكون
الثانية امر من الاولي واصعب
* جداً *

الفصل التاسع

في اخر يوم من الزمن

انه قبل ان نورد كيف تتم هذه الدينونة العامة دينونة جميع الازمنة والناس كافة * يجب ان تعلم ان النار التي تتقدم ظهور سيدنا يسوع المسيح وجلوسه على منبر عدله لدينونة العالم * تحضر ايضاً معه عز وجل * ثم بعد رجوعه تعالى مع ابراره الي السماء تكمل تنقية العناصر كما قال البرتوس الكبير واثبت ذلك بشهادات كثيرة من الكتب المقدسة * ثم ينبغي ان نعتقد ان ظهوره تعالى هذا الظهور الثاني * يكون بعز ومجد عظيم يفوق علي كل ظهور اخر مليكي او الهي * لانه ان كان ملك نايب عنه تعالي ومرسل من قبله عز وجل لوضع الناموس الموسوى * قد ظهر علي طور سينا بعز ومجد هذا عظم مقداره حتي ان الشعب العبراني ارتعب فرقاً عند ظهوره * مع انه اعني الشعب المذكور كان قد تطهر واستعد لهذا الظهور * فماذا يكون اذاً عن رب الناموس حينما يظهر ليطلب الحساب عن حفظ شريعته * فباية هيبة ورهبة يظهر بغتة في اخر الازمنة ليدين الناس كافة ويحاسبهم *

فتامل الان ما ارهب ما كان ظهور ذلك الملك الواضع الناموس

العتيق * انه بعد خروج بني اسرايل من مصر بخمسين يوماً *
وبعد حدوث تلك الضربات المخيفة في تلك المملكة * ثم
بعد غرق المصريين في البحر الاحمر * اذ كان الاسرايليون
جالسين بطور سينا ابصروا ريحاً اتياً في الجو من بعد بعيد *
اى من جبل ساعير الكائن في بلاد الادوميين * وذلك بعز
ومجد عظيم تصحبه مليكة لايحصى عددهم * وقد قال المرتل
ان المليكة المحدقين بمركبة هذا الرب العظيم كانوا عشرة الاف
والحال ان هذا الوارد بمثل هذا السلطان العظيم والهول الجسيم
لم يكن الله نفسه * لكن ملاكاً فقط حسب شهادة القديس
استيفانوس اول الشهداء * وقد كان هذا الملك مار ميخايل زعيم
قوات الرب * غير انه اذ كان اتياً من قبل الله ونيابة عنه
تعالي دعاه الكتاب المقدس ربا * وكان حاملاً على يده اليمنى
الناموس الذى كان بكليته ملتهباً بالنار * وقد كان هو اعني
الملك مقبلاً على سحابات تزج رعوداً وصواعق * فارتجف
الاسرايليون لما راوا عند انبلاج الفجر سحابة مظلمة قد حجبت
الطور * ترشق رعوداً مخيفة وصواعق مرجفة * وابصروا
النار صاعدة من الارض الى السما مع دخان مخيف يحوط الجبل
كله * وسمعوا صوت بوق يزعزع الارض ويشتد في كل
ساعة * فاذ شاهد ذلك الاسرايليون ارتجفوا جميعهم من شدة

الخوف

الخوف * حينيذٍ امرهم الملك بفم موسي النبي بالاّ يقتربوا من جبل سينا ليلا يموتوا * وبهذا اظهر الله كم مقدار ما يجب ان يحترموه وشرع حينيذٍ الملك ينادى بالناموس بصوت شبهير قوى بهذا المقدار * حتي ان جميع الاسرايليين سمعوا المقول وفهموه مع ان اصوات الرعود لم تكف ولم تفتر * فعظم الخوف عليهم بهذا المقدار * حتي اوشكوا ان يموتوا من افراط جزعهم * ولهذا طلبوا الاّ يكلمهم الملك بل يخاطبهم موسي ليلا يموتوا * حتي ان موسي النبي نفسه مع انه كان معتادًا على مشاهدة الايات وفعلها ومتصفًا بقلب شجيع * اعترف بخوفهِ ايضًا قايلًا اني لمرتعب ومرتجف جدًا *

ولعمرى ان هذا كله كلاشي بالنسبة الي ما يكون في ذلك اليوم الذى يظهر فيه رب المليكة نفسه ويطلب الحساب عن حفظ ناموسهِ * حينما تكون الارض كلها ملتهبة بالنار * وتنفتح السّما من فوق وادى يوشافاط ويتحدر ابن الله بمجدٍ لايوصف ليدين الجميع * وترافقه المليكة السّماويون بصور منظورة * وامام هذا الديان العظيم تتقدم رايته محمولة اعني صليبه المقدس كما قال الذهبي الفم وغيره من المعلمين * وحينيذٍ يرتقى الصديقون العايشون بعد علي الارض ويرتفعون الي الجو الي لقا مخلصهم حسب قول الرسول * وتنتصب اربعة مليكة

في

في اربعة اقطار المسكونة * ويصرخون باربعة قرون صوتاً
عظيماً ينفد اعماق اللجة قايلين * هلم احضروا الدينونة * فتخرج
حينيذٍ من جهنم انفس الهالكين وتدخل اجسادها ثانية *
وفي تلك الدقيقة عينها تبتدى ان تتعذب في اجسادها بعذابات
مهيلة ابدية * ثم تاتي انفس الابرار ويلبسون اجسادهم *
ويحصلون علي سعادة صفات المجد الاربع * لان اجسادهم
تحصل افضل ضياءً من الشمس * واخف والطف من الهوا *
وغير قابلة التالم والفساد اكثر من جميع الاجرام السماوية * اما
الصديقون الذين يكونون بعدهم احيا علي الارض الي بعد
اتلاف العالم وحريقه * فلعجزهم عن ان يحتملوا في لحم قابل
الموت وفور الفرح الواصل اليهم من قبل مشاهدتهم السيد
المسيح وجزيل اشتياقهم اليهِ * يموتون من شدة الفرح والمحبة
والتعجب * ولكن بعد موتهم يحظون حالاً بمعاينة الذات
الالهيّة فتتحد انفسهم باجسادها ثانية قبل ان يعتريها الفساد *
بل قبل ان تسقط علي الارض * فتتطهر من كل دنس ارضي *
وتتزين بالصفات المجيدة السابق ذكرها * فمن يقدر ان
يصف كم تفرح حينيذٍ انفس الصديقين حينما تتمتع جديداً
باجسادها التي كانت قد استحالت الي رماد منذ الوف من السنين
وقد توشحت بالبهاءِ والمجد * وايما شكرٍ تسديهِ انفس الابرار

الي

الي سيدنا يسوع المسيح لاجل اتحادهم الثاني مع رفيقهم القديم
واى فرح وسرور يحصل ما بين النفس والجسد * وكيف
يهنيان بعضهما بعضاً لانهما عاشا عيشة قشفة ومارسا رياضات
التقشف * وبخلاف ذلك ما اشد ما يكون رجز انفس الهالكين
وغضبها الكلي علي اجسادها التي انهمكت في اللذات *
ولاجلها حصلا كلاهما علي العذابات الموبدة *
فبعد ان يصطف الهالكون هكذا في وادى يوشافاط *
والقديسون يرتقون الي الجو الي لقاء السيد المسيح الديان *
يجلس عزوجل فوق جبل الزيتون علي سحابة بهية منيرة جداً
ويكون حولهُ وامامهُ ووراءهُ الوف وربوات من الارواح
السماوية متلالين بنور عظيم * بل ينبثق من قنومهِ الالهي نور
هذا عظم مقدارهِ * حتي ان ادنى شعاع من اشعتهِ يفوق نور
الشمس فووقاً لايقدر * لاسيما من جراحاته الخمسة المقدسة *
وهذا النور يكون للابرار لذيذاً مبهجاً وللاشرار مولماً محزناً
فيبكون بكاءً مرًا وينتحبون انتحاباً مميتاً لانهم لم ينتفعوا من
جراحاته الالهيّة * وعند مشاهدتهم عظم جلال مجد الالهي
وسموبهاءعزتهِ الربوبيّة * يحنون رؤسهم تحت موطى قدميه
ولومهما كانوا يبغضونهُ تعالي * فماذا يقول حينيذٍ اولئك
الذين كللوهُ بالشوك * وامسكوهُ قصبة عوضاً عن قضيب الملك

والبسوهُ

والبسوه ثوبًا احمر ممزقًا * ولطموه ودنسوا وجهه الاقدس
بتفلهم المنتن * ثم ماذا يقول اوليك الذين قدمرلهم السيد المسيح
نفسه * واقتداهم بالامه المقدسة وموته ولم يتعبدوا الله بل
اسوا اليه بخطايا متعددة * مزدرين بدمه الزكي المسفوك حبًا
لهم كانه دم حيوان او احد اعدايهم * اني لاتعجب كيف ان
ذكرهن الامور لايمزق لبنا واحشانا * ولايذيب جسمنا
ندمًا وانسحاقًا * فلننتصح بما قالهُ احد ابا البرية اذ سيل عن
واسطة يلين بها القلب البشري ويميل الى ممارسة التوبة *
فاجاب سايله قايلًا * اذكر متاملًا يوم حضورك العتيد تجاه
الرب الديان الرهيب *
ثم ان المليكة يعدون منبرًا اخر مجيدًا جدًا * للام الطاهرة المثلثة
الطوبى مريم والدة الله * وذلك لا لتكون شفيعة للخطاة *
بل لتكون خزيًا لهم * لانهم لم يريدوا ان ينتفعوا من شفاعتها
ولتتمجد هي امام العالم كلهِ * وتنتصب منابر اخر حول منبر
سيدنا يسوع المسيح للرسل الاطهار وللمساكين بالروح * الذين
تركوا كل شي حبًا بهِ تعالي * فيجلسون مع مخلصهم كقضاة *
ويمثال سيرتهم المقدسة يدينون حيوة الخطاة الردية *
ويثبتون حكم القاضي العادل * ومن قبلهِ وباسمه يشادون
بالقضاء الاخير الرهيب * فتبهت حينيذٍ الخطاة ويرتعدون

فرقا وينتحبون اسفا وندما قايلين ما قد سبق الحكيم وتفوه به
عن لسانهم * هولاء هم الذين كانوا عندنا قديما هزوا وضحكة
وقد احتسبنا نحن الجهال سيرتهم جنونا وموتهم اهانة *
فكيف قد حسبوا الان ابنا الله * وحصل حظهم مع القديسين
فقد ضللنا اذا عن طريق الحق * ولم يضى لنا نور العدل ولم
تشرق لنا شمس الفهم *
وماذا تقول حينيذٍ اوليك الملوك المغتصبون الذين عذبوا
الشهدا وقتلوهم * حينما يبصرونهم حاصلين على هذا المجد
الوسيم * وماذا يكون خزى اوليك الذين ظلموا المساكين حين
يرونهم قد اقيموا قضاة عليهم * ولعمرى انه في هذه الحيوة
لايجلس الخاطى ولا الصديق في المكان الواجب لهما * لان
الشرير احيانا كثيرة يجلس من عن اليمين * والبار يلتزم
بالجلوس من عن الشمال * ولكن السيد المسيح الديان العادل
سوف يصلح هذا الظلم * ويميز الخطة من الزوان * ويرفع
الذين هم من عن يمينه عن الارض ويجلسهم على منابر المجد
ليبجدوا من العالم لاجل قداستهم * ويضع الاشرار من عن
شماله اسفل واقفين على الارض ليهانوا ويحتقروا من الجميع *
تما هو مقدار الحسد الذى يستولي حينيذٍ عليهم اذ يشاهدون
الابرار مكرمين مفخمين وينظرون انفسهم محتقرين مهانين *

فاى خزي يشتمل الملك حينما يرى عبـــد قد ارتقى الي مثل هذا
الشرف واسيره ارتفع الي مجد المليكة * واما هو فيبصر ذاته حاصلاً
علي حال شقا الابالسة * لانه كما ان المليكة يلبسون حينيذٍ
اجسادًا من الهوا وذلك لكي تزداد الابرار فرحًا ومجدًا بهذا البهاً
المنظور * هكذا تتقمص الشياطين باجسادٍ زرية شنعة
ليزيدوا الاشرار حزنًا وعذابًا بمنظر شناعتهم الكنيفة *
ثم بعد ان تكون انفتحت اسفار الضماير * وكما قلنا فيما تقدم بعد
ان يكون الله كشف خطايا جميع الناس وجميع اسرار القلوب
ونياتها وعواطفها * ومقاصد كل فكرة وكل كلمة وكل عمل
واشهر كل ما اخفته الخطاة سرًا * او صمتوا عنه خجلاً * او
حجبوه مكرًا او تلبسًا * او تغافلوا عنه كسلاً * فبعد ان يكون
اعلن هذه كلها تجاه الجميع * وفحص عنها وحكم عليها *
فحينيذٍ ينهض حالاً الديان العادل * ويفتح فاه بصوت مسموع
من الجميع * ويبرز اولاً الحكم للابرار بوجهٍ باش بصوتٍ
لذيذ عذب قايلاً * تعالوا يامباركي ابى رثوا الملك المعد لكم
منذ انشا العالم * وياما اعظم ما يكون وقتيذٍ فرح الابرار
الصديقين * وياما اشد وامر ما يكون حزن الاشرار الطالحين
وليس حزنهم فقط بل حسدهم وغضبهم ايضًا * لاسيما حينما
يسمعونه تعالي يحكم عليهم حكمًا صارمًا مختلفًا بالكلية عن

حكمهِ عز وجل للابرار * وقد اشار الي ذلك اشعيا النبي بقولهِ *
شفتاه مملوتان رجزًا * ولسانه كنار اكلة * علي انه اذ ينطق
نحوهم ابن الله بهذه الكلمات قايلًا * اغربوا عني يا ملاعين
الي النار الموبدة وما يتلو ذلك * فيحسون من قبل صوتهِ هذا
بالمٍ امر وانكى من كل نار وعذاب * لانه ان كان صوت بطرس
الرسول وهو مغضب اسقط حنانيا مع امرانهِ علي الارض وماتا *
فماذا يصير بالاشرار حينما يكلمهم السيد المسيح بغاية الغيظ
والغضب * وقد يمكننا ان نفهم هذا مما شعرت بهِ القديسة
كاترينا السيانيّة لما وبخها القديس بولس الرسول على
اصرافها شيًا قليلًا من الزمان باطلًا * لانه قد شهدت
القديسة المذكورة قايلة * انها لقد كانت تختار ان تهان تجاه
العالم جميعه * افضل من ان تسمع مثل هذا التوبيخ الرسوليّ *
فماذا يكون اذًا التوبيخ الالهي في ذلك اليوم يوم الانتقام *
لانه ان كان تعالي في اليوم الذى اخذ فيه ليدان * اسقط على
الارض جميع الشرط بمجرد قولهِ انا هو * فماذا يكون حينما
ينطق وهو جالس علي سدة الحكم * قد ذكر في كتاب
اخبار ابا البرية المولف من القديس سوليسيوس والقديس
كاسيانوس * عن شاب ما عزم على هجر العالم والتمسك
بالسيرة الرهبانيّة * وكانت امه تمانعه موردة لهُ حججًا كثيرة

فلم يوثر ذلك في قلبهِ * بل كان يرد كل سهام بجهها وممانعتها
بترس جوابهِ هذا * اني اريد ان اخلص نفسي * فلما رات
امه انها لا تستفيد شيأ تركته فدخل الرهبنة * الّا انه بعد
ترهبه بزمن قليل ابتدا ان يتراخى في العبادة * وفي اثنا ذلك
ماتت والدته ومرض هو مرضاً خطراً جدًّا * فعرض لهُ يوماً
غشي عظيم فغاب عن عقلهِ واختطف بروحهِ الي الديمونة امام
منبر الله * فوجد والدته مع كثيرين من الهالكين ينتظرون القضا
الاخير قضا الهلاك الابدى * فلما راته امه فيما بين كثيرين
عتيدين ان يلانوا ويرذلوا اندهلت وقالت لهُ * ما هذا يا ابني
وكيف حصلت علي هذه الحال * اين قولك لي انّي اني اريد ان اخلص
نفسي * اليس هذا هو السبب الذى من اجلهِ باينت العالم
وترهبت * فاذ سمع من والدتهِ هذا التوبيخ * اختزى جدًّا وخجل
ولم يقدر ان يجيب عن ذلك بكلمة * وفي الحال انتبه واستفاق
على نفسهِ * وبنعمة الله ورحمته شفى من مرضه * واذ تحقق
في نفسهِ ان اختطافه هذا كان تنبيهاً سماويًّا لهُ * تغير تغيراً
كليًّا * ولم يزل نادماً باكيًّا علي الزمن الماضى * وشرع
يمارس افعال توبة قشفة صارمة بهذا المقدار * حتي ان الاخوة
كانوا يطلبون منه باجتهاد ان يقتصر قليلاً ليلا يعدم صحته *
اما هو فكان يدحض بجهم قايلاً لهم * ان كنت انا لم اقدر ان

احتمل

احتمل توبيخ والدتي ليّ * فكيف يمكنني ان احتمل توبيخ السيد
المسيح ومليكته وقد يسيء حينما اقف للدينونة *
خبرنا رافايل كولومبا عن فيليبوس الثاني ملك ايسبانيا *
انه في ذات يوم اذ كان يحضر القداس الالهي * راى بقرب
منه شخصين من ارباب الدولة والشرف يتكلمان بعضهما مع
بعض * فاهملهما الي ان فرغ القداس * ثم التفت اليهما بوجهٍ
مغضبٍ قايلًا لاتعودا منذ الان فصاعدًا ان تحضرا امامي *
فاستصعبا هذه الكلمة بهذا المقدار * حتي ان احدهما مات
من شدة الحزن * والاخر اختل عقله وقضى بقيّة حياتهِ مجنونًا
فماذا اذًا يفعل في الخطاة صوت ملك الملوك ورب السماوات
والارض اذ يقول لهم اغربوا عني ياملاعين * ثم ان كانت
كلمات الله مخيفة هكذا * فماذا يكون من افعال عدلهِ *
فحينيذٍ تحدق النار بالهالكين * وتنشق الارض وتفتح جهنم
جوفها لتبتلعهم في لجها الي الابد * وفي حين سقوطهم يتم ما
قالهُ الملك والنبي داود * يسقط عليهم الجمر وتلقيهم في الشقا
فلا يحتملون * ثم يكمل اخيرًا ما قالهُ يوحنا الحبيب في جليانهِ * ان
الشيطان والموت وجهنم وكل من لم يكن اسمه مكتوبًا في سفر
الحيوة * يلقون في وادى النار والكبريت حيث يعاقبون مع
المسيح الدجال ونبيه الكذاب نهارًا وليلًا الى دهر الدهرين *

اما الابرار الصديقون فبخلاف ذلك يسرون متهللين حسب قول النبي اذ ينظرون الله منتقماً من الخطاة * ويسبحون تسبحة تشبه تسبحة موسي النبي التي رتلها لما غرق الله المصريين في البحر * ثم يرتلون ايضاً نشيد الخروف الوديع المذكور في سفر الرويا قايلين بصوت الابتهاج * عظيمة هي افعالك وعجيبة يا ايها الاله القادر على كل شي * وسبلك هي حقيقية يا ملك الدهور * فمن ذا لا يخافك ولا يعظم اسمك يارب * فبمثل هذه الاصوات المبهجة والتراتيل اللذيذة ترتقي الابرار بمجدٍ وسرور عظيم الى فوق الكواكب * ويلجون الملك السماوى حيث يجلسون علي منابر المجد الى ابد الابدين *

فهذا هو الانتها الذى به يزول كل زمن * فانظر كيف تتصرف الان بالاشيا الزمنية * ولكى تحسن تصرفك بها اذكر انتهاها * اذكر هذا اليوم الاخير يوم الشقا والعدل يوم الخوف والضيقة لانه ليس لنا دواء لاصلاح سيرتنا ولا علاج اعظم تاثيراً من هذا الفكر * قد ذكر يوحنا كورو بالات عن بوغوريس ملك بولغاريا الوثني * ان هذا الملك كان يحب صيد الوحوش الضارية حباً مفرطاً * ولذلك كان علي جميع حيطان قصره صور كل نوع من انواع صيد تلك الوحوش * فاتفق ان وجد

في ذلك الزمن راهب ما ماهرًا في صناعة التصوير يقال لهُ
مرو ديوس * فامر الملك ان يصور لهُ صورة مخيفة مرعبة
ابلغ ما يكون * فصور لهُ الراهب الحكيم صورة الدينونة
الاخيرة * ولما فرغ من العمل واتم تلك الصورة استدعي الملك
واراه اياها * فلما تفرس بها الملك تعجب وارتعب من عدل الله
جدًّا * وبعد مشاهدتهِ كيف ان الله يكلل الاخيار ويعذب
الاشرار * اتخذ حكمة من خوفهِ وجزعه * فتاب
عن سيرتهِ الردية * ودخل الديانة المسيحية
فان كانت صورة الدينونة ترعب
هكذا * فماذا يكون عنها
حينما تظهر هي
بذاتها

المقالة الثالثة

في الفرق ما بين الزمني والابدى نظرًا الي تغيير الامور الزمنيّة ودناتها ومخاطراتها وهي

* عشرة فصول *

الفصل الاوّل

في ان تغيير الاشيا الزمنيّة يصيرها اهلًا للازدراء والاحتقار

انه بعد ايراد قصر الزمان * وسرعة زوال الاشيا الزمنيّة * يجب علينا ان نتكلم عن عدم ثباتها فنقول * انه كما ان الموت هو تغيير الحيوة * هكذا التغييرات الحادثة في الحيوة هي موت اجزايها * فالمرض هو موت الصحة والعافية * والنوم هو موت السهر * والمالنخوليا هي موت الانبساط والفرح * والحدة والنزاقة هي موت الهدو والسكينة * والشبوبيّة هي موت الطفوليّة * والشيخوخة هي موت الشبوبيّة * ولعمري ان تلك المراة التي اخبر عنها صاحب الجليان بان القمر كان من تحت رجليها * قد كان يمكنها ان تتزين به كما تزينت

بالكواكب الاخر الموضوعة في اكليلها * الّا انها لم تردان
يكون الّا تحت رجليها * وذلك كما لحظ القديس غريغوريوس
الكبير * دليلاً على انه يجب ان نحتقر وندوس عدم ثبات
الاشيا الزمنيّة المرموز عنه بهذا الكوكب الذى من عادته
ان ينقلب ويتغير في كل وقت * وهذا نفسه قد دل عليه
ذلك الملك الذى انحدر من السّما متوجاً بقوس قزح لينادى
باقتراب انتها الزمان * لانه داس البحر برجله اليمين التي هى
اشد تمكيناً ودوساً من الشمال * مشيراً بذلك الي انه ينبغى
لنا ان نطا هكذا عدم الثبات المرموز عنه بالبحراى ان ندوسه
بعزم وتمكين شديد *
فحقاً حقاً ان عدم ثبات الاشيا الزمنيّة يصيرها حقيرة اهلاً
للازدرا * وذلك لان تغييرها هو عظيم واسبابه كثيرة جدًّ * فكما
ان البحر لهُ نوعان من الحركات اعني حركات طبيعية التي بها
يزداد وينقص في كل يوم بمد امواجه وجزرها * وحركات
اخرى قسرية يعتريه من قبلها تغييرات عظيمة من قبل اسباب
خارجة * كالرياح الشديدة والزوابع العاصفة التي تقلقه
وتقلبه فوقاً واسفل * فهكذا هى حال هذا العالم الذى من طبعهِ
هو قابل التقلب والتغيير والزوال * لانه ولو لم يمسه اقتسار من
خارج فهو بذاتهِ لا يزال يتغير تغيراً متصلاً * وبهذا التغيير

المتصل

المتصل تنتهي اخيرًا الاشيا العالميّة كافة * ومع ذلك فتحدث
فيه اتفاقات اقتسارية غير اعتيادية تصد الامور عن جريها
الاعتيادى * وتصدر فيه اى في بحر هذا العالم عواصف عظيمة
مسببة اتلاف اعظم ما يعتبر فيه * فالازهار الافضل بها تذبل
وتفني بذاتها * ومع ذلك فقد يتفق مرات كثيرة ان تلفحها
ريح السموم فتيبسها * او ريح شديدة فتنثرها * هكذا الجمال
فانه بذاته يضمر ويزول بمدة من السنين * ومع ذلك فقد ينتهي
ويزول خلوًا من مدة مستطيلة * وذلك بحمى وبائية او بغيرها
من الامراض * هكذا الثوب الثمين المفوف ينهرى بطول الزمن
واحيانًا كثيرة يتلفه لابسه خلوًا من طول الزمان * ونظير
البنيان الملوكي فانه ولو مهما كان وثيقًا محكمًا فيهدم بالقدمية
مع انه يمكن ان يحدث حريق لايدعه ان يبلغ تلك القدمية
فامعن اذًا النظر وتفرس بالاشيا التي اجتهد الناس فيها اجتهادًا
كليًا ليصيروها ثابتة راهنة * فتراها جميعها متغيرة * فمدينة
تيباس من بلاد مصر التي قد اعدها القديس غريغوريوس
النزينزى اول عجايب العالم * التي كانت تدهش عقول الناظرين
بحسنها ونظامها * لان حيطانها كانت مزينة بالمرمر المصفح
بالذهب الابريز * وفي عرض سورها كان لها بساتين كثيرة
مبهجة مرتفعة من علي وجه الارض * وعدد ابوابها مية باب *

وقد اخبرنا بومبونيوس المورخ ان كل باب كان يسع عشر كرات من الجنود * لانه ما عدا اتساع هذه الابواب * فكان طول كل باب منها عشرة ميال * ومع هذا كله فقد افتتح هذه المدينة العجيبة الحصينة شاب حدث واتخذها بجيش وجيز * كما ذكر القديس ايرونيموس * وقد خبرنا مورخ اخر يدعي مرقص بولس * انه دخل مدينة تدعى كينساى * وكانت حينيذٍ تحتوى على ثمانين ربوة من الناس * ثم بعد ذلك بسنين قليلة مر بهذه المدينة نيقولاوس المكني ابن الامير * فوجدها قد هدمت ثم تعمرت جديدًا * ولا ريب في ان مدينة نينوى كانت اعظم من هذه المدينة جدًا * لان الكتاب المقدس يشهد ان طولها كان مسافة ثلثة ايام مشيًا * والان بل من دهور عديدة لم يبقَ من هذه المدينة اثر ما * ومثل ذلك صار في مدينة بابل الحصينة جدًا وتحت مملكة العالم * لانها هدمت وصارت برية مقفرة تسكنها الوحوش الضارية مع الشياطين * كما كان تنبي عليها اشعيا النبي * ولم يحفظها من حوادث الزمان سورها الذى كان علوه مية قدم وعرضه خمسين * وماذا نقول عن مدينة قفتان تحت مملكة المادين * التي ابتناها ارفخشد الملك من حجارة مربعة منحوتة ومحررة بالازميل * وقد كانت احصن من مدينة بابل على ما ذكر الكتاب المقدس * لان عرض سورها

كان

كان ستين ذراعاً * وعلوه مية ذراع * ومع هذا جميعه فتعبدت
مع الملك الذى ابتناها لملك الاتوريين * وبعد ان كان ملكها
يرجف العالم بسطوته * انقلب يرجف خوفاً وفزعاً من ملك
اتور عدوه *

وماذا نقول عن المدن التي تغيرت سلطتها مرات كثيرة *
فانظر العالم حينما كان متسلطاً عليه الاتوريون * فترى ان
سلطتهم انتقلت الى الفرس * ومن هولاء الى اليونانيين * ومن
اليونانيين الى الرومانيين * وبعد سنين قليلة تجد تغيرات
اخر غير هذه * حتي ان العالم والاشيا التي فيه ليس لها ثبات غير
الثبات علي التغيير * وهذه الشابة كما انها توجب الاحتقار *
هكذا تصير الاشيا العالميّة محتقرة *

ان القمر المرموز به على عدم الثبات يتغير لا نظراً الي صورته
فقط * بل نظراً الى لونه ايضاً * وقد لحظت فيه الفلاسفة
الطبيعيون ثلثة الوان * وهى الاصفر والاحمر والابيض * فاذ
يكون لونه اصفر يحدث المطر * ولما يكون لونه احمر يسبب
الريح * وحينما يكون لونه ابيض يصدر الصحو * وعلي هذا
النحو يتغير قلب الانسان بثلثة الوان مختصة بمفعولات شديدة
تحاربه * فالاول هو الاصفر وهو لون الذهب * واليه اى الى
الغني يميل الانسان بعزمٍ اشد من ميل المافي النزول * والثاني

هو اللون الاحمر القرمزى * وبهِ يشتهى الانسان الكرامات الباطلة * الثالث هو اللون الابيض لون الفرح والابتهاج * الذى بهِ يتوق الانسان الى التنزهات وملاهى هذه الحيوة * فهذى هى ثلثة المفعولات الصادرة من البخل والكبريا والشهوة اللحمية * التي يتحرك بها الانسان ويتغير نظير بعض حشايش من خواصها ان تميل وتنحني الى حيثما يسير القمر * وهذه التغيرات الحادثة في الانسان تسبب تغيرات في اشيا اخر كثيرة * فكم من الممالك هدمها بخل كورش الملك * وكم غيرت الممالك بل العالم كله كبريا اسكندر وحبه الكرامة * وكم فعلت شهوة باريس اللحمية في مدينة تروياحيث لم تدع شيأ قايمًا الا وقلبته فوقًا واسفل * وما الذى لم تفعله من الخراب والانقلاب في مملكة اليونانيين * فكما ان البحر يزداد وينقص مع حركة القمر * هكذا امور هذه الحيوة تتخذ حركاتها وتغايرها من الامارات البشرية * فلا تجد في شي ثباتًا لاسيما في الانسان سوى الثبات على التغيير الذى هو حاصل عليه والذى يصدر عنه في بقية الاشيا *

ان داود النبي وضع للمزمور الثامن والستين هذا العنوان * الي الانتها وعن الذين سيتغيرون * وذلك لانه بمزموره هذا يتكلم عن الشعب الاورشليمى الذين بعد ما قبلوا السيد المسيح باكرام

لم يشرف بهِ قبلاً انسان حي * فبعد ذلك بايام قليلة تغيروا وعاملوه تعالى معاملة لم يعامل بها احد من اشر الناس اصلاً * فليس اذاً لنا ان نعتمد علي قلب البشر الذى تارة يحب وتارة يبغض * تارةً يشتهي وتارةً يخاف * تارة يكرم وتارةً يهين * فمن ذا لا يتعجب من تغيير القديس بطرس زعيم الرسل * الذى وعد معلمه الالهى بانه يموت من اجلهِ * ثم بعد وعده هذا بساعاتٍ قليلة انقلب عن عزمهِ وحلف انه لا يعرفه تقدس اسمه فان كان ارز لبنان قد تزعزع هكذا * فماذا يصير بالقصب والقطن * وماذا نقول عن حمنون ابن داود الملك * الذى عشق اخته تامر واحبها حباً مفرطاً بهذا المقدار * حتي انه اضحى من حبهِ لها مريضاً ومدنفاً * ثم بعد قليل انقلب يبغضها بغضاً هذا حد * حتي انه اخرجها من البيت ليلا ينظرها * غير اني لا اجد شيئاً افضل تقريراً لتوكيد ما نحن في صدده مما حدث في مدينة افسس * وذلك انه كانت في هذه المدينة امراة معتبرة جداً بصفاتها الحميدة * فحدث ان توفي بعلها * فحزنت عليهِ حزناً عظيماً ما سمع بمثلهِ قط * لانها لم تكتف بالبكا المر المتصل ولا بالتولول العظيم والانتحاب الاليم * مع لطمها وجهها وضربها جسمها بقساوة ليلاً ونهاراً * لكنها مضت ايضاً الى الناوس الذى قبر فيه زوجها * وكان خارجاً عن المدينة * وجلست

نفسها

نفسها هناك مع الجثة الموموقة منها * ولم ترد ان تاكل شيأ
واستمرت علي هذه الحال اربعة ايام * فاتفق ان الحاكم
امر بشنق اربعة من اللصوص بقرب تلك المغارة * واقام حراسا
من الجنود لحفظ جثث اوليك اللصوص على المشنقة ليلا ياتي
اهلهم فيختطفوهم ليدفنوهم * فعرف احد الحراس حال تلك
المراة * فتحرك بالرحمة والتعطف الي تعزيتها * فاخذ ماكلاً
وانطلق به الي المغارة * واخذ يعزيها ويحثها علي الاكل ليلا تموت
فابت ان تاكل ولم يوثر كلامه فيها في الابتدا * غير انه لم يزل
يحثها ويلح عليها مورداً لها حججاً كثيرة مقنعة بان تكف عما
هي عليه * فطابت حينيذٍ نفسها ومالت الي مطلوبه * وارتضت
لابان تتناول الاكل من يده فقط * بل بان تقبله ايضاً زوجاً
لها * فالرجل من فرحه بعرسه تغاضى عن اللص المشنوق الموكل
بحراسته * فاتى اقرباوه فسرقوه ودفنوه سراً * فلما شعر الجندى
بذلك خاف من عقاب الحاكم * فاخبر المراة بالقضية *
فطيبت خاطره واخرجت جثة زوجها الميت الذى كانت اظهرت
لهُ قبلاً حباً هذا عظم مقداره * وعلقته موضع اللص
المشنوق * فانظر الان وتعجب من سرعة
تغيير القلب البشرى وعدم
ثباته

الفصل الثاني

في ان البلايا الزمنيّة ولو مهما كانت عظيمة فقد يمكن ان تحف برجاء ما

ان تغيير الاشيا الزمنيّة وعدم ثباتها المتقدم تقريرهُ * من شانهِ ان يصير قلبنا ثابتاً * وذلك اولاً باحتقارنا هذه الاشيا القابلة التغيير والسريعة الزوال * ثانياً باعتقادنا اليقيني انهُ لاثبات ايضاً للبلايا الزمنيّة ولا عدم تغيير * وانهُ كما يتفق احياناً ان بعض خيرات عظيمة تكون سبباً لشرور عظيمة * هكذا يتفق ايضاً ان شروراً جسيمة تسبب احياناً خيرات جسيمة * وقد ذكر في هذا الصدد عن رجلٍ شريف يدعى ابيوس * انهُ لما بلغهُ ان الحاكم يريد ان يمسكهُ ليقتلهُ * فهرب في سفينة مع خدامهِ واموالهِ وامتعتهِ * فاذ كانوا سايرين على البحر * عزم الخدام على اختلاس اموال سيدهم * فانزلوهُ في قارب وتركوهُ هكذا على البحر * وساروا هم بالسفينة الموسوقة من ارزاقهِ وامتعتهِ * الّا ان هذه البليّة صارت سبباً لخلاصهِ لان السفينة غرقت مع كل ما فيها من الرزق والناس * وهو وصل سالماً في قاربهِ الى مملكة سيسليا * خبرونا ايضاً عن رجل اخر يدعى اريستوميتس * ان اعداءهُ قبضوا عليهِ والقوهُ

في سجن عميق الي ان يقتلوه * فكان ينتظر الموت في كل ساعة اما من قبل الجوع واما من الرايحة المنتنة التي كانت هناك واما بالسيف * ففيما هو على حال الياس الكلي * واذا بثعلب قد دخل الى السجن من سرداب محفور في حايط السجن تحت الارض * فامسك اريستوميتس الثعلب بذنبه * واذ كان الثعلب يجتهد بان يخرج من حيث دخل * كان الرجل المذكور يطاوعه مسقادًا وراه ماسكًا ذنبه بين الواحة وموسعًا ذلك المنفد بين الاخرى * وعلي هذا النحو خرج مع الثعلب سالمًا حينما كانت اعداوه يعدون لهُ الموت * فلا شر اذًا في هذه الحيوة لايمكن ان يصير طريقة للوصول الي اعظم خير * وقد ذكر عن ديوجينس انه بعد ما حكم عليه في المحكمة لاجل قضية صيرته مهانًا عند الجميع * حصل مكرمًا من الجميع * حتي ان اسكندر الملك المعظم زاره وشرفه جدًا * وهكذا اخبروا عن رجل كان في صدره دملة مهلكة اعيت الاطبا بعلاجها وايسوا من شفايها * فاتفق ان عدوًا لهُ ضربه علي صدره على تلك الدملة ضربة مميتة * فصارت الضربة علة لبرءها وعلاجًا لشفايها * وقد اخبر ايضًا جالينوس ريس الاطبا عن رجل ابرص ببرصٍ لاشفالهُ * انه مر يومًا على قوم يحصدون وكانوا يعرفون علته * فاعطوه خمرًا وقعت فيه افعى ليشربه

ويموت ليستريح من الم جذامه * فلما شربه تنقى من برصه
وشفى بالكليّة * وخبرنا مورخ اخر * انه عرف صبيًا اعرج
من رجليه الاثنتين * ولم يكن يقدر ان يمشي اصلًا الّا بواسطة
عكازين * فاتفق انه طعن في زمن الوبا * فشفى من عرجه
شفاءً كاملًا * وصار يمشي مستويًا بغير عون كساير
الناس * وجاء ايضًا في الاخبار * ان رجلًا اعمى ضرب في
راسه ضربة قوية * فانقلب يبصر جليًا * وكذلك امراة فقدت
صحة العقل * فاذ ضربت على راسها عادت الى حالها الاولي
وصح عقلها * وقد ذكر بلوتارخوس * ان رجلًا ما كان له
داء مزمن * فضربه عدوه في مكان الوجع فشفى منه بالكليّة
ولعمري ان بني يعقوب اسرايل بمعاملتهم يوسف اخاهم
الكلية الظلم والقساوة * ابتنوا له منبرًا عاليًا في مصر * وبلايا
ايوب الصديق صارت سببًا لان يضاعف له العمر والخيرات
وهرب يعقوب الصديق من وجه اخيه العيس بعصاه لاغير
خلوًا من زاد وامتعة * صار له سببًا لان يرجع الى بلاده غنيًا
من مال وخدم وبنين * فحقًا انه لا يوجد في هذه الحيوة بلية
خالية من رجا * وقد تاتي الشرور رمرات كثيرة بخيرات وافرة *
وذلك نظرًا الى مجرد جرى الاشيا الاعتيادى * واما اذا ما وجهنا
نظرنا الى العون الالهي * فنرى انه لا يوجد شر بغير علاج ودوا

فهل

فهل توجد ضيقة اعظم من تلك التي حصلت عليها سوسنة العفيفة حينما اخذت الي الموت برضى الجمهور * الا انها فيما هي ماضية الى المقتل باهانة عظيمة انقذها الله من الموت وصير الجميع ان يتعجبوا من فضيلتها * ودانيال النبي اذ القي في بير الاسود اما كان عادمًا كل عون * الا ان العون الذى لم يقدمه له من الارض اقتبله كاملًا من السما * والثلثة الفتية الذين طرحوا في اتون بابل * قد وجدوا التعزية والسرور في وسط النار وفي حضن الموت * وقد ظن داود النبي اذ راى جنود شاول عدوه قد احاطوا به انه لا خلاص له وقد حان موته الا انه بتلك الدقيقة نفسها حاز الخلاص وهرب ناجيًا من ايديهم

الفصل الثالث

في انه ينبغي ان يتامل الانسان عواقب الاحوال المختلفة التي قد يمكن ان يحصل عليها

فلنتحذن اذًا لنا نصيحة جزيلة الاعتبار من تغيير الاشيا الزمنية وعدم ثباتها ليلا نبني اتكالنا على الحظ العالمي * اعني ليلا نامن للنجاح العالمي * لانه لا توجد مملكة ولا مرتبة ولا حرية ناجية من خطر البلية * ولذلك يجب علينا ان نعتبر دايمًا هذا الامر * وهو انه يمكن ان نسقط من اعلي مقام الى اسفل رتبة *

فافكر

فافتكر اذًا ان اشرف الناس رتبة وقدرًا * يمكن ان يسقط من سمو رتبته ويضطر بان يتخذ معاشه متسولًا في الشوارع كاحد الصعاليك * حتي الملك نفسه يمكن ان يسقط عن سدنهِ وتخلع عنه اثوابه الملوكيّة * ويكون فاعلًا مكديًا او يقتل قتلًا رديًا *

فقد كان فيتاليوس ملكًا عظيمًا جدًا * لانه كان متسلطًا علي الشرق والغرب * غنيًا بالذهب الذى كان في خزاينه كالرمل الذى على شاطى البحر * ممدوحًا في الشوارع من الشعب الروماني كافة * ولكن كيف انتهى هذا العز الجسيم والمجد الوسيم * فقد انتهى باهانة قصيي اشنع ما يكون * لان ارباب الدولة قبضوا عليهِ وربطوا حبلًا في عنقهِ * وكتفوا يديهِ وراظهن ومزقوا ثيابه * وجعلوا سيفًا تحت لحيته * وطافوا بهِ هكذا مدينة رومية باهانة عظيمة * لانهم كانوا يشتمونه * ويلقون طينًا قذرًا على وجههِ ولحيته * واخيرًا قتلوه في الشوارع والقوا جثته طعامًا للوحوش الضارية كجثة اعظم الاثمة * ولعمرى انها لمصيبة يرثى لها * وهى ان الذى حصل علي اسعد المراتب وتمتع بهذا المقدار من اللذات والكنوز والكرامات تنتهى حياته هكذا باشنع الميتات * فمن ذا الذى كان يستطيع ان يسبق فيعرف ان حيوة هذا الملك تنتهى هكذا * اذا ماراه

منذ مولك ونشوه متزديًا باثوابٍ شريفة مفخمة * ماشيًا في
مدينة رومية العظمى باحتفالٍ عظيم وشرف ملوكيّ في وسط
شعب يمدحه ويثني عليه * فهل كان راى ان حيوة هذا الملك
تنتهي على النحو المتقدم وصفه * هل كان قال في نفسهِ ان
هذا الانتهاء الشقي يقتضى مثل هذا الاستعداد الشريف * هكذا
فالريانوس الملك الذى كان يلبس الخز والارجوان ويركب افخر
الخيل المسومة براسٍ مكلل بتاجٍ ملوكيّ * فهذا بعد زمن
يسير سجن كوحش ضارى في قفص من حديد * وكان يستخدمه
سابور ملك الفرس كمسطبة يعلو على ظهن كلما اراد ان
يركب * واخيرًا سلخ جلد منكبيه وملحهما كلحم خنزير *
وزينون الملك بعد ان ملك عدة سنين في القسطنطينيّة *
وتنعم بكل لذة دفن وهو حى * واكل لحم يديه من شدة
الجوع * وبليساريوس المظفر في الحروب بعد ان انتصر علي
شعوب البندالة والغططيين * وفتح مملكة افريقية وسيسليا
وظفر بملك الفرس * وحصل علي كنوز عظيمة بهذا المقدار *
حتي انه في يوم واحد ربح ما قد كان جمعه البنداليون من
الاموال في مدة ثمانين سنة * فهذا اضطر اخيرًا بان يشحذ
على باب كنيسة اجيا صوفيا وفي شوارع المدينة القسطنطينية
وهو اعمى * وديونيسيوس الثانى ملك سقليّة خلع من الملك

وقدح به الفقر بهذا المقدار * حتي اضطران يقرى الاولاد
الصغار ليسد فقرهم * وادوني بازاق الذى ظفر بسبعين ملكاً
حسبما اخبر عنه الكتاب المقدس حصل اخيراً اسيراً وقطعت
اطراف يديه ورجليه * والملكة غوسفيندا امراة ملك ايسبانيا
الذى احبها واكرمها جداً عدة سنين * فهذه اخيراً ارسل الملك
المذكور جلاداً فقطع راسها بامرمي في وسط مدينة توليدا *
ومريم زوجة اوتون ملك النمسا قتلت بامر الملك المذكور *
اذ تحقق بطلان تهمتها لاحد امرايه * فقد تبين اذاً انه لا تاج ولا
قضيب ملوكيّ ناجٍ من تغيير الاشيا الزمنيّة وعدم ثباتها *
وحسناً قال القديس غريغوريوس النزينزى * ان الافضل
لنا ان نستوثق من الريح ومن الحروف المكتوبة علي وجه الما
من ان نركن للنجاح العالمي والسعادة الزمنيّة *
الّا ان هذه كلها ليست هي علي حصر الكلام سقطات بل تغييرات
فقط * لانه ما من احد يقدر ان يسقط من موضع سفلى منخفض
والحال ان كل سعادةٍ عالميّة هي وطيّة منخفضة جداً *
فالسقطات اذاً الحقيقية هي السقطات الروحيّة * التي يسقط
بها الانسان من حال سامية حال النعمة الالهية الي لجة الخطية
وقد يجب علينا ان نرتجف فرقاً اذ نرى ان مثل هذا التغير
المخيف يمكن ان يوجد فينا وذلك بارادتنا * على ان جميع

الخيرات الارضية يمكن ان تسلب منا اغتصاباً * اما الخيرات الروحية فلا يمكن ان نفقدها اذلم نرتض بذلك * فيالعظم شقاينا لاننا نحن نرتضي بفقدها * وبتغييرنا الاختياري نصير هذ الخيرات الغير القابلة التغيير خاضعة للتغيير * خبرنا القديس بطرس داميانوس * انه عاش راهباً في مدينة من بلاد ايطاليا يدعي مادليئوس * وقد كان هذا الراهب ارتقى الى قداسة سامية جداً حتي بلغ الى صنع العجايب * ومن جملة ذلك انه مرة في يوم السبت العظيم بعد ان هيا قناديل الكنيسة واعدها * لم يبق له زيت لقنديل الجسد الالهي * فوضع بايمان حي ماء في القنديل عوضاً عن الزيت واضاءه * فاشتعلت الفتيلة بالماء كما كانت تشعل بالزيت * واستمر ذلك القنديل مضيئاً هكذا تلك الليلة كلها * فانظر الان الى اين اتصل هذا الرجل العجايبي المتعجب منه الجمهور * وهو ان الله رفع عنه يك فسقط سقطة قبيحة * ولاجلها القي في السجن وتعذب بحكم الشريعة تعذيباً مشتهراً * وقد اخبر ايضاً القديس بطرس المتقدم ذكره انفاً كان كاهن قديس مشرفاً ايضاً من الله بفعل العجايب * حتي انه كل يوم في قداسه كان ينحدر ملاك من السما يقتبل من يديه الاسرار الالهية ويقدمها لله كحسب الرسم الكنايسي

وهذا

وهذا العجب كان يعاينه امير المدينة عينه * فهذا الكاهن
الذى تشبه بذلك الراهب المتقدم ذكره في الفضيلة * ضاهاه
اخيرًا في الرذيلة وسقط تطيره سقطة جسيمة * ونظير هذين
ذلك الشاب الراهب المذكور من القديس كليمكوس * فقد كان
بلغ الى قداسة عظمى والي صنع العجايب * لان وحوش
البرية كانت تخضع لهُ في خدمة الدير * وقد كان القديس
انطونيوس يشبهه بسفينة موسوقة جواهر ثمينة غير انها
سايرة على البحر لا يعلم ان كانت تبلغ المينا * فهذا الشاب الجزيل
النشاط سقط سقطة عظمى * وحينما كان يبكى من جرايها
مر عليه بعض من الرهبان * فطلب منهم ان يقولوا للانبا
انطونيوس ان يصلى لاجلهِ طالبًا لهُ من الله عشرة ايام ليمارس
بها افعال التوبة * فلما سمع القديس انطونيوس هذا الخبر *
انتحب وبكى بكاءً مرًا وقلع شعر هامته بايديهِ قايلًا * اهًا لقد
سقط عمود عظيم في بيعة الله * وبعد ذلك بخمسة ايام توفي
الراهب المذكور * وجيرون الاسكندرى الذى كتب خبره
يراكليدس * قد ازهر في الفضيلة والقداسة سنين كثيرة * ثم
بعد ذلك سقط ايضًا سقطة قبيحة ردية * وصار بعدها يطوف
منازل الزانيات وماخور الفساد عيانًا بلا حيا * وهكذا
تولوماوس المصرى الذى استوطن البرارى المقفرة خمس عشرة

سنة مواظبا على الصلوة * ولم يكن ياكل سوى الخبز ولا
يشرب غير الما * اخيرا ترك جميع هذه الرياضات * وبدل هذه
العيشة المقدسة بعيشة اخرى تضادها * ثم اننا اذا ما نظرنا الي
ما ذكر في الكتب المقدسة * فنجد هناك تغييرات وسقطات
اعظم من التي تقدم ذكرها * لانه من كان يظن بشاول
حينما اختاره الله وكان بارا واكثر صلاحا من غيره * انه من
كونه متواضعا صبورا * يحصل علي كبر يا شيطانية وغضب
مميت * نحو الذى لم يكن له مثيلا في الصلاح والبر في جميع الشعب
الاسرايلى * وان سليمن الرجل الجزيل الحكمة والتقوى كان
عتيدا ان يبني هياكل للاصنام * وان رسولا من جماعة السيد
المسيح كان عتيدا ان يسلمه ثم يشنق ذاته بذاته ايسا من
خلاصه * فبعد هذا جميعه من عاد يمكنه ان يثق بنفسه ولا
* يتذهل مرتجفا عند تامله ما يمكن ان يصدر عنه *

الفصل الرابع

في ان تغيير الاشيا الزمنية يرينا جليا بطلانها * وفي كم
يجب علينا ان نحتقرها

انه قد ذكر عن غليميروس ملك البندالة * انه كان غنيا
مقتدرا ذا مجد عظيم * الا انه بعد ان انتصر عليه بليساريوس

واخذ

واخذ مملكته واسن واتى به الى القسطنطينية ومثل امام
الملك يوستينيانوس وعظما دولته * لم يظهر عليه امارات الحزن
اصلاً * بل انما تفوه بهذه الحقيقة المقولة من الحكيم قايلاً * باطل
الاباطيل والاشيا كلها باطلة * وقد كان قبلاً اظهر مثل هذه
الشجاعة * وذلك حينما هرب الى بلاد نيقوميديا بعد انتصار
بليساريوس عليه * وصعد الي جبل هناك واختفى في قلعة
حصينة * لانه اذ حاصرته الاعدا هناك وعزم علي تسليم نفسه
لاشتداد الجوع عليه * ارسل الى قايدهم يطلب منه رغيف
خبز واسفنجة وقيثارة * فالرغيف لكى يحفظ به حياته المشرفة
على الموت من الجوع * والاسفنجة لكى يمسح بها دموعه ولا
يعود ان يبكى ايضاً علي فقد الاشيا العالميّة التي تحقق بطلانها
والقيثارة لانه لايكتفي بمسح دموعه فقط بل يريد ايضاً ان
يبدل العويل بالنشيد * والحزن بالتعزية والغنا * فحقاً حقاً
ان جميع عظايم هذه الحيوة هى باطلة * فهل وجدت عظمة
على الارض مثل عظمة مملكة الرومانيين * ومع ذلك فبعد
جلوس احدهم علي سدة هذه المملكة بزمان يسير كان يموت
قتلاً * اما من الذين اقاموه ملكاً * واما من اخرين اكثر
منه اقتداراً وفطنة * حتي انه قد عرفنا من التواريخ * انه ما بين
الملك انطونينوس الفيلسوف وما بين الملك كلاوديوس الثاني

كان

كان الذين جلسوا علي سدة هذه المملكة ثمانية عشر ملكاً او عشرين ملكاً * وجميعهم ماتوا قتلاً موتاً اغتصابياً * هذا ما عدا الملوك الدخيلين وقد بلغ عددهم في عهد الملك يوليانوس الي ثلثين ملكاً دخيلاً * وجميعهم قد قتل بعضهم بعضاً * فحقاً ان كون سعادة هذه الحيوة هي غيبة ان تنتهي مع هذه الحيوة * يوضح لنا بالكفاية انها قد تنتهي ايضاً قبل انتهاء هذه الحيوة وتنقلب الي شقا *

الفصل السادس

في دناءة الاشيا الزمنية وانحرافها عن النظام * وفي كم انحرف عن النظام الذين يحبونها

ولعمري ان الاشيا الزمنية ليست هي اهلاً للاحتقار لانها سريعة الانقلاب والزوال فقط * لكن لسبب اخر ايضاً * وهو لانها دنية مضرة مضادة النظام * وذلك لا من قبل ذاتها فقط * بل من قبل استعمالنا اياها الردي ايضاً * فهذه جميعها تصيرها اهلاً للاحتقار بهذا المقدار * حتي انه كان ينبغي لنا ان نزدري بها ولو كانت ابدية * قال القديس يوحنا البشير في الابوكالبسيس انه راي وحشاً مرهباً صاعداً من البحر * وكان راسه كراس اسد * وجسمه كان مختلف الالوان كجلد النمر * ورجلاه كانتا

كرجلى الدب * ولهُ سبعة روس وعشر قرون * فهذا هو
كل ما يوجد في العالم * اعني شهوة اللحم * المرموز عنها بالدب
الذى هو الوحش الاشد ميلاً الي اللذات اللحمية * وشهوة
العين * اى رغبة الغني المعبر عنها بالثمر الوحش المختلف الالوان
وفخر الحيوة * اى رغبة الكرامات المرموز عنها بالاسد الوحش
الاكثر تكبرًا من جميع الوحوش * ولما كان العالم متفاقمًا
بالكبريا جدًا * كان لهذا الوحش الرمزى سبعة روس وعشر
قرون * فالسبعة الروس هى رمز علي الرذايل السبع الروسية
والعشر القرون هى دلالة على ما ياتي منها من الرذايل التي
ينطح بها وصايا الله العشر ويحارب الناموس الالهى * ثم اعتبر
السر المرموز بتوزيع اعضا هذا الوحش * فيقول ان رجليه
كرجلى الدب * وجسده كجسد النمر * وراسه كراس الاسد
وذلك لان كل نوايا العالم ومفعولاته متاسسة علي الشهوة اللحمية
الطبيعية * وعلى هذا الاساس قد بني شر الغني وشر الفخر
العالمى * اللذان ليس هما شيًا طبيعيًا بل شي مخترع من
البشر * فالغني هو جسد العالم * لانه على الغني تسموا الكبريا
بمنزلة الراس * ثم ان الغني المرموز عنه بجسد النمر هو موضوع
بين الكبريا المرموز عنها براس الاسد * وبين الشهوة اللحمية
المرموز عنها بارجل الدب * علي ان هاتين الرذيلتين تحتاجان

الى الغني علي حدٍ سوى * ولذلك كان الغني هو جسد هذا
الوحش لكى يستطيع ان يقدم لهاتين الرذيلتين اعني لكبريا
الحيوة وللشهوة اللحمية كل ما يطلبانه * فالعالم هو حقًا شبيه
هذا الوحش الخيالي لا يوجد فيه شي حقيقي * قال فيلون
الفيلسوف اليهودى * ان راس الامور هو الغاية التي رسمت
الامور لاجلها * ولان اشيا هذا العالم قد انحرفت عن غايتها
الوحيدة * وذلك باستعمالنا اياها استعمالًا منحرفًا * فحصلت
غير منتظمة بتكثير غايات رذايل خصوصية * ومن ثم لم يكن
للوحش المذكور راس واحد بل روس كثيرة * علي ان البشر في
استعمالهم الاشيا الزمنية لا يبتغون غاية ان يرضوا الله ويعبدوه
بل ان غايتهم ومرغوبهم ان يرضوا الامهم وشهوتهم *
ولان الشهوات متفننة مختلفة * فكانت ايضًا غاياتهم ونياتهم
متنوعة مختلفة * وهذا هو سبب جميع هذه الروس المستغربة
الاجنبية * ولعمرى ان العالم اذ يتبع هذه الغايات المختلفة التي
هى غايات كاذبة لتضادها الصواب والطبيعة * ينحرف عن
غايته الحقيقية الواجبة * اذ ان كل الاشيا قد خلقت لكى يستعملها
الانسان لتمجيد الله وعبادته * فمتي حادت عن هذه الغاية
تعود باطلة كلها * هكذا الانسان الماهر في رشق السهام *
فانه اذا ما قلعت عيناه لا تعود تفيده خبرته في تلك الصناعة

ولا ينتفع من قوسه وسهامه اصلاً * قل لي يا صاح هل ان
كثرة الذهب والفضة واللولو والجواهر الكريمة التي على
اثواب البشر وامتعتهم تلاحظ خدمة الله وتكون مفيدة لها *
فسل عن ذلك القديس الكسيوس لترى ان كان قد استعمل ذلك
لهذه الغاية * فان كانت اذاً هذه الاشيا لاتستعمل لخدمة الله
فتكون جميعها باطلة * اخبرني ايضاً هل كثرة الملذات
والولايم والملاهي تنسب لرضى الله وتفيد لذلك * فسل القديس
برنردوس ان كان قد استعملها واسطة لبلوغ هذه الغاية * وهل
ان الجاه والفخر العالمي والكرامات الارضية تلاحظ خدمة الله
وتكون مفيدة لها * فاستفهم عن ذلك القديس يواصف الذي
مجد ملكه الارض لكي يخدم ملك السما * فكل مجدٍ هو باطل
وكاذب ان كان لايربح به المجد السماوي *

ولعمري ان بطلان الاشيا العالمية لاتتضح من انحرافها عن
غايتها الواجبة فقط * لكنه يتبين من جهة اخرى ايضاً * وهي
لانها عديمة المناسبة للغاية المقصودة من الرذيلة البشرية *
لانه ما الذي قصدته الشهوة البشرية بالغني والكرامات التي
اخترعتها * انها لم تقصد في ذلك شيئاً سوى السعادة الارضية
والحال انها انما تفيد لهذه افادة يسيرة جداً * والافضل ان نقول
انها تسبب عذاباً وشقاً * فبالكتابة الشرايع التي اخترعها

العالم لحفظ حسن السمعة والشرف التي تجعل حيوة الانسان
وراحته في حال خطر متصل * فهل يوجد جهل اعظم غباوة
وحماقة من ان يحسب خيرًا افضل اعتبارًا في العالم الشي الذى
يكون سببًا لشرور عديدة متصلة * ومتصفًا بهذه الحال
الشقية * وهى انه يفقد سريعًا ويكون ارتداده عسرًا جدًا *
وسلبه في يد اى من شا * واسترداده بعد فقد غير ممكن *
وما اقبح شريعة العالم هذه * انه اذا ما افترى عليك رجل قبيح
الصيت بقوله عنك انك كذبت فيكون قد شنع صيتك * مع
ان المفترى عليك يكون كذابًا * وما هذا الشرف شرف الصيت
الذى سلب منك لاجل كلمة فرطت من ذاك ولا تقدر ان
تسترده بكلمة اخرى تقولها انت * اوليس ان اجتهاد الانسان
في اصلاح صيته باظهار الحق بواسطة اغتصابية هو جهل
كثيف بل جنون فظيع * لانه اولًا كون الانسان اكثر
قوة وبطشًا لا يجعله افضل صلاحًا وصدقًا * ثانيًا لان هذا
مضر بالقوم الفضلا * لانه غالبًا من كان بالنفس افضل صلاحًا
يكون بالجسد ضعيفًا ذليلًا * واما الغني فقد صيره الخبث
البشرى ان يضر اكثر مما ينفع * لكون الغني لا يقتنع ولا يستريح
اذ لم يجد في بيته كل ما يريد * فلا يكفيه ان يكتسي حسنًا
متزينًا بافخر ملبوس * بل يريد مع ذلك ان تكون حيطان

منزلة ايضاً مزينة بافخر زينة * ومن ذلك يصيران من يكون
اوفر غني واكثر مالاً * يكون اشد افتقاراً واعظم احتياجاً *
وذلك لانه يحتاج لانظراً الي نفسه فقط * بل نظراً الي ضرورة
الاشيا التي يمتلكها ايضاً *

وقد نرى هذه الشايبة اعني شايبة الانحراف عن النظام
موجودة في الاشيا الخصوصية ايضاً التي قد اخترعت لاجل
علاج الضرورة البشرية * حتي ان الذى كان مفيداً نافعاً صار
مضراً مولماً * وذلك كالماكل الذى رسم لحفظ الحيوة * فقد
صيرته شراهة الانسان مضراً للحيوة * وذلك باختراع انواع
مختلفة واشكال متلونة من طبيخ الاطعمة * حيث انه صدر
عن ذلك امراض متنوعة كما شهد مارسلوس دوناتوس الطبيب
واخبر بويسيوس عن بلاد سكوسيا * انه لم يدخل اليها حمى
وباية حتي دخلت قبلها الاطعمة اللذيذة المتلونة * فاذا ما لحظنا
اذاً ابطلان الاشيا الارضية الذاتي * ثم اعتبرنا استعمالنا اياها
الاستعمال المنحرف فلا نستطيع ان نحتمل العالم الوحش الذى له
مثل هذه الرؤس الكثيرة والقرون المضرة * فاى ظلم لا يحدث
من قبله * ما اكثر الحيل والاضرار والنقمات والاخطار التي
يسببها * لان البخل يسجس كل شي * والزنا يفسد كل شي *
والفخر العالمي يبلبل نظام كل شي * فياليتنا نرى ما يخفيه العالم

تحت ظاهر الكاذب * قد ذكر عن كاهن فاضل جزيل الغيرة
على خلاص القريب يدعي فولكوبني * انه عزم يوماً علي
اجتذاب رجل غني الي عبادة الله * فاتخذ لذلك فرصة ان
يغتذى عنده اى عند ذلك الغني * فلما دخل المنزل سالهُ قايلاً
ما الذى ناكله اليوم * فاجابه الغني اننا ناكل الذ ما يوجد في
هذه المدينة واثمنه * وفي الحال ادخل الكاهن الي المطبخ مع
اناس كثيرين * واراه المواكيل المختلفة الالوان المعدة للغذا
واذا بها قد استحالت جميعها الي عقاربٍ وحياتٍ وافاعي وغيرها
من حشرات الارض * فاندهش الغني من هذا المنظر العجيب
المريع * وانتفع منه جدًا * لانه تحقق ان الانهماك في الملذات
مضر كضرر الاغتذا بدبابات مسمة * وان لذة الحنجرة قد قتلت
من الناس اكثر مما قتلت منهم الاسد والوحوش الضارية *

الفصل السادس

في كم تكون الاشيا الزمنيّة يسيرة قصيرة

فهات الان لننظرنّ كم تكون الاشيا العالميّة لاباطلة فقط * بل
يسيرة وجيزة ايضًا * ولنبتدين من اعتبار الخيرات الارضية التي
تظهر لنا اوفر جاهًا وفخرًا * اعني بها حسن الصيت وشرف
الاسم * فقد يتمني بنوا البشر ان يذاع صيتهم في العالم ويشتهر

اسمهم ما بين الملا * ولكن ما الذى يصير عن ذلك * فها هوذا
الوف وربوات من الناس لايعرفون من هو ملك فرنسا او
ملك النمسا او ملك ايسبانيا * فقبل اتلادك عبرت سنون
كثيرة لم يعرفك احد فيها * وبعد ان تسلب هذه الحيوة بالموت
تعبر ايضاً سنون اخرى ابدية تكون بها منسياً * والان في حال
وجودك فقليلون هم الذين يعرفونك واكثرهم اشرار فلماذا اذاً
تفرغ كل جهدك وجدك باتعاب جسيمة لكي ترج مثل هذا الشي
الدنى الوجيز * وماذا اقول عن جهالة كبريا الذين اتخذوا لهم
اسماء شريفة ليتسع خبرهم في العالم * اني لاعتقد انه فيما بين
علما العالم الماهرين * قليلون هم الذين يعرفون الملك
فنكتاديتوراجيو * مع ان هذا الملك كان يظن ان العالم جميعه
يعرفه * وهكذا كان يتوهم اهل ملكه * ولهذا كانوا يدعونه
مولي الملوك * ومن جملة افتخاراته * كان اذا ابرز امراً او كتب
رسالة يفتتح الكلام بها هكذا * رب الحظ الحسن والسعادة *
ملك الاقاليم المتسعة * واعظم الملوك والاهمم * ومولي
الفوارس المظفر بكل الذين يراهم والحافظ كل الذين يظفر بهم *
المرهوب في اربعة اقطار العالم * مبيد مواكب ال اسمعيل *
فبهذه الاسماء المفخمة كان يفتخر فنكتاديتوراجيو * ولكن من ذا
الذى كان يعرف اسمه وانه كان ملك تارسينيا ان لم يخبره احد

بذلك * فكما ان هذا الملك وغيره من الملوك المقتدرين هم مجهولون في هذه البلاد * هكذا هم بالحرى غير معروفين من سكان البلدان البعيدة *

ثم اننا اذا تاملنا عدم مطابقة هذه الاسماء المفخمة لمن اتخذوها محلًا لهم * لوجدناها جميعها باطلة * لانه كم من اناسٍ ذوى نفسٍ حقيرة دنيّة مستغرقة في لجة الخطيّة التي هي الدناءة القصيي * قد اتخذوا لانفسهم اسماء شريفة مفخمة * مع انه ما من احد يمكن ان يوجد اكثر مما هو تجاه عيني الله * وان الله لا يعتبر احدًا نظرًا الي شرف نسلهِ * بل نظرًا الي شرف ايمانهِ الكاثوليكيّ * ولا لانه ولد في بلاط ملوكيّ بل لانه ولد بالماء والروح بسر الاعتماد المقدس * فماذا ينفع الاتلاد من اصل شريف بالنسبة الى الاتلاد من جنب يسوع * قد ذكر عن البتولة سانسيا كارتيليا الفاضلة * انها كل من كانت تحضر عماد طفل * كانت ترى سيدنا يسوع المسيح على صليبهِ والطفل يخرج من جنبه الاقدس * دليلًا علي ان هذا المولد الجديد نحوزه باستحقاق دم السيد المسيح * وانه انما نحصل معتبرين عند الله لاجل شرف هذا الدم الالهي * لا من اجل شرف دم اجدادنا الذى هو دم اناسٍ خطاة * فالمولد الاول يلحق بشاة الهوان * والمولد الثاني يكسبنا الشرف * لان المولد الاول هو

مولده

مولد الخطيّة المميت * اما المولد الثاني فهو مولد القداسة
الروحي المانح الحيوة * فبالمولد الاول نصير ابنا البشر * وبالمولد
الثاني نصير ابنا الله * واخيرًا اقول انه بميلاد المعمودية نحصل
وارثي ملكوت السّما * ونحوز النعمة الالهيّة وعربون المجد
الابدي * فما اشد جنون الانسان الذي يفتخر بمولد البشري
الذي يصيره خاطيًا اكثر مما يفتخر بمولد الالهي الذي يصيره
قديسًا * فحقًا ان امجاد العالم هي باطلة * ولهذا قال ماتاتيا
المكابي لبنيه * ان كل مجد بني البشر هو زبل ودود * واشعيا
النبي شبه طالبي هذا المجد الباطل بالعنكبوت الذي ينسج لنفسه
نسجًا من احشايه ليصيد به الذباب * ومع خساسة هذا المجيد
الباطل ودناءته فقد اهلك نفوسًا كثيرة * فان كان داود الملك
والنبي لعن جبل جلبوع لانه قتل عليه شاول ويوناثان * فكم
بالحري وباولي حجة يجب ان يلعن جبل الكرامات العالميّة التي
منها وبسببها طرحت اناس لايحصى عددهم في لجة جهنم *
فلنعتبرنّ الان ما هو الغني وما هي الاشيا المتنعمة بها اصحابه *
فالقديس غريغوريوس النزينزي قد شرف الغني اذ دعاه زبلًا
ثمينًا * وقد سماه انطونينوس قيصر الفيلسوف حماة الارض
وزبلها * اما الحرير الابريسم فهو تفل الدود * والزباد هو عرق
السنانير * والعنبر فضلات تخرج علي جلد حوت بحري * والمسك

دم حيوان منفسد * ثم ماهى المدن والاقاليم * فانظر اليها من فلك القمر * فمن هناك تحكم مع لوكسيانا المعلم الفلكى ان ممالك اليونانيين كلها توازى عرض اربع اصابع * وان كل الارض جميعها هى شي جزى جدًا * فان كان هيرودس الملك اعطى نصف ملكه اجرًا لرقص صبية * فماذا يكون ثمن ملكه كله وقيمته * ان هامان وزير احشورش الملك قد كان يمتلك كنوزًا عظيمة جدًا * وقد اعترف انه لايعتبرها ولايعدها خيرًا ما حين يرى مردخاى اليهودى لايكرمه ولا يقدم له السلام *

ثم قل لي ما هى لذات الحنجرة الا اشيا حقيرة ذاتيًا ومستكرهة لعمرى انه اذا ما لحظنا اى شي هى الدجاجة المشوق اكلها لوجدنا ما يسبب لنا كراهيّة وقرفًا * لانه لو وضع احد في الطاجن الذى يطبخ فيه الغذا دودًا وزبلًا * فقد كان اشمأز منه الجميع وابوا عن ان يتناولوا منه اكلًا * والحال ان الدجاجة ليست هى الا انا مملوًا دودًا وزبلًا وغير ذلك مما يكن كالمادة التي تخرج من الانف واقرف منها * فان كان مجرد تقل الطباخ على الطعام يكن المعدة حتي الاستفراغ * ويبيد شهوة الاكل بالكليّة * فكيف لايكن الانسان من مضغ ما يحمل في بطنه مثل هذه الاشيا المستكرهة * وقل مثل ذلك عن اكل

لحم

لحم الخنزير * اما الخبز والحشيش والما معاش النساك الاعتيادى
فلا يوجد انقى ولا اطهر منه *
وهكذا هى لذات الحواس القصيرة جدًا * لانه ما عدا انها اقصر
من جميع اللذات * فمع ذلك هى ممتزجة بافسنتين عذابات
كثيرة تتقدمها وترافقها وتتبعها * فكم من الخوف والضيق
والخطر يكابد الزانى قبل ان يملك اربه الدنس * وكم من يرتجف
قلبه في حين اتمام شهوته * وما اشد النكال الذى تستحيل
اليه اللذة الخياليّة بعد ذلك * ثم ما اكثر وما امر الامراض
والاوجاع والميتات الناتجة من لذة وقتيّة *
فمن اجل هذه الاشيا الوجيزة الدنيّة تخسر اعظم الخيرات اعني
الخيرات الابدية * وتحتقر الناموس الالهى * ونهين مخلصنا
الذى يرغب ان يعوضنا بحسناته السماوية الالهيّة الجسيمة اذا ما
رذلنا حبًا به تعالى هذه اللذات الارضية الدنية الوجيزة * التي
قد كان يجب على الذين لا يرفضونها الاجل خساستها * ان
يرذلوها ويدوسوها تحت ارجلهم من اجل الاجر والثواب المعد
منه تعالى للذين يميتون حواسهم وينبذون هذه اللذة لاجله
عز وجل * وقد يثبت ذلك بما ذكر غليكاس المورخ * وهو
ان ناسكًا ما كان له في البرية اربعين سنة مجاهدًا على
خلاص نفسه وممارسًا رياضات دعونه بنشاط عظيم * فاشتهى

ان يعرف ان كان يوجد علي الارض من يقارنه في الثواب
والاستحقاق * فشرع يطلب من الله ان يعلن لهُ حقيقة هذا
الامر * فارتضى الله الراوف بطلبته * واوحى اليه بان
تاودوسيوس الكبير ملك الروم هو مساوٍ لهُ في الثواب *
لانه مع كونهِ ملكًا ليس هو باقل منه انضاعًا وامانة * فنهض
الناسك بعد هذا الجواب * وبحركة من الله انطلق الى
تاودوسيوس الملك * ولانه اعني الناسك كان مشتهرًا بالقداسة
والملك كان يكرم جدًا اهل النسك والعبادة * فلذلك سهل
عليه ان يجتمع بهِ * وان يستخبره عن رياضانهِ المقدسة * غير
ان الملك لم يكشف لهُ سوى هذه الفضايل الاعتيادية * اعني
صدقات وافرة * ولبس المسح * وصيامات شديدة * وحفظ
عفة الزيجة بالتدقيق مع امرانهِ الملكة * وحفظ العدل نحو
الشعب المروس منه * فاعجب هذا الناسك جدًا * لاسيما في من
كان ملكًا متسلطًا * الا انه اعني الناسك راى نفسه انه قد
اتم هذه كلها باعظم كمال * حيث انه كان قد هجر العالم وجحد كل
شيٍ حبًا بالسيد المسيح * والحال ان هذا لافضل من توزيع
الصدقات * ثم انه لم يعرف امراة في كل زمن حيانهِ * وهذا
شي افضل من حفظ عفة الزيجة * وانه لم يضر القريب ابدًا *
وهذا لاكثر كمالًا من صد الناس عن مضرة القريب * وما عدا

ذلك

ذلك فقد كان لبسه المسح وصومه متصلاً خلواً من كل طعام
لذيذ * فلذلك عاد الناسك ملجأ بالتوسل الى الملك بان لايخفى
عنه شيأ * وقال له ان الله يريد ذلك ومن قبله انا وافيت اليك
فحينيذٍ قال له الملك اعلم يا ايها الاب القديس ان كل من تصير
فرج ومنتزهات وسباق خيل وما يضاهى ذلك من الملاهى
الملوكية * فاقف عنها بعيداً ليلا تستلذ حواسي بالنظر اليها *
وحينما يصير بقربي ما يميل بقلبي الى مشاهدته * فحينيذٍ
اصرف نظري عنه مميتاً بذلك نفسي * ومع اني ادع عيني
مفتوحتين فيكون حالي كحال الاعمى الذى لا يبصر شيأ *
فبهت الناسك متعجباً من اماتة هذا الملك المعظم * وعلم
حينيذٍ ان القضيب الملوكى والارجوان لايمنعان الملك عن
اكتساب استحقاقات عظيمة عند الله * وذلك باماتة نفسه
ومسكها عن طلب ملذات حواسه * ثم استتلى الملك قايلاً
للناسك اعلم ايها الاب اني اربح معاشي بتعب يدى * لاني اكتب
كتباً بخطٍ حسن وابيعها * وهكذا احصل بعرقي ما تحتاج
اليه معيشتي * فانذ هل الناسك من مثل هذا الفقر فيما بين الكنوز
ومن مثل هذا الامساك والقنوع فيما بين اللذات * ثم تهلل بنفسه
واعتقد متحققاً ان هذا الملك المعظم قد ربح هذه الاستحقاقات
السامية بمسك نفسه عن لذات الحنجرة والنظر * فهذى هى

حال

حال شقا اللذات الارضيّة * وهي انها مع كونها وجيزة دنية فاذا
كانت محلولة لنا تعيقنا عن اكتساب استحقاقات عظيمة
وخيرات جسيمة * واذا كانت غير محلولة فتزجنا في اضرار
جزيلة وشرور غير موصوفة *

فالان مما تقدم القول عنه يجب علينا ان ننتج هذه الحقيقة *
وهي الا نستعظم عظمةً ما عالميّة ولا نبتغي لذةً ما ارضيّة *
وهذا ما قالهُ القديس سبيريدون لتلميذ حينما دخل معه الى
بلاط الملك * وكان التلميذ الغير المختبر منجذباً وراء ما كان
يبصر متعجباً من عظمة البلاط ومما فيه من الزينة الفاخرة *
وبالاكثر مندهشاً من الملك الجالس على سدنهِ الملوكيّة بعز
لا يوصف * فاذ اطلع القديس على ضلال تلميذ قصد ان يردهُ
عنه فسالهُ قائلاً * ارني من هو الملك لاني لست اميزهُ من غيرهِ
ولا ادري ان كنت اعرفهُ حقاً * فاما التلميذ الذي لم يعرف سبب
هذا السوال مديناً واراه بها الملك * فحينيذٍ قال لهُ القديس
ومالهُ مما يستحق بهِ ان تفضله على غيرهِ سوى ملابسهِ الفاخرة
فماذا يفيد ان يكون مترديا افضل من بقيّة الناس * اليس هو
عتيداً ان يموت كاحد المساكين الغير المعروفين * اليس انهُ يدفن
في الارض كمثل جميع الانام * اما هو ملتزماً بالوقوف امام منبر
الديان المرهوب نظير الكل * فلماذا تعتبر الاشيا الزايلة كانها ابدية

الفصل السابع

في عظم شقاء الحيوة الزمنية

فلنعتبرن الان ماهية جوهر الحيوة الزمنية * لنستوعب تعجباً من ان مدة وجيزة من الزمن تحوى بلايا عديدة جداً * قال فالريس الفيلسوف احد العلما المتقدمين * انه لو يعرف احد قبل مولده ما سيرد عليه من البلايا لم يرتض بالولود * ولما سيل سيلانوس ماهى السعادة العظمى فاجاب قايلاً * انها هى عدم الاتلاد او الرجوع الي العدم بعد الاتلاد حالاً * وقال الحكيم جميع ايام الانسان مملوة اوجاعاً وشقاً * فلا يستريح عقله ولا يهدأ قلبه ليلاً * ولعمرى انه ما بين بلايا هذه الحيوة لا يجب ان تحصى الامراض فقط * بل ادويتها وعلاجاتها ايضاً * لان بعضاً من الامراض الاعتيادية تداوى باكلى وبقطع الاعضا او نشرها او بشق الجوف * وغير ذلك من الاحتما عن الماكل والمشارب * وعن ذلك ذكر كرنيليوس سالسوس * ان بعضاً شفوا من امراضهم المميتة بامتناعهم عن الماكل والمشرب الي هذا الحد حتي انهم لافراط جوعهم اكلوا زبلهم وشربوا بولهم * وقد ذكر عن الباليولوغوس الثاني ملك القسطنطينية * انه حصل مريضاً معذباً بالاوجاع مدة سنة كاملة لم تحد له الاطبا بها علاجاً شفيه

من مرضهِ * فاتفق جمهورهم علي ان الغيظ يشفيه * فلما
سمعت ذلك الملكة امراته وكانت تحبه جدًا وترغب شفاءه *
حركت جميع الماثلين لديهِ وجميع الخدام علي مخالفتهِ ومضادتهِ
وبذلت هي جهدها بذلك بكل نوعٍ من الازدرا والافترا * حتي
كاد يموت حزنًا ويتمزق غيظًا * فان كانت علاجات
الامراض هذا عظم مرارها * فماظنك بالامراض نفسها * خبرونا
عن رجل اسمه انجل بوليسيانو * انه ادركه مرض مولم بهذا
المقدار * حتي انه كان يضرب راسه بالحايط من شدة المه *
وميسيناس الشريف القدر بين قدما الرومانيين * منعه مرضه
المعضل عن لذة الوسن مدة سنة كاملة * وقد كان مرض
انتيوخوس الملك سجحًا ومستكرهًا بهذا المقدار * حتي انه لم يعد
احد من عسكره يحتمل نتانة جسد المتماسي الذى كان ياكله
الدود وهو حي *
وماذا اقول عن الامراض الوبائية التي قد ابتلعت سكان المدن
واقفرت الاقاليم * فقد ذكر كثيرون من المورخين * انه
حدث في القسطنطينية طاعون كان يحن بهِ المطعونون
ويتداخلهم خوف هذا حدث * حتي انهم كانوا يموتون من مجرد
وهمهم ان جيرانهم يريدون ان يقتلوهم * وقد اخبر
توسيديدوس المورخ اليوناني * انه في عصره صار في بلاد

الروم وباء مريع اهلك اناساً لا يحصى عددهم * ولم يجد احد لهُ دوًا * والذى هو اغرب من ذلك * هو ان الذى كان يشفى منه كان يعدم حاسة الذكر بالكليّة * فلم يكن يعرف والديه ولا اولاده ولا اقرباه * وقد ذكر ايضاً ان جنود افيديوس كاسيوس اذ كانوا في سلوكيا مدينة مملكة بابل * دخلوا هيكل ابولو * فوجدوا فيه صندوقاً مقفولاً ففتحوه راجين ان يجدوا فيه مالاً ياخذونه * فمع فتحهم اياه فاحت منه رايحة مفسودة افسدت بلاد بابل كلها * ثم انتقل الفساد منها الي بلاد الروم * ومن بلاد الروم وصل الى رومية * وفعلت بسكان هذه الممالك فعلاً هذا عظم مقداره * حتي انه لم ينج منهم سوى الثلث *

ولعمرى انه في الازمنة الاكثر قرباً منا لم تقل البلايا ايضاً * لان عدل الله لم يزل ينتقم كما ان البشر لم يبرحوا يخطيون * فقد ذكر انه حدث في بلاد النمسا مرض وباءى * كان يميت من يدركه بمدة اربع وعشرين ساعة * وذلك بخروج عرق مسموم من جسد * وقد مات منه اكثر سكان اقاليم هذه المملكة * حتي انه في بلاد الانكلز كانت الطيور تباين اوكارها وفراخها * والوحوش تغادر مغايرها * والحيات والحشرات كانت تخرج من قلب الارض * لعجزها عن احتمال فسادها

ونتائها * وفي سنة الف وخمسماية وست وثلثين للمسيح *
حدث طاعون عظيم في اقليم مرسيليا واستقام تسعة اشهر
حتي امتلات القبور من الموتى * واكثر المطعونين كانوا يحيون
في اليوم الثاني * فالبعض منهم كانوا يطرحون انفسهم في
الابار * واخرون يلقون ذواتهم من علو منازلهم * وقوما
كان يخرج الدم من مناخيرهم كالسواقي * وكان قطعه موتا
لهم * ولانه لم يكن احد ينجو من الذين اصيبوا بهذا المرض *
فكان الذين يشعرون بوروده يكفنون حالا ذواتهم * لعلمهم
اليقيني بانهم يموتون * ولذلك وجد من الذين ماتوا على
هذه الحالة ما ينيف على عشرة الاف * فهذى هى بلايا حيوة
البشر *
ومثل ذلك تتعذب حيوة الانسان من قبل الجوع * وقد خبر
بذلك المورخون انه لما حاصر الاريكوس مدينة رومية * ضايق
الجوع اهل المدينة بهذا المقدار * حتي انهم اكلوا الخيل والكلاب
والاقطاط والفيران * بل لحم البشر ايضا * واذ حاصر سيبيون
مدينة نومانتا في بلد افريقية * خرج النومانتيون من المدينة
من شدة الجوع وكانوا يصطادون الرومانيين كوحوش الصيد
ويا كلونهم من شدة جوعهم * وقد ذكر في السفر الرابع من
اسفار الملوك * انه على زمن اليشع النبي صار جوع عظيم في

السامرة

السامن * حتي ان راس الحمار كان يباع بثمانين درهماً من الفضة
وربع المكيال من زبل الحمام بخمسة دراهم * وقد بلغ بهم
الامر الي اكل بعضهم * حتي ان امراة من نسا المدينة حضرت
امام الملك مشتكيّة علي جارتها باتها لم تقم بوعدها لها * وذلك
لانهما لشدة جوعهما تشارطتا بان تاكلا ولديهما * فبعد ان ذبحت
المشتكيّة ابنها واكلته معها * لم ترتض الاخرى بذبح ابنها
لكنها اخفته ولم تقم بوعدها * ومثل ذلك ذكر يوسيفوس
المورخ اليهودى في الجز السابع من تواريخه * بل ما هو اشد
قساوة مما تقدم * وهو انه اذ حاصر الرومانيون اورشليم
وضايقوها جدًا * كانت امراة ما شريفة القدر وكثيرة الغني داخل
هذه المدينة * فاخفت جزءًا من اموالها الغزيرة وكانت تعيش
بامساكٍ عظيم * الّا ان الجنود الذين في المدينة لعلمهم بغناها
افنوا كل اموالها شيئًا فشيئًا * فلما لم يبق لها شي وحصلت في
غاية الضيق والشقاء حتي انها لم تجد ما يخفف جوعها * التفتت
الي طفلٍ لها كانت ترضعه وشرعت تخاطبه بنحيبٍ وعويل
قايلة هكذا * ياايها الابن الشقي لامٍ هي اشقي منه * ما الذى افعله
بك وكيف يمكنني ان احفظ حياتك * لقد نفد كل ما كان ليّ
من المواكيل والاموال * فان ابقيتك حيًا تصر اسيرًا للرومانيين
فالاجدر اذًا بك ان تحفظ حيوة والدتك وتقيتها * وتردع قساوة

الجنود الذين اختلسوا كل مالي * وتكون للاجيال الاتية مثالاً
يميل بالقلوب الي التراف والرحمة * قالت هذا وللحين ذبحت
ابنها ثم شقته نصفين * فشوت احدهما علي النار واخفت النصف
الاخر لوقت ضرورتها * وفي اثنا ذلك دخل الجنود بيتها * فلما
اشتموا رايحة اللحم المشوى توعدوا المراة بالموت ان لم تقدم
لهم ما شوته * فاما هي فاذ كانت بعد قتلها ابنها قد صغرت
نفسها واستحوذ علي قلبها الرجز واليأس ولم تعد تبتغ على
الارض شيأ سوى ان ترافقه بالموت * نزعت عنها كل خوف
وحيا وقالت للجنود هكذا * انصتوا يا اصدقاى وانظروا كيف
عاملتكم معاملة اخت لاخوتها * لاني ابقيت لكم حصة مما كان
لي * ثم احضرت لهم فضلات ابنها المشوى * فلما شاهد الجنود
هذا المنظر المريئ لهُ ارتاعوا خوفاً وبهتوا صامتين * فاذ لم
يفوهوا بكلمة لشدة زمعهم وارتعاشهم * وقد كانت هي قد
حصلت سكرى بافراط رجزها * قالت لهم بصراخ هكذا * ما
هذا الخوف الذى اعتراكم ايها الشجعان الفطاحل اليس هذا هو
ثمن احشاى * اليس هذا هو ابني * اليس ان ذبحه وقتله هو
فعلى * فلم لا تاكلون * فاما الجنود فهربوا مشمازين من هذا
المنظر المرعب * وتركوا الامر مع جزء من ابنها وكان هذا كل ما
بقى لها من اموالها الغزيرة *

اما

اما البلايا والمصايب التي تحدث من قبل الحروب فهي اعظم مما تقدم واكثر جدًا * ولنتخذ لذلك مثالًا مما حدث في بلاد النمسا على زماننا * ولننظر الي كثرة الشرور التي صدرت هنالك من قبل حرب السويديين الاراطقة اللوترانيين الذين لم يرَ في جيوش البرابرة المظفرين قساوةً نظير قساوتهم * لانهم ما عدا كثرة الاراضي التي احرقوها في اقليم بافاريا * كانوا يشدون روس البعض بالحبال الى ان يخرج الدم وتنكسر جماجمهم ويخرج مخهم واخرون كانوا يربطون ايديهم وارجلهم ويلقونهم للسنانير والكلاب الكلبة من شدة الجوع لتاكل احشاهم * وقوم كانوا يعلقونهم في الفضا بايديهم ويضرمون نارًا من تحتهم * وغيرهم كانوا يقطعون اذانهم ومناخيرهم * والبعض كانوا يملاون بطونهم من الماء ثم يعصرونهم الي ان يستفرغوه من افواههم وانوفهم * واخرون يسلخونهم وغيرهم قطعوهم اربعة اجزا * واما النسا ففضحوهن ثم بعد ذلك ثقبوا سواعدهن * حتي ان بعضًا من الجنود اغتذوا من لحوم الاطفال الذين كانوا يفسخونهم شطرين * اما الذين اسروهم في الحرب من الجنود الكاثوليكيين * فلم يكتفوا بربطهم من ايديهم * بل كانوا يثقبون سواعدهم ويدخلون بها حبالًا ويربطون الحبال باذناب الخيل ويسحبونهم على

الارض * وليس ذلك فقط بل كانوا يشقون بطونهم ايضاً ويملاونها شعيراً ويجعلونها معالف للدواب *

فمع هذه جميعها اجاسر واقول ان البلايا التي تصدر من قبل الامر الانسان وامارانهِ المنحرفة * هي اعظم من البلايا المتقدم ذكرها * اى التي تصدر من قبل الطاعون والجوع والحرب * ولهذا قال احد المعلمين في تفسير انجيل القديس متي * ان الانسان هو اعظم الشرور * لان كل وحش لهُ شر واحد مختص بهِ * اما الانسان فهو مجموع الشرور كلها * والذى يقاسيهِ الانسان من قبل الانسان نفسهِ يفوق التصديق * فما اكثر ما احتمله داود النبي من نفي وجوع وحرب وخطر من قبل حسد شاول * وما اعظم ما احتمله ايليا النبي من قبل غضب ازبل * واى طاعون كان يمكن ان يعجل بالموت علي نابوت الازراعيلي اكثر مما عجل عليه بهِ بخل اخاب الملك * وايما وباء كان يستطيع ان يقتل من البشر بمقدار ما قتل تكبر هيرودس من الاطفال * ما اكثر انواع العذابات التي اخترعها عقل البشر المحرك بالالام * انهُ من زمن مديد كان قد بلغ اختراع الناس الى خمسماية نوع من السم * والان قد زادت انواعهُ جداً * على ان المتقدمين قد كانوا من هذه الجهة اقل معرفة بالنسبة الي جيلنا * لانهُ الان لا توجد واسطة يمكن ان يحترس

بها الانسان من السمر اذ قد وصلت انواعه الي ما يسمر بلمس اليد
حال السلام * وبمجرد السمع ايضا * وقد عرفنا بالتجربة من
انسمر باللمس وبالنظر وبالشم وبذوق ادنى شي *
ثم اني اقول انه لا يوجد شي يسبب للانسان بلايا وشرورا بمقدار
ما يسبب الانسان منها بذاته لذاته من قبل الامة * ان المتكبر
يتالم من كرامة الغير * والحسود يذوب عند مشاهدته سعادة
الناس * والبخيل يفقد الراحة لعدم امتلاكه ما لا يحتاجه *
والغضوب يحن من شدة رجزه لاجل ما لا يجديه نفعا ولا ضررا
فما اكثر الذين خسروا اموالهم وراحتهم وحياتهم الزمنية
والابدية لانهم لم ينتصروا علي الامهم * كما جرى لهامان وزير
احشورش الملك * الذى لسبب انه رام اكراما ومجدا اكثر
مما يحق له * خسر كل ماله وكرامته وحياته ومات مشنوقا
وابيشالوم اذ حرضته الكبريا على اختلاس ملك ابيه داود
هلك معلقا بشعر راسه علي شجرة والسهام مجن في قلبه *
وحمنون ابن الملك والنبي داود لانه انقاد الي شهوة لحمية فانقاد
لذلك الي حتفه ايضا * وقد ذكر عن فنسيسلاوس ملك
بوميميا * انه احتمى يوما بالخلق على واحد من شرفا بلاطه
لانه لم يجبره بسجس كان صار في مدينة براغا * ولافراط خلقه
سل سيفا ووثب عليه ليقتله * فامسكه الحاضرون ومنعوه

عن

عن قصد * فللحين اختنق من حصن وسقط علي الارض ميتاً
وهكذا نرفا الملك مات من احتداد خلقهِ * وذكر بلينيوس
عن ديودورس * انه مات موت الفجاة من شدة الخجل الذى
استولي عليهِ لانه لم يقدر ان يجيب جيداً احد الفلاسفة عما اورده
عليهِ من المشكلات * وكم وكم الذين ماتوا بغتة لاجل الم الخوف
اوالحزن * او من قبل الم الفرح او العشق * وفي هذا نورد خبراً
يرثى لهُ * وهو ان رجلاً ما ذا امراةٍ * عشق امراةً اجنبيّة
وعاشرها معاشرة ردية زنائية * فصدر من قبلهما شكوك في
المدينة * فلذلك حرمهما الاسقف * فتابت المراة وارتدت عن
غيها * واما الرجل الذى كانت الشهوة اعمت عقله وملكت قلبه
لم يتب * بل ثبت علي شن * فزار المراة سراً في يوم من الايام *
فلم تقبله بمحبة بل قابلته بوجهٍ عبوس وكلمته كلاماً مراً *
وامرته بالخروج من بيتها حالاً وبالا يعود اليها ابداً * فلما راى
الرجل ما بدا منها من نكران المحبة وعدم الوفا اخذ يعاتبها
ويلاطفها بصوتٍ اسيف بقلب ممزق بالم الشهوة قايلاً * اهكذا
تكافين محبتي بنكرانٍ الجميل ونسيان الحب القديم * واذ كان
يخاطبها بمثل ذلك فلشدة انحصار قلبه وانفعالهِ بالم حبهِ رفع
الحاطه الي العلا بحال من يريد ان يشكو مما هو بهِ من الضيق
فسقط في ساعتهِ علي الارض ميتاً وهلك بخطيتهِ موبداً *

فحقاً

فحقاً حقاً ان اعظم بلايا الانسان هي التي يسببها لنفسه من
قبل امارانه * والى هذا يشير الحكيم بقوله اني مدحت الموتى
اكثر من الاحيا * ووجدت من لم يولد ولم ير الشرور التي تحت
الشمس اسعد حالاً من الاثنين * ولهذا لما تامل تيمون فيلسوف
مدينة اتينا تفاقم شرور الناس الناتجة من الامم المنحرفة
المتجاوزة حدود الصواب * بغضهم جميعهم وصار لهم عدواً
مميتاً * واختار السكني مع الوحوش في البراري افضل من
السكني مع البشر في المدن * ولم يدع احد ان يفتقده غير
السيبياد لعلمه بانه عتيد ان يحارب اهل اتينا حرباً قاسياً *
ثم نصب فيما بين اشجار بستانه خشبات عالية لياتي الناس
المقطوعوا الرجا فيشنقوا عليها ذواتهم * ولانه بعد ذلك دعت
الضرورة ان يقلع هذه الخشبات لكي يوسع داره * فذهب
الى اتينا واخذ ينادي في شوارع المدينة بسماع الشعب قايلاً
اعلموا ياسكان اتينا اني لاجل ضرورة ما قد عزمت على اقتلاع
الاخشاب التي نصبتها لشنق الناس * فمن اثر فيه منكم
روح التوبة والعبادة ويريد ان يشنق نفسه فليتمم قصده
الحميد سريعاً * ولما فرغ من هذه المناداه ارتجع حالاً الى منزله
ثم اذ حضرت ساعة موته رام ان تظهر بغضته الناس بعد موته
ايضاً * فاوصى بالا يدفنوه في الارض لانه مسكن البشر العام

بعد

بعد موتهم * بل علي شاطى البحر *
فحقا ان هذا الفيلسوف الوثني لعدم نور الايمان لم يميز شر
البشر من الطبيعة البشرية * ولهذا زاغ عن الصواب ببغضه
طبيعة البشر * الا انه ابان لنا بفعله كم تكون امارات الانسان
منحرفة عن الصواب * وكم تكون اهلا لان تبغض وتمقت *
على انه يجب علينا حقا ان نبغض هذا العالم الذى لا يرتشد
بحسب انذار العقل بل بحسب مرامر شهواته الجاهلة * ولهذا
ولو انه لا يجوز للمومنين ان يشتهوا مع الفيلسوف المتقدم
ذكره ان يروا الناس مشنوقين * الا انه يجب عليهم ان
* يشتهوا هدم الامهر الردية *

الفصل الثامن

فى كم يكون الانسان دنيا لاجل كونه زمنيا

الا اننا اذ تكلمنا عن الانسان لا نظرا الي رذايله بل نظرا الي
طبيعته فقط * فماذا يكون الانسان وهو شى زمني * قال سينيكا
الفيلسوف ما هو الانسان هو انا مكسر سريع العطب * وقد
اجاد البابا اينوشنسيوس في كتابه الاول عن احتقار العالم قايلا *
اني تاملت الانسان وانا متاسف بانٍ لا ارى ما هو الذى جبل

منه وما الذى يصنعه الان وما هو عتيد ان يكون فيما بعد * فاذا هو قد جبل من الارض * وجبل به بالخطيّة * وولد للتعب والعذاب * ويفعل ما لا يجوز ولا يليق ولا يفيد * اعني اشيا ردية وقبيحة وباطلة * وسوف يكون ماكلاً للدود وطعاماً للنار ومادة للفساد * انتهى كلام الحبر الاعظم *

ولعمرى ان الانسان ليس هو شيأ حقيراً نظراً الي جسده حياً كان او ميتاً فقط * بل نظراً الي نفسه ايضاً * لانه ولو مهما كانت النفس جوهراً شريفاً جدًّا * الّا انه من حيث ان اتحادها مع الجسد يخضعها للرذايل * فتحصل من هذه الجهة مهانة ومستكرهة اكثر من الجسد نفسه * وذلك لاحينما تكون ميتة بالخطيّة المميتة فقط * حاصلة تجاه المليكة اكثر فساداً ونتانة من جثة لها ثمانية ايام * على ان جثة كذا وان كانت مملوة دوداً * فهذه النفس تكون مفعمة شياطين * بل ان حال هذه النفس هو انتن واكرن من حال الجثة المذكورة حينما تكون حية ايضاً * ناجية من الخطيّة المميتة * لان الخطايا العرضيّة والنقايص التي تتدنس بها وان كانت لا تميتها * الّا انها تصيرها اكثر ضعفاً وكراهية من جثة * وبهذا الصدد قد ذكر عن المراة الجزيلة الفضل سانسيا كاريليا عروسة السيد المسيح * انها بعد ارتقايها

الى

الى كمال عجيب * طلبت من عروسها الالهى ان يريها نفسها *
قصدها بذلك ان تختها مشاهدتها سماجة ذنوبها اشد حثا
علي بغضهن * فارتضى رب المجد بطلبتها * فاتفق يوما انها
شاهدت شيخا ناسكا مجتازا من علي باب بيتها * فسالته
قايلة ما الذى تطلبه ياايها الاب المكرم * فاجابها الشيخ ارفعى
طرف رداى فتعلمين مقصودى * فاطاعته البارة وكشفت طرف
رداه * فرات طفلة شنيعة المنظر ووجهها كان مغطى بكثرة
الدباب والدبابير * فحملت الطفلة على ذارعيها وقالت ما هذه
ياابتاه * فاجابها الشيخ انك قد سالت الله ان يريك نفسك
فانظرى الان صورتها في هذه الطفلة * لان هذه الحال حال
نفسك * واذ قال هذا غاب وزالت الرويا * اما المراة العابدة
فاستحوذ عليها التحير والخوف * وسقطت قوتها وتحلت
اعضاوها * واخذها القلق من تامل صورة نفسها في صورة
تلك الطفلة * وسببت لها هذه المشاهدة خوفا عظيما ووجعا
اليما كوجع من يتمزق قلبه بطعن السكاكين * فان كان
الله ارى هذه العابدة الفاضلة نفسها في حال هذه الشقاوة *

فما الذى يقدر ان يفتخر به الانسان الشقى * اذ انه
لايجد في ذاته نظرا الي جسده ونفسه الا
شقاء

الفصل التاسع

في كم تكون الاشيا الزمنيّة خادعة

فالملخص من كل ما قد تقدم ذكره الي هاهنا * ان كل الذى يزول بزوال الزمان هو كذب وخلاع * وان الاشيا الارضيّة ليست هى دنيّة زايلة فقط * بل مملوة خلاعة ومخاطر * ولهذا نرى المراة الزانية المرموز بها عن النجاح العالمي * المذكورة في الاصحاح السابع عشر من سفر الرويا * اذ ظهرت راكبة علي الوحش المعبر به عن هذا العالم * كانت ملتحفة بنحاس رومى يتبين ذهبًا * فكما انه توجد منازل قد بنيت بصناعة نظرية يتصور على حيطانها اشيا بهية جدًا حينما لا تقبل نورًا الا من ثقب صغير * اما اذا فتحت طاقاتها وابوابها واشرق فيها النور من كل جهة * فحينيذٍ يضمحل كل بها تلك الصور فلا يرى منها الا اثر ما خفيف * فهكذا يجرى الامر في الاشيا العالميّة * لان الذين يعرفون الاشيا السماوية قليلًا لاجل ضعف النور الروحى الموجود فيهم * تظهر لهم الاشيا العالميّة عظيمة وبهية جدًا * فينخدعون بها * اما الذين يضى لهم نور الايمان الحيّ فلا يجدون فيها جوهر البهاء والجودة * بل انما يجدون فيها اثر ذلك وظله * فالنجاح العالمي يعد بالخيرات ويعطى الشرور * يعد بالراحة

والطمانينة

والطمانينة ويعطى التعب والسجس * يعد بالفرح والتنعم
ويعطى الحزن والمخاطر والعذاب * وقد يشبه الظل الذى
كلما طال وعلا قرب من الانتها والزوال * فهكذا النجاح العالمي
كلما تسامي علوًا قرب من الزوال اكثر قربًا * فما هو اذًا
هذا النجاح الذى قبل انتهايهِ لايحدى قلب من يمتلكه هدوًا
وراحة * فهل توجد حال تتبين اسعد من حال من يكون
ملكًا * فعن هذ قال الملك قسطنطين الكبير * انها لاشرف
من عيشة الرعيان يسيرًا * الا انها اتعب منها كثيرًا * وقد دعاها
الفنسوس ملك نابولي حيوة حمار * وذلك لاجل جسامة ثقل
حملها * ومن ثم حسنًا قيل في سفر ايوب ان الجبابرة ينوحون
من تحت المياه * وقد فهم البرتوس الكبير بالجبابرة اقويا الارض
الذين تهطل علي ظهورهم مياه الاتعاب المتفاقمة * وداود الملك
نفسه اقر عن ذاتهِ انه كبهيمة تحور قوتها تحت ثقل الحمل * وقد
خبرونا عن انتيغونوس ملك مكدونيا * انه لما تكلل ملكًا
خاطب الاكليل قايلًا هكذا * يا ايها الاكليل الشريف حقًا
ولكن لا السعيد * انه لو تعلم الناس كم تحمل من المخاطر
والاتعاب * لما وجد حسبما اظن من يرفعك من علي الارض
ويضعك على راسه * ولعمرى انه ليس احد من الملوك تمتع
بخيرات هذه الحيوة * وكان يرجو ان يشبع نفسه بكثرتها

نظير

نظير سليمن الحكيم * لانه كان لهُ من النسا الحسنات الف امراة
سبحماية ملكة وثلثماية سرية * وقد عمر قصورًا ونصب رياضًا
وبساتين للصيد والتنزه * وكان لهُ اناس يطربونه بالالات
الموسيقية والاصوات الرخيمة الشجية * ومن جهة خدام بلاطه
فلم يرَ قط نظير ذلك في الكثرة واللطف والنظام * حتي ان ملكة
سابا اندهشت من ذلك ومن عظمة مجد بلاطه الذى لم يكن لهُ
مثيل قط في اسرايل * وكان لهُ من الخيل اربعون الفًا مزينة
بافخر زينة * اما كنوز الفضة والذهب التي خلفها لهُ داود
ابوه فكانت اكثر من كنوز داريوس عشر مرات حسب
حساب المعلم دوداوس * واقول بالاجمال ان سليمن حصل علي
سعادة عالميّة هذا عظم مقدارها * حتي انه هو عينه اندهل
منها فقال هكذا من يستغني ويتلذذ بالتنعم نظيري * ومع هذا
جميعهِ فاذ حكم على هذه السعادة حكمًا مستقيمًا * قال انها
بكليتها باطلة مملوة تعبًا وشقاء * بل انه ضجر منها * وكان
يحسد عيشة الفلاح والفاعل * ويفضل خبزهما الناشف على
كل اطعمة ولايمهِ الملوكيّة * فان كان وفور الغني
واللذات قد خدع مثل هذا الملك الحكيم *
فمن تراه لا ينخدع من
قبلها

الفصل العاشر

في مخاطرات الاشيا الزمنيّة وضررها

ولعمري انه لقد كان الامر اقل شرًا لو يكون حب الخيرات الزمنيّة خادعًا فقط * اعني لو كنا لانجد فيها ما نرغبه ولا ما نخشاه ونهرب منه * الّا ان الامر بخلاف ذلك * لانه ما عدا انه لا يوجد في الخيرات الزمنيّة عسل فانه يوجد فيها سم قاتل * فانظر الى ابيشالوم المفتخر بشعره الذهبي * فقد صار لهُ هذا نفسه حبلًا شنق بهِ * فكم من اناس يحبون الان على هذا النحو غناهم العتيد ان يسبب لهم الموت * فلا يكفي اذًا ان نعد الخيرات الزمنيّة باطلة فقط * بل ينبغي ان نعتقدها خاينة قاتلة ايضًا * وقد اصاب اشعيا وحزقيال النبيان بتشبيههما مصر المرموز بها عن العالم وخيراتهِ بالقصبة التي اذا ما توكى عليها احد تنكسر حالًا وتجرح يده * فهذه الخيرات تصير حيوة صاحبها موتًا * وحالهُ كحال من هو في جهنم لكثرة الهم والغم * والسجس والتعب * والحزن والضيق والضجر * وغير ذلك من الشرور التي تمتزج في اعظم حال من السعادة العالميّة * ولذلك قيل في سفر الرويا ان الموت والجحيم طرحا في بحيرة نار * لان حيوة الخاطي التي يعبر عنها هنا الرسول الحبيب بموت وجحيم * هي

عتيدة ان تلقى في جحيم اخر * لان الخاطى ينتقل من جحيم هذه
الحيوة الزمني * الي جحيم العذاب الابدى * وحقًا انه لامر عجيب
ان الذى يمتنع باللذات الارضية لا يشعر بلذةٍ * وانه في
وسط التنعم يجد الجحيم * ويتعذب فيما بين الافراح * علي انه
ليس بعجبٍ الا يجد الخاطى سرورًا في جهنم حيث لا يوجد الا
شر وعذاب * لكن الامر العجيب هو ان لا يجد سرورًا في هذه
الحيوة في وسط هذه الخيرات الزمنيّة * فيالسو حال هذه الافراح
الارضيّة التي لا تجدى من يحوزها فرحًا * غير ان الله تعالي
يظهر في ذلك حكمة عنايتهِ * لانه كما ان القديسين الذين احتقروا
كل شيٍ زمني وجدوا افراح الملك السماوى في وسط العذابات
كالقديس لورنسيوس الذى وجد فردس النعيم في وسط
الجمر المتقد * هكذا الخاطى الذى لا يحب ولا يستعظم سوى الخير
الزمني * يجد مرارة الموت في عين لذة هذه الحيوة *
الا ان الشي الاوفر شرًا هو ان خيرات هذه الحيوة تسبب شرور
الحيوة العتيدة * وحسنًا قال القديس ايرونيموس * انه لصعب
جدًا ان يمتنع الانسان بالخيرات الحاضرة والعتيدة * وان ينتقل
من الافراح الزمنيّة الي الافراح الدايمة الابدية * وان يكون
معتبرًا ومكرمًا هنا وهناك * لان الذى جعل سعادته في
التنعم فلا ريب انه يذهب منه الي العقاب * والذى تكرمه الناس

الان باطلاً وبغير استحقاق * فانه سيحقر بعدل * وقد اوضح
جيدًا هذا المعني القديس فينسنسيوس فراريوس في مثل الباشق
والدجاجة * لانه ما اعظم الفرق ما بين حيوة هذين الطايرين
وموتهما * فمثل هذا الفرق يوجد ما بين الاغنيا المتنعمين وبين
الذين جحدوا الخيرات الزمنية حبًا بالسيد المسيح * فالدجاجة
تعيش علي المزبلة وتقتات مما فيها * او بقليل من النخالة * اما
الباشق فانه يحمل على الايدى ويأكل لحوم الطيور * ولكن بعد
موتهما يجرى الامر بالعكس * لان الباشق اذا مات يلقى على
المزابل * اما الدجاجة فتوضع على موايد الملوك * فكما ان
يعقوب اسرايل لما بارك افرام ومنسا غير وضع يديه الطبيعى *
وذلك لانه وضع يمينه على منسا الابن الصغير الواقف من عن
يساره * ووضع شماله علي افرام الابن البكر الواقف من عن
يمينه * مقدمًا الصغير علي الكبير ومفضله علي النحو المذكور *
فهكذا يغير الله وضع يديه في ساعة الموت * فيمنح التقدم
للصغار المساكين المهانين في هذه الحيوة * ولذلك قال سيدنا
يسوع المسيح الويل لكم ايها الاغنيا الان فرحكم سيبدل بالبكا
الويل لكم ايها الشباعى لانكم ستجوعون * الويل لمن ابتني هنا
فردوسه فانه سيجد هناك جحيمه * فلنرهبن مما قيل لذاك الغني
البخيل * انك لقد قبلت خيراتك في حياتك * فلانه حاز الخيرات

الزمنية ادركته الشرور الابدية * وقد غير الله وضع يديه بينه وبين
لعازر المسكين * فالغني الذى كان يلتذ في شرب الخمر العطر
الجيد * لم يجد بعد موته من يقدم له قطرة من الما * اما العازار
المسكين الذى لم يكن ينل فتات مايد الغني * فقد تنعم بعد
موته علي مايد سماوية * اعني بالحيوة والسعادة الابدية * قال
ارميا النبى ان نبوزردان النقيب سبي اغنيا اسرايل وساقهم الي
بابل * وترك الفقرا في اورشليم * فهكذا يصنع الشيطان * فانه
يسوق محبي الغني الي بابل اعني الى تبلبل الجحيم * ويترك المساكين
بالروح في اورشليم التي تاويلها رويا السلام بمشاهدة الله في السما
فقد اتضح من جميع ما اوردناه كم يجب علينا ان نحتقر الخيرات
الزمنية * بل كم يجب ان نبغضها ايضاً لكونها خادعة خداعاً
جزيل الضرر * وبالتالي مضرة لنا جداً * لانها تخدعنا لا لكى
نخسر حسن سلامة هذه الحيوة فقط * بل سعادة الحيوة العتيدة
ايضاً * ونعدم الله عينه * فكم تكون بغضة امراة فاضلة عفيفة
لرجل مفسد ياتيها متزديا باثواب زوجها ليخدعها بهذا التظاهر
الكاذب ويفسدها * فباعظم من هذه البغضة يجب ان نبغض
الخيرات الزمنية التي تتظاهر لنا بشكل خيرات حقيقية لكى
تفسد قلوبنا * وتصيرها ان تباين عروسها وخيرها الحقيقى
* الذى هو الله سبحانه *

المقالة الرابعة

في الفرق ما بين الزمني والابدى نظرًا الي عظمة الخيرات الابدية والشرور الابدية وهي اثنا عشر فصلاً *

الفصل الاول

في عظمة الاشيا الابدية

انه وان كانت الاشيا الزمنية هي حقيرة ودنية جدًا نظرًا الي ذاتها كما اوضحنا ذلك بما تقدم * الّا ان خساستها تظهر اكثر ظهورًا بمقابلتها مع عظمة الاشيا الابدية التي نبتدى الان بالخطاب عنها * فاعتبران عظمة المجد الابدى هي جزيلة بهذا المقدار حتي ان القديس اغوستينوس قال هكذا * انه لو التزمنا بان نقاسي اشد العذابات * بل لو التزمنا باحتمال عذاب جهنم عينه زمانًا مديدًا لكي نشاهد سيدنا يسوع المسيح في مجده ونشترك مع قديسيه * لكان يجب علينا ان نحتمل ذلك لكي نكتسب هذا الخير الجسيم والمجد الوسيم * فهذى هي عظمة الخيرات الابدية * لا نظرًا الي كونها ابدية فقط * بل نظرًا الي عظمتها

الغير المحدودة ايضاً * ومن ذلك ينتج ان التمتع بها لو كان قصيراً جداً * لكان يجب علينا مع ذلك ان نختار عذاباً عظيماً ونحتمله الف سنة لكي نحظى بها اعني بالخيرات الابدية ولو يوماً واحداً وفي هذا قال القديس المتقدم ذكره * ان جمال العدل وبهجة النور الابدي لخير عظيم بهذا المقدار * حتي انه لو نعطى ان نتمتع به مدة يوم واحد فقط * لوجب علينا لذلك ان نزدري بالتمتع بجميع خيرات هذا العالم ولذاته باسرها *

خبرونا عن القديس يوردانوس ريس رهبنة القديس دومينيكوس العام * انه اذ كان يوماً يقسم علي الشيطان سالهُ قايلاً * الي اين تشتهي ان تنطلق * واي مكان ترغبه اكثر من كل شي * فاجابه الشما * فقال لهُ القديس ولماذا تهوى الشما * فاجاب لكي اشاهد وجه الله * فقال لهُ القديس وما الذي كنت تفعله او تحتمله لكي تعاين الله * اجابه اللعين اني ابصرته دقيقة واحدة من الزمن ولكي ابصر دقيقة اخرى فارتضى بسرور ان اكابد الي يوم الدين نوعة جميع عذابات رفقاي * فانذهل القديس متحيراً * ثم قال لهُ بعد ذلك حسناً ما قلت * واني اريد منك ان تورد لنا رسم البها الالهي بشبهٍ ما * فاجابه الشقي قايلاً ان سوالك هذا هو عين الجهل * لانه لو جمعت كل بها الخلايق * وكان نور كل نجم كنور الشمس * ونور الشمس كنور جميع النجوم

جملة * ثم جمعت هذا النور والبها جميعه * لكان ذلك بالنسبة
الي جمال الله كليلة مدلهمة بالنسبة الي النهار الاوفر ضياءً * فهذا
ما اقربه اللعين معترفًا * مع انه يجب ان تعلم ان الشيطان ما
ابصر الله قط بالوضوح الذى به تعاينه الان الملئكة في المجد
الابدى * بل انما شاهد الله مشاهدة غير كاملة * وذلك بدقيقة
واحدة * كمن يذوق شيأ يسيرًا من شيءٍ ما بوجه الاختبار *
ومع هذا فقد تمني ان يقاسي عذابات جهنم بمدة هذا عظم مقدارها
ليتمتع بمشاهدته تعالي بدقيقة اخرى من الزمن علي ذلك النوع
الغير الكامل * فماذا تكون اذًا مشاهدته تعالي بكمال الوضوح
الي ابد الابدين *

ثم يجب ان نعتبر ما قد لحظه القديس انسلمس * وهو ان خيرات
هذه الحيوة وشرورها تختلف عن خيرات الحيوة العتيدة وشرورها
وذلك لان هذه الخيرات والشرور الحاضرة ليست هي بخيرات
محضة ولا بشرور محضة * حيث ان خيرات هذه الحيوة هي
ناقصة ممتزجة بشرور كثيرة * وشرور هذه الحيوة هي خفيفة
لانها ممتزجة بخير ما * اما خيرات المجد الابدى في الحيوة العتيدة *
فهي خيرات محضة عظيمة غير ممتزجة بشر ما * ومن ثم لا يمكن
ان يضجر احد منها * وكذلك الشرور الابدية في جهنم هي
شرور محضة غير ممتزجة بخير او علاج ما * وبالتالي غير محتملة

قال

قال المرتل ان الله ابعد عنا سياتنا كبعد المشرق من المغرب وقد يمكننا ان نقول ايضاً انه تعالي ابعد عن القديسين الالم والعذاب كبعد المشرق من المغرب * ولعمري ان هذا البعد الروحي بعد الخيرات الابدية هو اوسع بغير قياس من البعد الجسمي الذي بين السما والارض * الا انه لكي نتصور ذلك ونفهمه علي نوعٍ ما * فنتكلم قليلاً عن هذا البعد الحسي * لكي نعلم كم مقدار ما تفوق خيرات السما علي خيرات الارض * قال المعلم الفلكي الجليل كلافيوس اليسوعي * ان فلك القمر الذي هو اوطى جميع الافلاك * هو بعيد عن كرة الارض مية وثمانين الف ميل وانه لو يلقي حجر الرحى من الفلك الثامن الذي هو اعلي الافلاك ودون السما العلي مسكن المليكة والقديسين * لم يمكن انه يصل الي الارض الا بعد تسعين سنة * مع ان الحجر يقطع في كل ساعة مايتي ميل * وقد زعم اخرون من العلما الفلكيين واللاهوتيين ان بعد الارض عن الفلك الثامن * هو اقل كثيراً من بعد هذ السما عن السما العلي مسكن الطوباويين * ومن ذلك ينتجون انه لو يعيش احد الفي سنة * ويمشي كل يوم مية ميل لم يصل بعد الفي سنة الي ادني سما النجوم * واذا مشي هكذا الفي سنة اخري * لم يقطع سمك هذ السما * واذا مشي بعد ذلك علي النحو المذكور اربعة الاف سنة اخري * لم يصل الي ادني

سما المليكة والقديسين فيالقدرة الهنا ومخلصنا يسوع
المسيح * الذى يمشينا هذه المسافة الشاسعة بدقيقة واحدة من
الزمن * فهذا الفكر عينه كان يعزى ويشجع تلك المراة الشريفة
التي استشهدت في بلاد الانكلز * لانه بعد ان وضعوها علي
حجر رفيع وجعلوا فوق صدرها حجرًا ثقيلًا جدًا * ورات قومًا
من الحاضرين يرثون لها قالت لهم هكذا * لماذا تحزنون عليّ
انا العتيدة بعد زمن وجيز ان ارتقى فوق القمر والشمس * وادوس
برجلىّ علي النجوم والجو سما السموات وطن المليكة والقديسين
فاذا تقرر ذلك نقول * انه بمقدار هذا البعد الكاين ما بين السما
والارض * يكون بعد الخيرات السّماوية عن الخيرات الارضية
فيالغباوة الذين يبدلون اتساع السّما الغير الموصوف بشبرٍ من
الارض * ومن اجل خير جزى وقتي يعدمون لذاتٍ عظيمة
ابدية *

وهكذا اذا ما قابلنا شرور هذا العالم وبلاياه مع عظمة الخيرات
الابدية * فنجدها كلا شي * خبرنا القديس انطونينوس اسقف
مدينة فلورنسا * عن رجل شرير افتقده الله بمرض مستطيل
ليرده به الى طريق الخلاص * فاستثقل الرجل المذكور اطالة
مرضه ووجده غير محتمل * ولذلك بعد تقدمة التوبة عن
خطاياه طلب من الله مرات كثيرة ان يخرجه من سجن جسده

فترای لهُ ملك واورد لهُ شيين من قبل الله ليختار منهما ما يشاه *
وهما اما انه يمكث سنتين ايضاً في هذا المرض * واما انه يموت
حالاً ويلبث في المطهر ثلثة ايام * فاخذ المريض التايب يقابل
ثلثة ايام في المطهر مع سنتين في حال مرضه الاليم الذى كان
قد ضجر منه جدًا * فراى ان يختار مكث ثلثة ايام في المطهر
ولا ان يبقى سنتين طريحاً علي فراشهِ متململاً باوجاعه *
فتوفي حالاً وانحدرت روحه الى المطهر * فاذ كملت لهُ ساعة
واحدة ظهر لهُ ملك الرب ليعزيه * ثم بعد التعزية قال لهُ اما
تعرفني فاجابه ذاك كلاّ لست اعرفك * فقال لهُ الملك اما انا
الملك الذى ارسل اليك من الله لتختار اما ان تتعذب هنا ثلثة
ايام واما ان تبقى علي فراشك في حال اوجاعك سنتين * فاجابه
ذلك الحزين المسكين انه لمن المستحيل ان تكون انت ملكاً
سماويًا لان الملك لا يكذب * وانت قد كذبت عليّ بقولك
ليّ اني لا امكث في هذا السجن سوى ثلثة ايام فقط * وها ان ليّ في
هذا العذاب اكثر من سنة ولم ينتهِ * فقال لهُ الملك اعلم انه ليس لك
هاهنا اكثر من ساعة واحدة * وجسدك لم يبرد بعد ولم يقبر
فحينيذٍ اخذ يتوسل اليه الرجل المعذب قايلاً * فسل اداً
يامولاى الله ان يتغاضى عن جهلى الذى بهِ اخترت هذ الحال
واستمح ليّ من مراحمهِ ان يردني الي الحيوة لاحتمل مرضى لامدة

سنتين

سنتين فقط بل طالما يشا هو عز وجل * فقبل الله طلبته وانهضه
من موته واعاده حيًا * فصار يرى جميع اوجاع هذه الحيوة
خفيفة يسيرة بالنسبة الي ما اختبره من عذاب المطهر * ولم يكن
يحتملها بصبر فقط * بل بسرور وابتهاج ايضًا * فان كان هذا
حال عذاب المطهر * فماذا يكون عذاب جهنم * وان كان ساعة
واحدة من عذاب المطهر تتبين كسنة تحوى اكثر من احد عشر
الف ساعة * فلا شك في ان ابدية عذاب جهنم تتبين كاحد عشر
الف ابدية * فما اغلى لذات هذا العالم الحسية الوجيزة التي
يكون ثمنها هذا العذاب المستطيل * وما اخف العذابات
الارضية واقصرها التي هى كلا شي بالنسبة الي العذابات
* الابدية *

الفصل الثانى

في عظمة شرف القديسين واكرامهم الابدى

لنعتبرن الان علي وجه الخصوص عظمة خيرات الحيوة العتيدة
الحاوية كل نوع من الغني والكرامات واللذات الملايمة النفس
والجسد * ولنبتدين الخطاب عن الاكرام المرغوب جدًا من
الخلايق الناطقة * ذلك الذى وعد به السيد المسيح الذين يحبون
الان الاتضاع قايلًا * الذى يغلب فانا اعطيه المن الخفى * واعطيه

حصا ابيض مكتوبا فيه اسم جديد لا يعرفه الا من ياخذه *
فيالهُ من مجد عظيم * انه قد ذكر عن سابور ملك الفرس انه
كان يحب الشرف والاكرام بافراط هذا حد حتي انه سمى
نفسه اخا القمرين وخليل الكواكب * وصنع لهُ قصرًا رفيعًا
من بلور بصيغة كرة محكمة بصناعة لطيفة * حتي اذا ما جلس
علي هذه الكرة * كانت الشمس والقمر والكواكب المصورة
هناك * تصعد من تحت رجليه وتستدير حول راسه شبه
اكليل منير * وقد احتسب هذا الاكليل المصنوع من
صورة السما اكراما عظيما ومجدًا جسيما * فماذا يكون
اذًا اكرام القديسين العتيدين ان يجلسوا حقًا علي الشمس
والكواكب * بل علي منبر ابن الله عينه * ويمتدحون لا من
البشر فقط * بل من الملئكة ورب الملئكة ايضًا * خبرنا
اكليمنضوس الاسكندري * انه كان يوجد في بلاد الفرس
ثلثة جبال * فمن كان يبلغ الي الجبل الاول يسمع صوت
قعقعة سلاح اناس محاربين * ومن يبلغ الى الجبل الثاني كان
يسمع ذلك باوضح بيان * اما الذي يصل الى الجبل الثالث *
فلم يكن يسمع سوى اصوات الابتهاج وتراتيل نشايد الافراح
علي الانتصار * فهذا نفسه ما يجري في شان الابرار * لانهم
يجوزون ثلثة جبال سرية رمزية * اعني بها العقل النطقي *

والنعمة

والنعمة * والمجد السماوى * فالذى يبلغ الادراك يشعر بحرب
الرذايل * فيحاربها بواسطة النعمة ويظفر بها * واذا ما حصل
علي المجد السماوى * فيسمع اصوات الفرح وتراتيل التهاني علي
الانتصار * ويتوج باكليل ثمين جزيل الاعتبار * ولعمرى
ان الجلوس مع الملك على مايدنهِ هو شرف عظيم ومجد جسيم
الا انه لم يسمع قط ان ملكاً ما خدم عبد * حتي ان هذا لم
يدخل في عقل بشر * ولذلك حسناً قال المرتل ان اصدقا الرب
مكرمون جدًا * وهذا النبي والملك نفسه قد ظن بانه قد شرف
مبوشت شرفاً عظيماً اذ اجلسه علي مايدنهِ * مع ان مبوشت
كان من اصل ملوكي وابن يوناتان الذى بهِ كان قد نجى داود
من الموت * وهامان الذى لم يرُ علي الارض اكثر منه تكبراً
قد ظن انه لايمكن ان يشرفه احشورش الملك بشي اعظم من
هذا * وهو ان يامر الاكبر قدراً في اهل دولتهِ * بان يمسك
بلجام فرسه حينما يركب * ويمشي امامه هكذا في المدينة اذ
يكون هو راكباً علي جواد الملك * الا انه لم يخطر ببالهِ ان
يمسك الملك نفسه بلجام جواده * اما الاكرام الذى بهِ يشرف
الله قديسيه * فيفوق عقل كل بشر * لانه بعد تكليلهِ اياهم
بمجد لاهوتهِ * وبعد ان يكون مخبرهم ذاته ليحظوا بهِ عز وجل *
يكرمهم ايضاً محاسنهم وانتصاراتهم باكرام فايق * فقد ذكر

المعلم توما الكانتيبراني عن اسكندر ابن ملك سكوسيا * انه
ظهر لراهب متوجاً بتاجين * فلما سيل عن سبب ذلك * اجاب
ان التاج الذى علي راسي هو التاج المشاع لكل من القديسين *
اما التاج الاخر الذى في يدى * فهو ثواب لتركى ملكى الزمني
لاجل السيد المسيح * هكذا الشهداء والعذارى والمعلمون فانهم
يزهرون باكاليل خصوصية * حتي الاعضا التي بها يمجدون
الله بعبادة خصوصية تتشرف بمجد خصوصى * فباى مجد
يزهر جسد القديس استافانوس اذ ينبعث من كل جزء من
اجزايه التي رجمت بالحجارة اشعة نور خصوصى يبهر العقول *
وما امجد ما يكون النور الذى يتردى به القديس برتولوماوس
الرسول * لاجل سلخ جلده حياً بالسيد المسيح * وباى نور
ساطع تبرق اعضا القديس يعقوب الذى قطع جسده اربا
اربا * بل المعترفون ايضاً ستضى اعضاوهم التي مارسوا بها
تقشفات خصوصية * انه قد ذكر عن القديسة ميكتيلدا *
ان القديس يوحنا الانجيلى ظهر لها وعيناه بهيتان مزهرتان
بنور وبهاء عجيب * وذلك لانه لم يجسر قط ان يرفع نظره الى
وجه الجليلة مريم البتول * لجزيل احترامه اياها * فما اعظمك
ياايتها الكرامات الغير الخاضعة للخطر ولا للزمن والغير المتعلقة
بارادة البشر * انك ستدومين غير محوة الى الابد * فالذى

يمجد هنا اجساد القديسين مجدًا عظيمًا ترى كيف يمجد انفسهم
في السما * ما اكثر المعجزات التي صنعها ويصنعها بواسطة
ذخايرهم * خبرنا القديس يوحنا الذهبي الفم عن القديسين
يوفنسيوس ومكسيموس * انه كان ينبعث من ذخايرهما نور
عجيب لم يقدر احد ان يحتمل مشاهدته * وقد اخبر القديس
سولبيسيوس عن القديس مرتينوس * ان جسمه بعد موته
حصل على حال جسد ممجد * لان لحمه ظهر مضيًا كالبلور
وافضل بياضًا من الثلج * وما اكثر العجايب التي صنعها الله
بجسدي القديس اودوارد وس والقديس فرنسيس كسافاريوس
اللذين حفظهما من الفساد * فان كان الله يصنع هكذا مع
اجساد عبيده الموضوعة تحت الثرى * فماذا يفعل بانفسهم التي
ادخلها الى السما * وماذا عتيد ان يصنع مع اجسادهم وانفسهم
معًا حينما تتحد في يوم الدينونة وتدخل منتصرة الى مدينة الله
* المقدسة الابدية *

الفصل الثالث

في غنى السما وملكه الابدي

ان غنى الملكوت السماوي يضاهي مجده * وقد اوضح لنا هذا
السيد المسيح بامثال وتشابيه كثيرة * لانه جل ذكره دعاه

كنزًا خفيًا * ولولوًا كثير الثمن * ومبلغًا عظيمًا من المال *
ولعمري انه ان كانت سعادة القديسين متوقفة علي التمتع بالله
الى الابد * فلا ريب في انه لا يوجد كنز يضاهي هذا الكنز *
ولا امتلاك اعظم واغني من هذا الامتلاك * اى من امتلاك
الانسان الله سبحانه * لانه اية وراثة اكثر ثمنًا من وراثة
السما * وايما ذهب انقى من خالق الذهب * الذى يقدم لنا كل
غني ذاته لنمتلكه * وذلك ليلا نتعكف على امتلاك خيرات
الارض الدنية المضنية السريعة الزوال * ثم انه ما عدا هذا الغني
العظيم الذى هو الله * فان غني الملكوت عينه لعظيم بهذا
المقدار * حتي انه به وحده يحصل كل قديس ملكًا عظيمًا *
وقد قال العلما الفلكيون عن اتساع السما * انه لو يعطى الله كل
قديس جزءًا منها يساوى اتساع الارض كلها * لبقى منها ما يكفى
لان يعطى لاخرين كثيرين * وقد زعم بعض من المعلمين
اللاهوتيين * انه لو يصير الله كل حبة من الرمل الذى علي
شاطى البحار عظيمة ككرة الارض * لم يكن هذا الرمل كله كافيًا
لان يملأ وسع السما الذى تسعه المدينة السعيدة العلي المبنية
كلها من ذهب وجواهر كريمة * وابوابها جميعها من لولو عجيب
ومادة اسوارها من حجر اليصب * واليا قوت الازرق * والنجادى
والزمرد * والعقيق * واليا قوت الاحمر * والمها * والبلور *

والياقوت الاصفر * والزبرجد * والاسمانجوني * والكركهن *
كما يذكر ذلك في الكتاب المقدس *
خبرونا عن القديس فرنسيس * انه اعتراه وجع عظيم في
عينيه لم يدعه ان يذوق نوما البتة * وزاد الشيطان علي الامه
بتجاربه له * لانه املا قلايته فارا * اما القديس فكان يشكر الله
علي ذلك بصبر عجيب * لانه تعالي ارتضى ان يعذبه هكذا برحمة
قايلا * ياسيدى يسوع المسيح * اني لاستحق عذابا اعظم من
هذا * فلذلك اسالك شيا واحدا لاغير * وهو الا تسمح بان
تبعدني التجربة عنك * فحينيذ سمع صوتا من السما قايلا له *
يافرنسيس * انه لو تكون الارض كلها ذهبا صافيا * والانهر
جميعها بلسما * والجبال والقصور باسرها الماسا * اما كنت
تحسب هذا كنزا عظيما * فاعلم ان الكنز المذخر عندى في السما
هو افضل من ذلك * بمقدار ما يفضل الذهب علي الطين *
والبلسم علي الما * والماس علي التراب * فقد اصاب ادا القديس
فولجنسيوس * الذى لما دخل الي رومية وتفرس بعظايمها
وجلال بهايها صرخ قايلا * ان كانت رومية الارضية هكذا مفخمة
بهية * فماذا يكون حسن بها جمال اورشليم السماوية *
فهذا الغني الذى ليس له نظير ولا مثيل * يصير كل قديس
ملكا * وليس ان السما تكون ملكا لجميع القديسين معا

فقط

فقط * بل ان كلاً منهم يمتلكها كلها ايضاً * وذلك كما ان
الشمس التي تسخن الجميع معاً تسخن كل واحدٍ منهم ايضاً *
حتي كانها هي لاجلهِ وحدهُ * اما مفعولات الغني السّماوي فانها هي
اجل واشرف جدًّا من مفعولات الغني الارضي * لان الغني
الارضي لايفيد الّا لاكتساب الاقتدار واللذات والكرامات *
والحال ان كل الذهب الموجود علي الارض لايقدر ان يصير هذه
الاشيا ناجية من الضعف والاهانة والتعب الجزيل * قال يوماً
واحد لفيلبوس الثاني ملك ايسبانيا * اذا امرت حضرتك الشعب
المروس منك بشيٍ ما * فاجابك الجميع قايلين لانطيعك اصلاً * فما
الذي كنت تفعله * قال هذا مشيراً بهِ الي ان اقتدار الملك متعلق
بارادة الغير * فاما اقتدار القديسين في السما فليس هو بمتعلق
بقدرة اخر * وهو عظيم بهذا المقدار حتي قال القديس انسلمس
انه لايوجد مضاد قوي يقوي على ان يقاومه * فلو اراد احد
القديسين السّماويين ان ينقل جبلاً من مكان الي مكان اخر *
لكان فعل ذلك باوفر سهولة واكثر سرعة مما نحرك نحن
حدقة عيننا * ثم ان كرامة القديسين هي عظيمة بهذا المقدار *
حتي ان الشياطين انفسهم يكرمونهم * اما لذاتهم فلا يشوبها
نقص من غم وهم * فهو من المحقق عندنا الان ان الكرامة
والفايدة واللذة لاتوجد هنا متحدة الّا في النادر جدًّا * وغالباً

توجد *

توجد احداها منافية للاخرى * فالدوا المفيد نجده مرًا * واللذة تسبب الهوان * وبالكد الكلّي يقترن الاكرام مع المنفعة * اما في السما فالامر بخلاف ذلك * حيث ان الغني الابدى يحوى هذه كلها ويجمعها * فيجعل ما يفيد لذة مسببًا كرامةً * وما * يسبب كرامةً مفيدًا ونافعًا *

الفَصْلُ الرابعُ

في عظمة الافراح الدايمة

اعلم ان فرح القديسين الطوباويين الاخص هو الحظوة بالله * لانه كما ان الغايات واللذة والكرامة في السما لا ينفصل بعضها من بعض * بل تكون مقترنة علي الدوام * فهكذا النفس الطوبادية لها ثلث صفات غير قابلة الانفصال بعضها من بعض * وقد تقتضيها حال هذه النفس بضرورةٍ جوهرية * وهذه الصفات تضاهي الثلثة الخيرات المتقدم ذكرها * فالصفة الاولي هي مشاهدة الله عيانًا * وبها يكلل الله استحقاقات ابراره * ولعمري ان تكليل فضايل الابرار الذى يكون امام المليكة * وتيلهم هذا الثواب الجسيم الذى يساوى ثمنه عظمة الله * هو اكرام لاحد له ولا قياس * والصفة الثانية هي حظوة النفس السعيدة بالله كانه غناوها وورانتها * والصفة الثالثة هي الفرح الغير

المدرك المقترن بهذ المشاهدة وهذا الامتلاك * وهذا الفرح
الصادر في النفس من المشاهدة الالهيّة * يمتد الي الجسد ويزينه
بصفات شريفة بهية جدًا * فياليت يمتثل بازاينا جسد احد
القديسين الطوباويين مع صفات مجده العظيم * لكي نعلم على
وجه ما عظمة نور النفس التي تزين الجسد بمثل هذا البها العظيم
وجزيل سروره وفرحها * انه لا يوجد في العالم شي لا يميل
الي بلوغ كمالٍ ما * وبمقدار ما يكون الكمال اوفر عظمة بقدر
ذلك يسدى امتلاكه اوفر سرورًا * والحال ان الكمال الالهى هو
الكمال الاعظم * فهذا نفسه الذى احب سخا الله الغير المتناهى
ان يشرك فيه المليكة وانفس المختارين * مع ان طبيعتهم
لم تقتضى ذلك * وما عدا ذلك * فبمقدار ما يكون الموضوع الملذ
متحدًا بالقوة الممتلكة اياه اشد اتحادًا * بمقدار ذلك تكون
اللذة الصادرة عنه اوفر عظمة * والحال ان الله في السما يتحد
بالنفس اتحاد التلاثم والاعتناق الاشد عزمًا * ويكون الله
الموضوع الافضل لذة * فمن ثم يكون السرور الناتج عنه يفوق
كل ادراك مخلوق بما لا يحد ولا يقدر * فترى ماذا يكون سرور
النفس المتمتعة بجمال الخالق وبجميع كمالاته * فان كان يعقوب
اب الاباقد اعد خدمة عبدية مدة اربع عشر سنة شيأ يسيرًا
لحصوله بها علي جمال راحيل * فاى تعبٍ يتبين لنا عظيمًا ان

كنا نبلغ الي الحظوة بالله * الذى باز اء جماله يظهر بشاعة شنعة
اعظم جمال مخلوق * فقد كان ابيشالوم وادونيا حسني المنظر *
وكان من يشاهدهما ينفرج صدره ويتعزى قلبه بمنظرهما * ولكن
لو امتثل امام الناظر اليهما شخص اخر يفوقهما حسنا وبهاء بعشرة
اضعاف * اما كان الناظر حول نظره حالا عنهما ليعاين من هو ابهى
واجمل منهما * ثم اذا ظهر له شخص اخر اوفر حسنا بمية ضعف
عن السابق اما كان اصرف نظره ثانية عن ذاك واحدق به الى
هذا * وتضاعف فيه سروره بمقدار تضاعف بهاء الموضوع *
والحال ان الله يفوق جماله علي هذه كلها بما لا يحد * وجماله هو
مقترن بالحكمة والقدرة والقداسة والسخا والجود * وغير ذلك
من الكمالات الالهية الغير المحدودة في عظمتها * فمن ذا الذى
يشاهد هذا الموضوع الالهي ولا تسر نفسه وتلتهب بمحبة ذات
عذوبة غير موصوفة * فلو يحظى احد بان يشاهد عجايب الدنيا
السبع * او يحضر وليمة احشورش الملك وغيره من الملوك
المعظمين * ويتمتع بمفترجات الرومانيين * ويلذ بسماع الانغام
الموسيقية * ويستنشق اشهى الروايح الزكية * ويمتلك كنوزا
اغني من كنوز داود * اما كان يحسب نفسه سعيدا اذا علم
انه يتمتع بجميع هذه الخيرات مئة سنة * ثم ان زيد على
ذلك ان يكون اكثر حكمة من سليمن * واعلم من ارسطو *

واذكى من اياس * وافصح من شيشرون * واقوى من شمشون
واجمل من ابيشالوم * فكم كان يسر بابتهاج جسيم وعزاء
جزيل * مع ان هذه جميعها اذا ما قابلناها مع المشاهدة الالهية *
فلا تكون الا بمنزلة الرصاص والتراب بالنسبة الى الذهب
والماس * اذ انها بهذه المشاهدة تمتلك جميع خيرات
الخلايق وعظايمها * فنجد فيه تعالى علي نوع اكمل جدًا كل غني
الذهب * وضيا الشمس * وحلاوة العسل * ولذة الانغام
الموسيقية * وجميع لذات الحواس * ثم اعتبران هذا السرور
الناتج من هذه المشاهدة الالهية * ليس هو غير موصوف نظرًا
الي عظمته فقط * بل انه هو فايق الادراك نظرًا الي كثرته ايضًا
لانه يكثر بمقدار كثرة النفوس والارواح السماوية المتمتعة بمشاهدة
الله * علي ان كل واحدٍ من الطوباويين يسر ويبتهج سرورًا
وابتهاجًا خصوصيًا من حظوة كلٍ منهم بهذه المشاهدة
السعيدة * ولذلك من حيث ان عدد القديسين هو غير محصى *
ستكون افراح كلٍ منهم غير محصاة * فلنبتهجن اذًا نحن
المسيحيين المدعوين الي هذه الخيرات العظيمة * ولنتهالن من
انه تعالي قد خلق السما لاجلنا * ولتتعزى قلوبنا وتتقوى برجاء
هذه الافراح العظيمة * وفي هذا خبرنا الانبا بالاديوس عن
الانبا افولو * انه كل من كان يجد راهبًا حزينًا مكتيبًا * فكان

يعانيه هكذا قايلاً * كيف يمكن ياخي ان نحزن ونكتئب * فليحزن
اولئك الذين لارجا لهم بالدخول الى السما * اما نحن فلا يليق
الحزن بنا بعد ان وعدنا السيد المسيح بسعادة المجد الابدى *
وقد ذاق ايليا النبي يسيرًا من هذا السرور السماوى فاغلق حالاً
ابواب حواسهِ بوضع ردايهِ على هامتهِ * وهكذا الانبا
سيلوانس كان عند فروغهِ من الصلوة يغض عينيه عن النظر
الى عظايم الارض * معدها غير اهل لالان تمتلك فقط * بل
لان ترى ايضاً * وذلك بنسبتها الي عظايم السما التي يجب ان
* نجعل كل لذتنا في رجا امتلاكها *

الفصل الخامس

في شرف اجساد القديسين وكمالها في الحيوة الابدية

انهُ لما شاء هيرودس ان يظهر عزهُ ويمجد نفسه * لبس ثوبًا فاخرًا
مرصعًا بالذهب والجواهر الكريمة * الا انهُ لكي يظهر بريقه
ولمعه فاحتاج الى شعاع الشمس * ولاجل هذا اللمع اليسير
دعاه الشعب الهًا * فكيف اذًا يكرم البار في الحيوة العتيدة
حينما يكون لابسًا لا ثوبًا ذهبيًا * بل متوشحًا بالشمس
بل اكثر منها نورًا ولمعًا * فالذى يتختم هاهنا بخاتم من حجر

الماس في يد يعد ذلك شرفاً عظيماً * فماذا يكون شرف
جسد الصديق اللامع بما يفوق علي كل جمر كريم لميعاً ليس
بمستعار * بل متعلق ومختص بجسده * فلا يحتاج الي الشمس
التي تحتاج الان اليها حياتنا احتياجاً كلياً * لانه لا يكون
ليل للبار * بل يكون هو بذاته نهاراً الذاته * فهل توجد عزة
اعظم من كون انسان افضل لميعاً من الشمس عينها سبع
مرات * يشمل ذاته بذاته بنور وشرف يفوق علي ما يستطيع
ان يفعله كل الجنس البشري لو يرافقونه حاملين في ايديهم
مناير ومصابيح * ان القديس بولس الرسول لما شاهد لمحة
نور بارق من السيد المسيح * عدم النظر واستقام اعمى بعض
ايام * والقديس يوحنا الانجيلي لما راى نور وجهه تعالي سقط
علي الارض كميت * ولم يقدر جسده القابل الموت ان يحتمل
مشاهدة نور تلك العزة العظيمة * والقديس بطرس هامة
الرسل اذ ابصر شعاعاً واحداً بارزاً من جسده تعالي يوم التجلي
استعظم ذلك جداً * واعد ذلك المكان سعيداً بهذا المقدار *
حتي انه لم يرد الانطلاق منه * الا انه ليس بعجب ان تظهر
هذه الصفة المجيدة في جسد السيد المسيح * بعد ان ظهرت
في وجه موسي القابل الموت * اذ عم النور وجهه حتي لم يقدر
الشعب الاسرايلي ان ينظر اليه * خبرنا كيساريوس عن رجل

ما من علما مدرسة باريس * انه لما اقتربت ساعة موته * طفق يتامل كيف يستطيع الله ان يصير جسده الحقير منيرا لامعا مثل الشمس * فاحب الله ان يعزى عبده ويثبته عند موته في حقيقة قيامة الاجساد * فافاض من رجليه نورا عجيبا بهذا المقدار * حتي لم يقدر ان يحتمل النظر اليه * وهذا عجيب حقا في اجساد مايتة اى قابلة الموت * الا انه يكون اعجب جدا في اجسادٍ ميتة * ففي هذه عينها ظهر هذا النور السماوى علي نوع يدهش العقول * كما ظهر في جسد القديسة مرغاريتا ابنة ملك اونغاريا وفي جسد غيرها ايضا * فان كان قد ظهر مثل هذا النور والبهاء في اجسادٍ مجردة من النفس * فكم يكون باضعاف ذلك في اجساد القديسين بعد القيامة حينما تكون متحدة بنفس مجيدة ومتصفة بحيوة موبدة * فماذا يكون نور السما المركب من جميع هذه الانوار * والاجدر ان نقول من جميع هذه الشموس * وان كان السرور الحاصل من النظر * يزاد في كل واحدٍ من القديسين بمقدار عدد الاجساد المنيرة * فما هو مقدار الفرح الواصل اليهم من هذا المنظر البهى *

ثم ان القديسين المتوشحين بهذا النور العجيب والممتلين منه يشتركون ايضا بخاصاته * ومن جملة خواص النور الا يقبل التضاد * ولذلك هو غير قابل الالم والفساد * فهكذا تكون

اجساد

اجساد القديسين المجيدة * اعني غير قابلة التالم ولا ما يضادها *
ومن خواص النور الخفة والسرعة حتي انه لا يوجد شي اكثر
منه خفةً وسرعةً * ولهذا نرى الاجرام الاكثر ضياءً هي
اكثر خفةً وسرعة * فالعنصر الاشد عزماً في جريه هو
عنصر النار المركبة من النور * وقد نرى الشمس والكواكب
النيرة هي اسرع ما يوجد في العالم * والنور عينه هو سريع
بهذا المقدار * حتي انه في دقيقةٍ واحدة من الزمن يمتد ويبلغ
الي اقصى حدود دايرته * فهكذا تكون خفة الاجساد المجيدة
وسرعتها * بل انها تتحرك بسرعةٍ اعظم من سرعة حركة
الكواكب * ثم انه من خواص النور ان يخرق الاجسام *
وليس شي يمنعه عن ذلك * ولذلك تكون رقة الاجساد المجيدة
ودقتها ولطافتها اعظم من ذلك * فتخرق وتنفذ اشد الاجرام
صلابة وكثافة * وبالنتيجة ان الخيرات المحتوية في هذه الصفات
التي هي خاصات الاجساد المجيدة * تنافي شرور هذه الحيوة
جميعها * لان الصفة التي تصير الجسد غير قابل التالم * ترفع كل ما
يولمنا هنا ويعذبنا * اعني برد الشتا وحر الصيف * وجميع
الامراض والاوجاع والاحزان والبكا وضروريات الحيوة كافة *
ولا محالة ان هذا لخير عظيم * لانه بمجرد ارتفاع ضرورة الاكل
ترتفع هموم عديدة * تامل كم يتعب الانسان لاجل حفظ

الحيوة * فالفلاح يكد ويتعب في خدمة الارض * والراعي يلتزم
ان يعيش في الفيافي محتملاً الحر والبرد * والخادم والمستاجر
يلتزمان بالخدمة والخضوع للناس * والغني بتدبير اموره بهمٍ
وخوف * فما اكثر الاخطار والاتعاب التي يعانيها الانسان في
كل دعوة لكي يحصل علي القوت الضروري * اما البار فينجو
من هذ كلها بتلك الصفة السعيدة التي تجعله غير قابل التالم *
وهكذا ضرورة الكسوة والعافية الخاضعة لامراض كثيرة * قد
تحدث عنها هموم واتعاب جزيلة * وقد نجى منها جميعها من
هو غير قابل التالم * حتي لو دخل الجسد المجيد جهنم نفسها لم
تحترق منه شعرة واحدة *
وهكذا صفة الخفة هي خير عظيم * وقد يمكن ان نفهم ذلك
من جزيل اتعاب من يسافر سفرًا مستطيلاً * فما اكثر ما
يكابد من المخاطر * وما اعظم ما يحتمل من الاتعاب في كل مسافة
وما اعز الاشيا التي يحتاج اليها لحفظ صحته من المرض * فالجسد
المجيد يحصل بلحظة عين حيث يشا * ويكون لديه قطع ربوات
ربوات من المراحل كقطع مسافة صغيرة او خطوة واحدة * اننا
لنتعجب مما ذكر عن القديس انطونيوس البادواني * وهو انه
بساعات قليلة انتقل من بلاد ايطاليا الي مملكة بورتوغاليا
لينقذ اباه الذي كان قد حكم عليه بالموت * ومن ان القديس

اغناتيوس موسس رهبنتنا ذهب في اقل من ساعتين من رومية
الي كولونيا ومن كولونيا رجع الي رومية * مع ان ذلك يحتاج
الي سفر ثلثة اشهر * ولعمري اننا لقد كنا نعد سعادة عظمى لو
يمكننا في مدة ساعة واحدة ان نبصر كل عظايم مدينة رومية وفي
ساعة اخرى ان نصل الي القسطنطينية * وفي ساعة اخرى الي
مصر * ومن هناك الي الهند بمدة ساعة ايضاً * وهكذا نشاهد
كل عظايم المسكونة بزمن وجيز * فماذا تكون اذاً سعادة
القديسين الذين يقدرون بمدة ما وجيزة من الزمن ان يجتازوا
كل فضا السموات * ويطوفوا الارض كلها * ويتفرسوا بكلما
يوجد فيهما * انه قد ذكر القديس غريغوريوس في محاورانه
ان رجلاً جندياً هجم علي رجل تقي مجرداً سيفه ليقتله * فاذ
رفع يد ليضربه * وراى ذاك نفسه حاصلة علي خطر الموت *
صرخ ملتمساً العون الالهي قايلاً يامار يوحنا امسك يد * وفي
تلك الدقيقة مسكت يد الجندي ولم يقدر ان يحركها * فما اعجب
هذه السرعة في استماع الاستغاثة وسير القديس لمساعدته *
فسرعة الاجساد المجيدة توازي سرعة الارواح * لقد تعجب
الناس من القديس كيرينوس والقديس مورس والقديس
فرنسيس البولي * لانهم ساروا علي الانهر والبحار بغير قارب ولا
سفينة * والحال ان الاجساد المجيدة تجتاز البحار وتطير في

الجو وتنفد في النار بغير خطر ولا ضرر *

الفصل السادس

في وجوب طلب الملكوت السماوى وتفضيله على جميع الخيرات الارضيّة

فليقابلن الان المومن شقاوة هذه الحيوة مع سعادة الحيوة الاخروية * وليقس ضعف طبيعتنا في هذه الحال القابلة الموت * مع قوتها واختصاصاتها في الحال العتيدة الغير القابلة الموت * وليحثن نفسه علي اكتساب سعادة مجد لذيذ ابدى * بتعب خفيف وجيز * فقد ذكر عن كورش ملك الفرس * انه لما خرج مع جيشه ليحارب الماديين * امر جنوده الفارسيين كلهم بان ياتوا بفوس مسنونة * ويقطعوا الشجار حرش عظيم اشار اليهم بقطعه * فاصرفوا في هذا العمل يومهم ذاك جميعه بكد وكدح جزيل * ثم في اليوم الثاني صنع لهم وليمة لذيذة فاخرة * وبعدها سالهم اى يوم من هذين اليومين يرضيهم اكثر * فاجابه الجميع بصوت واحد ان الذى يرضيهم ويسرهم هو يوم الوليمة * فمن ثم اذ حان وقت الحرب مع الماديين * اخذ يشجعهم ويعدهم بانه بعد انتهاء الحرب يضيفهم بوليمة فاخرة نظير الاولي * فكفاهم هذا الوعد ليثبوا علي الماديين مزدرين

بخطر الموت * وبهذا انتصروا عليهم واخذوا مملكتهم *
فهكذا يجب ان نقابل نحن ايضاً عظمة ملكوت الله مع دناءة
اعمالنا * وخيرات السما مع خيرات الارض * فنجد كل تعب راحة
وكل عناء نياح * ليت شعري اى شيٍ هو مجد هذه الحيوة
الكاذب الوجيز الدني الحقير * بازاء مجد السما * اى شيٍ هو الغني
الزايل الممتلى خطراً وهماً * الغير الكافي لضرورة صاحبه *
بالنسبة الي الغني الذى لا يفني ولا يزول * اى شيٍ هو سرور
العالم ولذاته المسمومة * المضرّ بالصحة * والمبددة الاموال *
والمهينة من يتمتع بها * بالنظر الي سرور المجد الابدى الحاوى
كل ما يحدى اكراماً ونفعاً ولذة * اى شيٍ هو حال جسدنا
هذا القابل الموت * بالنسبة الي صفات الجسد المجيد بعد
القيامة * خبرونا انه في ابتدا حرب غايوس الروماني للرومانيين
نادى اوبينيوس قنصل المدينة العظمى هكذا * ان كل من
ياتيه براس غايوس ياخذ ثقله ذهباً * فلما سمع هذا واحد من
اهل المدينة يدعي ستيمولسيوس * ذهب ليقتل غايوس *
ولم يبل من الخطر والتعب * لكنه افرغ وسعه في ذلك * ولم
يترك سبباً ولا حيلة الي ان ظفر بغايوس ونال الجزا الذى
تقدم الوعد به * فلا نكونن نحن اقل شجاعة ورغبة واجتهاداً
في اكتساب ملك السما باسره * مما كان هذا الجندى في ربح

يسير

يسير من تراب اصفر * علي ان كل ما نفعله او نعطيه لاجل
اكتساب هذا الملك * لا يساوى قشة تبن نظرًا الي هذا الخير
العظيم * ولذلك قد راى القديس اغوستينوس ان احتمال جميع
العذابات الجهنمية * لاجل التمتع بهذا الملك السماوى زمانًا
يسيرًا * هى شي يسير جدًا * وحقًا انه اذا ما تاملنا عظمة هذا
السرور لاستخففنا بتقشفات القديس سمعان العمودى *
وبصيامات القديس رومو الدوس * وبفقر القديس فرنسيس
وباهانات القديس اغناتيوس * ولرايتنا ان هذه جميعها كتعب من
يرفع من علي وجه الارض قشة من التبن * لكى يحظى بملك العالم
باسره * وقد اظهر الله فاعلية هذه الاعتبارات لحزقيال نبيه
برويا اربع حيوانات مختلفة جدًا بالطبيعة * الا انها مع ذلك
متفقة في السير والعمل * فراى النبي في وسط الجونسر ثورًا
واسدًا وانسانًا يتطايرون كل منهم باربعة اجنحة * ويسيرون
بسرعة البرق * فما الذى قوى هكذا طبيعة الثور وصيره في
الطيران نظير النسر * وما الذى قهر تكبر الاسد ووحشية حتي
انس الانسان وصار رفيقًا له * فقد اوضح ذلك النبي بقوله ان
الحيوانات كانت تحمل جلد السما علي روسها * على اننا لو نتامل
الملك السماوى * لكنا نمارس اعظم الامور واصعبها برغبة
وسهولة * ولقد كان يمكن للانسان الهيولي ان يصير نظير

ملاك * ومن هو متصف بصفات وحشيّة * ان يصطلح بالعقل
النطقي * ومن كان بليدًا كسلانًا كالثور * ان يطير باربعة
اجنحة ويرتفع من علي الارض التي يرعاها * وذلك برفض لذاتها
العابرة الزايلة * راجيًا تلك التي لاتزول *

الفصل السابع

في الشرور الابدية وعلي الخصوص في فقر الهالكين وعارهم

ولعمري انه ليس يجب علينا فقط ان نحتقر خيرات هذا العالم
بالنسبة الي خيرات السما * بل ينبغي لنا ايضًا ان نحتقر شرور
هذه الحيوة بالنسبة الي شرور جهنم * وذلك لان الشرور الجهنمية
هي شرور حقيقيّة غير ممتزجة بخيرٍ ما * قد ذكر اليانوس
المورخ انه في اقصى حدود بلاد ميروبي كان يوجد مكان
يدعي انوستي * تاويله مكان لايرجع منه * وقد كان هذا المكان
هاويةً عظيمة عميقة جدًا * يجري فيها نهران * احدهما يدعي
نهر الفرح والاخر نهر الحزن * وعلي شط هذين النهرين اشجار
شامخة مثمرة اثمارًا مختلفة * فمن كان ياكل من اثمار نهر الفرح
كان ينسي كل شيٍ محزن * ومن ياكل من اثمار نهر الحزن
كان يشعر في قلبه بحزنٍ هذا حد مراره * حتي انه لم يكن

يبرح باكيا منتحبا الي ساعة موته * فما الذى يعنيانه هذان
النهران * فالنهر الاول يدل على فيض اللذة والسرور الجارى
في مدينة الله * والنهر الاخر يدل علي افراط الشقا الجارى في
سجن جهنم * ولهذا ارى الله ارميا النبي سلتين مملوتين تينا *
وقد كان التين الذى في احدى السلتين رديا * وليس رديا
علي اطلاق اللفظ فقط * لكن رديا جدا جدا حسبما يقول النبى *
وذلك لانه كان رمزا علي شقا الهالكين الذين تحدق بهم جميع
الشرور الابدية خلوا من علاج بخير ما * ولعمرى ان هذا ليس
هو بامر غريب عند من يتامل عظمة الخطية المميتة * التي كما
قال القديس اغوسطينوس ان كان الكافر الوثني يستحق بها
جهنما واحدا فالمؤمن المسيحى يستحق جهنمين * لانه جاسر ان
يخطى مع علمه واعتقاده بان ابن الله تجسد وصلب حبا له *
فحقا ان الخطية شر عظيم جدا جدا من حيث انها شر غير متناه
ومن ثم بعدل تتعذب عذابا ابديا * ولانها هى شر اعظم من
جميع الشرور معا * فتستحق ان تعاقب بجميع الشرور معا *
انه من عظمة قيمة الدواء تعرف عظمة الداء * والحال انه قد
اقتضت الخطية تجسد ابن الله وموته دواءها * فماذا تكون اذا
عظمة شرها * فان كان الله هو خيرا يحوى كل خير * فلا جرم
ان الخطية التي هى افتراء عليه تعالي * هى شر يستوجب كل

شر

شـــر *
فاعتبر الان كيف انه يوجد في جهنم كل نوعٍ من العذاب بغاية
الافراط * قال البرثوس الكبير * ان العذابات الشرعيّة ثمانية *
عذاب الخسارة * وعذاب العار * وعذاب النفي وعذاب
السجن * وعذاب الاسر * وعذاب الجلد * وعذاب الموت *
والعذاب المساوى الذنب * والي هذه الانواع الثمان ترتد
بقيّة انواع العذابات * فهذه جميعها يستعملها العدل الالهى
ضد الذين لم يريدوا في زمن حياتهم ان ينتفعوا من رحمته *
فاعتبر اولاً * ان عذاب الخسارة لعظيم وصارم بهذا المقدار في
جهنم * حتي ان الخاطى بدقيقةٍ واحدة من الزمن يخسر الله الي
الابد * فيالتفاقم فقر من يخسر ربه والهه الى الابد * ان الذى
يخسر امواله بشريعةٍ عالميّة * يستطيع ان يربح غيرها مادام
حيًا * وذلك علي الكثير في بلاد اخرى غريبة ينتقل اليها
هاربًا * اما الذى يخسر الله تعالي فلا يجد له الاهًا اخر * ولا
يمكنه الفرار من جهنم * والحال ان الله هو الخير الاعظم *
فخسرانه تعالي هو الشر الاعظم * ولان خسران الله يكون
ابديًا في جهنم * فينتج من ذلك ان عذاب الخسارة يكون
اعظم من جميع العذابات * فان كان العذاب الذى به يفك
عضو من الاعضا بسبب الما غير محتمل * لان العضو به يزيغ

عن

عن مكانهِ * فماذا يكون انفصال خليقة ناطقة الي الابد عن الغاية التي خلقت لاجلها * ومع هذا جميعهِ * اى مع ان الهالك يخسر كل خير مطلقاً * فانه يخسر ايضاً كل رجا خير معاً * فقد نتعجب من فقر ايوب الصديق * متذهلين من ان رجلاً غنياً نظيره اضطر بالجلوس على مزبلةٍ * ولم يبق لهُ شي من جميع اموالهِ غير قطعة من الخزف كان يحرد بها القيح عن جراحاتهِ * والحال ان هذا العلاج عينهُ يعوز الهالك في جهنم * الذى لو كانت المزبلة فراشه لكان احتسب ذلك نعيماً عظيماً * الاّ ان فراشه هو الجمر المتقد * فلننظر الي ما حصل عليهِ ذاك الغني المذكور في الانجيل المقدس * الذى كان ياكل ويشرب في الاوانى الفضيّة والذهبيّة * ويلبس افخر الاثواب الزهيّة فقد حصل علي هذا الحد من المسكنة والفقر في جهنم * حتي انه يطلب لا الخمر اللذيذة * بل قليل من الما * ولم يعطَ ذلك * ولا الان يشرب ذلك في اناءٍ من ذهب او من بلور * بل بطرف اصبع لعازر الابرص * فيا لعظم الشقا المعد لاغنيا هذا العالم * الذين يضعون قلوبهم في غناهم وعليهِ يتكلون *

اعتبر ثانياً * ان هذا الفقر الكلّي وفقد كل خير * يقترن في الخاطى الهالك بعار عظيم ايضاً * وفي هذا قال القديس يوحنا الذهبي فمه * حقاً ان جهنم هي شي غير محتمل * وعذابها مخيف

مرعب جدًا * الّا انه لو اراني احد الف جهنم * لم ارهب من ذلك
وارعب بمقدار ما اجزع وارهب من فقد المجد الابدى * واستماع
صوت السيد المسيح القايل ليّ بوجهٍ غضوب لست اعرفك *
وتوبيخه اياى لاني لم اطعمه في حين ضرورة جوعهِ * ولم اسقهِ
في حين عطشهِ * وقد يمكننا ان نفهم جسامة هذا العار بهذا
المثل * اى بمثل ملك مقتدر لا ابن لهُ يرث ملكه * فاتخذ لهُ طفلاً
غريبًا حسنًا * وسلمه لاناس مهذبين ليربوه تربية ملوكيّة
كابنٍ لهُ * ثم اوصى بوصيتهِ الاخيرة * انه اذا نشا ذلك الطفل
واتصف بصفاتٍ جميلة * يجلس على كرسيهِ ويكون ملكًا
مكانه * واذا ظهر فظًا غبيًا ذا سيرةٍ ردية * يطرد كناكر
الجميل وعديم الوفا ومذنب ايضًا * ويحكم عليه بالقذف في
الاغربة بغاية العار والهوان * فان كان بعد اجتهاد المعلمين في
تربية هذا الطفل الذى اضحى ابنًا للملك بالذخيرة * ظهر انسانًا
شريرًا مرذلاً الادب والفضيلة * فحكم عليهِ من ارباب
الدولة بموجب وصية الملك * فطرد عن الكرسي الملوكيّ
ووضع علي الاغربة ليقضى حياته بقذف المجاديف * فهل يمكن
ان يوجد عار اقطع واهانة اقصى من هذا العار والاهانة * اعني
فقد المملكة والاسر في الاغربة * اى نعم ان عار المسيحى
المحكوم عليهِ بالخلود في جهنم لاعظم من ذلك واقطع جدًا * لانه

معلم

بعد ان اتخذ الله من علي باب الموت * وصيره ابنا له بالذخيرة
بشرط ان يحفظ وصاياه فيملك ملكه السماوى * والا اى اذا
خالف اوامن يحكم عليه بالعقاب الجهنمى * لم يعتبر ذلك بل
تعدى شرايع الملك المحسن اليه وازدرى بمعلميه ومرشديه * اعني
بملكه الحارس والمعلمين الروحيين الرسوليين * فمن اجل
ذلك يحكم عليه في ساعة الموت بالطرد عن الملك السماوى
والخلود في هاوية جهنم * فهل يمكن ان يوجد عار اعظم
من هذا *

واذ كان هذا العار الجسيم ابديا * فالي الابد تحتقر الشياطين
وكل سكان السما والجحيم * محتسبينه رجلا عاصيا متمردا على
ملكه وخالقه ومخلصه * وقد يكون هذا العار مرسوما علي وجهه
بوسم ما فظيع * كما كان يصنع قديما بالاسير الهارب من بيت
سيده * والى هذا اشار اشعيا النبي بقوله وجوههم وجوه محرقة

الفصل الثامن

في عذابي الهالكين الثالث والرابع وهما النفي من السما والسجن في الجحيم

اعتبر الان عذابا اخر مولما جدا يتعذب به الهالك وهو عذاب
النفي * وقد كان الرومانيون يعدون النفي عذابا باهظا * ولم

يكن يعذب به احد الا لاجل اثم ثقيل * ولذلك لما نفى
اوفيديوس الشاعر من رومية لم يزل حزينا باكيا * وشيشرون
حين رجع من نفيه احتسب يوم رجوعه الى وطنه كدخوله
الاول في العالم * وكان فرحه في ذلك اليوم كفرح من تسلط
علي العالم باسره * ولزيادة سروره هتف قايلا * ما اعظم بها
رومية ومملكة ايطاليا * ما اكثر شعبها * ما ابهج اراضيها * ما
افخر مدنها * ما الطف واشهى ظرف الرومانيين ورقتهم * فان
كان الانسان يجد مثل هذا الاختلاف ما بين مدينة ومدينة *
وما بين سكان وسكان * ويحصل علي هذا الحال من الضيق
والتوجع لمفارقة الاحب لديه والاشهى لسكناه * فكم
يتعذب الهالكون حينما ينظرون كم تتميز السما من الجحيم *
والسكني في وطن الاحيا مسكن القديسين * حيث يدوم السلام
والمحبة والسرور حيث كل شي يبهج ويسر حيث يسمع علي الدوام
صوت التهليل * من السكني في مقر الهلاك الابدى مسكن
الشياطين * حيث العذاب والرجز والحزن والتمرمر والعويل *
ان النبي والملك داود كان يحزن حزنا مرا * لتغربه عن وطنه
وسكناه فيما بين البرابرة * وتباعده عن ثابوت العهد * وهكذا
الشعب الاسرايلى لما نفى الى بابل * لم يبرح مدرفا الدموع
السخينة * ولقد حكم اسكندر الملك علي كاليستينوس بافراط

الصرامة وبعذاب شديد القساوة * حينما امربان تقطع اذناه
وانفه وشفتاه ويحبس مع كلبٍ في قفص * الّا انه لقد كان
يتمني الهالكون ان يسجنوا لا مع كلاب فقط * بل مع الاسد
والنمورة ايضاً * وقد اخترع اهل مملكة بابون في الدهر
الماضي عذاباً للمسيحيين لم يرَ ولم يسمع بمثلهِ قط * وذلك انهم
كانوا يعلقونهم بخشب من ارجلهم منكسين * منحدرين
الي نصف اجسادهم في فم هاوية يفوح منها نتانة كريهة مميتة
وضمنها كل نوعٍ من الضفادع والعقارب وما ضاهاها من
الحشرات * الّا ان السكني فيما بين هذه الحيوانات * لا يوازي
عذاب السكني فيما بين التنانين الجهنمية * فياما اكثر الذين
هم في هذه الهاوية العميقة * لا بنصفهم فقط بل بكليتهم * ان
الرومانيين كانوا يعذبون من قتل والديهِ عذاباً مرهباً * ليرهبوا
بهِ الاولاد الجهلة ويصدوهم عن هذا الاثم الجسيم * وذلك انهم
كانوا يضعون من قتل اباه او امه في جولق مع ديك وسعدان
وحية * فمن ذا لا يرتجف فرقاً من جهنم * حيث يسجن الخاطي
مع جميع الارواح الشريرة * والحال انه ما من احد يطيق السكني
بمكانٍ يظهر فيهِ شبح ما خيالي مفزع * فماذا تكون السكني في
البير الجهنمية * حيث توجد وتظهر كل الارواح الخبيثة * وليس
احد يقبل ان يسكن في محلة يوجد فيها مطعونون او جيران

اشرار * ولهذا اذ رام تيميستوكليس الفيلسوف ان يبيع داره * اوصى المنادى ان يمدح جيرانه بانهم اناس فضلا صالحون فكيف نشترى نحن جهنم بثمنٍ جزيل ثمن انفسنا الناطقة * لنسكن مع جيران ارديا اشرار بهذا المقدار * حتي ان الاباء ان وجدوا هناك مع اولادهم * هربوا من السكني معهم نافرين * كما سيتضح من الخبر الاتي * قد ذكر في كتاب الباتير يكون ان رجلاً ما كان لهُ ابنان * وكان يستعمل الربا مع ولديهِ * فاتفق يوماً ان سمع احد ابنيه عظةً مقنعة في بيان شر خطيّة الربا * فانتبه لذاتهِ وارتد تايباً عن خطيتهِ * واخذ ينصح اباه واخاه ويحثهما علي التوبة وترك هذه المعاملة المهلكة * وان يردا للناس ما ربحاه ظلماً * فلم ينتصحا ولم يرتدا عن هذه الخطيّة * فلذلك باينهما وذهب الي البرية فترهب عند رهبان صالحين * فبعد مدة مات ابوه واخوه قبل ان يتوبا عن خطيتهما * فاذ علم بذلك الراهب البار * اشتمله حزن عظيم لخوفهِ من ان يكونا قد هلكا لعدم توبتهما * فاخذ يطلب من السيد المسيح ان يعلن لهُ حال اخرتهما * وفيما كان من يصلي ويسال الله بذلك * ظهر لهُ ملاك وامسكه بيده واستقاده الي قمة جبل عالٍ * وهناك اراه هاويةً عميقة جداً مملوة ناراً * وسمع صراخاً مريعاً صادراً منها * فتفرس بها واذا ابوه ملقى في هذه النار يتقلى

كالحمص في قدر الطعام * ثم راى اخاه بحال من قد غرق في
البحر * يطفو تارة علي وجه ذلك البحر النارى ويغرق اخرى *
وفي هذه الحالة سمعه يقول لابيه هكذا * لتكن ملعونا الى
الابد يا ابا شقيا * لانك اهلكتني باكتسابك لي مالا محرما *
اما ابوه فكان يجيبه قايلا * بل لتكن انت ملعونا يا ايها الابن
الخبيث * لانني من اجلك ولكى اصيرك غنيا مارست هذه المعاملة
المهلكة * فبعد ان سمع الراهب هذا جيدا وابصر حالهما جليا *
توارت الرويا فرجع الى دير خايفا * واستقام فيه ممارسا
افعال التوبة الشاقة الى يوم وفاته انتهى * ولعمرى ان هذا
مخالف جدا لحال المنفى العالمي * لانه في كل منفى مبتعد عن
الوطن * اذا ما تلاقي المتقاربون يحصلون علي تعزية وافرة
من مشاهدة بعضهم بعضا * بل ان الاعداء انفسهم يتسالمون
في المنفى ويصطحبون كما جرت العادة * فاما في المنفى الجهنمى
فان الاصدقا والاقارب يبغضون بعضهم بعضا ويحزن كل منهم
من قبل قريبه ورفيقه حزنا مميتا *
وزد علي هذا شيا اخر * وهو انه في هذا المنفى الجهنمى *
لاتوجد الحرية التي بها يعمل المنفيون في هذا العالم في مدة
نفيهم وغربتهم كل ما يريدونه * لان هذا المنفى اعني المنفى
الجهنمى * هو سجن ايضا * ومع كونه سجنا سفليا نجسا

منتنا في الغاية * فيكون الهالكون فيه مرتبطين باجساد
ملتهبة * وتكون صورهم بشعة مرهبة علي حسب خطاياهم *
ثم بعد يوم الدينونة العامة تحزم اجسادهم بعضها مع بعض
ويلقون هكذا بعضهم علي بعض ويداسون ويعصرون كالعنب
في المعصرة * فحقا ان العذاب الذى به تعذبت ثلثة رهبان
يسوعية من رهبتنا في مدينة ماستريك لجزيل القساوة جدا
لان الاراطقة قيدوا ايديهم وارجلهم باسورة من داخلها ابر
حديدية مرهفة * حتي اذا ما تحركوا تنخسهم تلك الابر
الحادة * ثم اضرموا نارا حولهم ليحترقوا * فكان حالهم في حال
استشهادهم هذا * حال من اذا تحرك تمزق واذا سكن تحرق
فماذا يكون اذا عذاب الهالكين في جهنم * حيث يحترقون ولا
يقدرون ان يتحركوا اصلا * وماذا نقول عن نتانة السجن
الغير المحتملة الصادرة منه ومن الاجساد الموجودة فيه * قد
ذكر في التواريخ * انه في مدينة ما من مملكة فرنسا * قبر رجل
ميت في ناووس شكل مغارة ووضعوا علي بابه حجرا * ثم بعد
ذلك بايام قليلة رفعوا ذلك الحجر ليدفنوا هناك رجلا اخر مات
حديثا * فنزل الي المغارة واحد من الحاضرين ليقبل جثة
الميت * فحال ما استنشق رايحة الجثة الموضوعة هناك قبلا *
سقط علي الارض ميتا * فان كان من جسد واحد ميت تصدر

مثل هذه النتانة * فماذا تكون النتانة الصادرة من الوف الوف
وربوات ربوات من اجساد اشرحالاً من اجسادٍ ميتة *
وذكر ايضاً عن عازالين الكلي القساوة نحو الجنس البشري *
انه اخترع حبوساً مختلفة كان يعذب بها المسجونين على
انواعٍ متفننة * اعني بضيق المكان وبالنتانة وثقل الاوثاق *
وبكثرة جثث الذين يموتون فيها ولا يدفنون * ولهذا كان
يقال عن هذه السجون * ان الموتى بها يقتلون الاحيا * وقد
اخبر فيكتور المورخ في ايراده العذابات التي عذب بها
الباندااليون الاريوسيون الشهدا القديسين * بان اشد هذه
العذابات جميعها كانت نتانة السجن * الذي كان عدد المسجونين
فيه اربعة الاف وتسع مية وتسعين رجلاً * وذلك لانه كما يخبر
المورخ المذكور انه لضيقة السجن كان هولاء الاراطقة القساة
يلقون فيه الشهدا بعضهم على بعض كحبوبٍ من القمح في كيل او
في كيس * فمن ثم كان يصدر عنهم وعما تقذفه الطبيعة وعن
جثث الذين يموتون هناك * نتانة كثيفة تفوق كل عقاب *
ولنا في ذلك مثال جديد وهو سجن ما في بلاد يابون * فهذا
السجن موضوع على قمة جبل * عرضه ست عشرة قدماً *
وعلوه اثنتا عشرة قدماً * وطوله اربع وعشرين قدماً * وشكله
شكل قفص * لان حيطانه اخشاب مبتعدة بعضها عن بعض

بمقدار

بمقدار اصبعين * وسقفه من قرميد * فمن ثم يقاسي المسجونون
فيه حر الصيف وبرد الشتا * ففي الصيف يذوبون من حر
الشمس * وفي الشتا يبسون من شدة البرد * لان الحراس
المحيطين بهذا السجن لايدعون المسجونين ان ياخذوا اثوابا
لحفظهم من شدة البرد * ففي هذا السجن حبس الانبا كارلوس
سبيتولا الراهب اليسوعي الشريف الاصل * وغيره ايضا من هذه
الرهبنة * ومن رهبنة القديس دومينيكوس والقديس فرنسيس
وكانوا بالعدد اكثر من ثلثين * ومكثوا فيه اربع سنين بعرى
وضيق جزيل * لانه لم يكن لاحد منهم موضع كاف لان يمتد
فيه * اما عيشتهم فكانت صوما متصلا وصارما جدا * لانهم
لم يكونوا يعطوا سوى ما هو ضروري لدفع الموت لا لدفع
الجوع * وقد كان ماكلهم الاعتيادي قليلا من رز اسود عتيق
معفن مطبوخ بالماء فقط * ومشربهم ماء مغليا بحشايش مرة مالحة
الا ان عذابهم الاعظم كان افراط نتانة السجن * لان الحراس
لم يدعوا هولاء الشهدا ان يخرجوا من السجن لاجل ضرورة
الطبيعة * ولا ان يبدلوا قمصانهم وثيابهم * ولهذا امتلاوا قملا
يرعى اجسادهم * وقد امتلاء السجن ايضا منه ومن الدود
والحشرات المتنوعة * فكان هولاء الشهدا يختبرون بالام قاسية
ما تختبره الموتى بغير الام * اعني انهم كانوا ممتلين دودا وحشرات

من

من الراس الى القدم * فليتامل المومن كم تالمت عبيد الله
في هذا السجن مدة اربع سنين * فحقا لقد تم فيهم قول الرسول
اني اموت كل يوم * لانهم كانوا يموتون كل يوم شيا فشيا
موتا متصلا مستطيلا من قبل الحر والبرد والجوع والمرض
والنتانة وغير ذلك * الى ان اخرجوا من السجن ودفعوا
طعاما للنار * واحرقوا رويدا رويدا في سنة الف وست مية
واثنتي وعشرين *

غير ان هذا السجن هو كلاشي بالنسبة الي سجن الهالكين *
لانه بهذا السجن لاتوجد نار محرقة * فاما السجن الجهنمي فهو
مملو من نار ملتهبة على الدوام * هنا يترجى المسجونون
الخروج * اما هناك فلا يوجد هذا الرجا * هنا يعطى المسجونون
قليلا من الماكل والمشرب * اما هناك فلا يجد جوع الهالكين
الكلبي كسرة خبز * ولا عطشهم المذيب قطرة
ماء * فهذه حال شقا الارض السفلية
المقتمة التي لاتنبت الا شوك
الاوجاع وحسك البلايا
والالام
*

الفصل التاسع

في عذابي الهالكين الخامس والسادس وهما عذاب الاسر وعذاب الجلد في الجحيم

ان الاسر قد كان عند الرومانيين عذابًا شديدًا ايضًا * لانه كان عندهم في مقام الموت نفسهِ * وهكذا ارميا النبي كان ينوح بينابيع دموعٍ سخينة على اورشليم * وذلك لان هذه المدينة التي كانت بمنزلة سيدة المدن والاقاليم * حصلت تحت رق الاسر تودي الخراج * فباي نوحٍ وبكاءٍ يجب اذًا ان يرثي اسر المسيحي * الذي من كونهِ وارثًا الملك السماوي حصل اسير الشيطان ووارث العذابات الجهنمية الموبدة * ملتزمًا بان يودي جزية اسنٍ بكل اعضا جسدهِ وحواسهِ وقواه * فلنتامل من يسيرًا جزيل شراسة الشيطان وقساوتهِ نحو الذين ليس هم تحت اسنٍ * وكيف قد استعمل الاذن المعطى لهُ من الله ضد ايوب البار * فنرى انه ضربه ضربة قاسية صيرها جسدهُ جرحًا واحدًا مملوًا دودًا وقيحًا * وجعل فراشه مزبلة منتنة * قد كان الصديق جالسًا عليها يجرد عنه الدود والقيح بقطعةٍ من الخزف * حتى لم يبق لهُ من لحمهِ الا قليل في شفتيهِ ليمكنه النطق بهما * وقد كان في الليل الذي هو لراحة الانسان

يزيد علي الامه واوجاعه بخيالات مرهبة وروايات مفزعة * وقد
اوصل قبح نتانته الي هذا الحد * حتي ان امراته لم تعد تستطع
ان تحتمل الرايحة الصادرة من احشايه بفمه وانفه * حتي انه اذ
افتقدته ثلثة من اصدقايه ليعزوه في بلوايه وراوه علي هذه
الحالة * شملهم التحير والذهول ومكثوا تجاهه صامتين لم
يستطيعوا من تلقاذواتهم ان يخاطبوه بكلمة * فمن هذا
يجب ان نتخذ دليلين جزيلي الاعتبار والفاعلية * الدليل الاول
ان كان الله سمح بان مثل هذا العذاب الجسيم يدرك تقوى
ايوب وقداسته * وذلك لزيادة بر ومخزى المجرب اللعين *
فترى كيف تعاقب جميع الشياطين باذنه تعالي بعد الدينونة بدايع
اثام الهالكين * الدليل الثاني ان كان تعذيب الشيطان ايوب
الصديق الذى به صير جسده كله منبرصا مملوا من الجراحات
وجثة مستكرهة لم ير نظيرها قط * قد دعاه الكتاب المقدس
ضربة الهية بسيطة * مخصصا لله تعالي ما قد فعله الشيطان *
كما ان تعذيب الجلاد ينسب للحاكم * فماذا يكون اذا حينما
يضرب الله الخاطي المأسور في جهنم بكل ثقل رجزه وقوته
يده *

فهات الان نتكلم عن عذاب الجلد * ونعني بذلك كل انواع
الضربات التي يتعذب بها الهالك في الجحيم * وهذا قد اظهن

الرب لارميا النبي لما اراه قضيباً واحداً من القضبان التي كان
يضرب بها قديماً المذنبون * فابصر النبي بقرب هذا القضيب
قدراً موقوداً * دليلاً علي ان ضربات العدل الالهى تتم في نار
جهنم الابدية * غيران هذه الضربات لا تكون كضربات قضبان
نباتية * بل تكون اقوى واثقل من ضربات المطارق الحديدية *
ولهذا قال الحكيم الاحكام مستعدة للمستهزئين * والمطارق تطرق
اجساد الجهال * وحسناً دعا الهالكين جهالاً * لانهم لم
يشتروا السما المقدم لهم من الله بثمن رخيص * وقد تساقطوا في
عذابات جهنم الخالدة من اجل لذة وقتية * وليس انه يهطل
علي الهالك طوفان العذابات فقط * بل ان كل حس يتعذب
عذاباً خصوصياً ايضاً * فالعين تتعذب بنار تحرق حدقتها *
والقوة الباصرة تعاقب بالمناظر المريعة والخيالات المفزعة *
وفي هذا ذكر عن راهب ما * انه لما دنا من الموت ابصر
شيطانين سبحين مريعين المنظر بهذا المقدار * حتي انه خرج
عن عقله فصرخ قايلاً * لتكن ملعونة تلك الساعة التي فيها
دخلت الرهبنة * ثم سكت قليلاً واستتلى قايلاً بوجه بشوش
وصوت هادى لطيف * لتكن مباركة الساعة التي دخلت فيها هذه
الرهبنة ولتكن مباركة مريم العذرا التي احببتها دايماً من كل
قلبي * فاندهش اخوته الرهبان المحدقون به * وشرعوا

يفتكرون فيما هو سبب ذلك * ويتضرعون لاجلهِ * فقال لهم
الراهب لا تتعجبوا يا اخوتي من سجني * لان المنظر الذى رايته
لمرعب بهذا المقدار * حتي انني اختار ان اسكن في نار ملتهبة
مستغرقاً في رصاص مذاب الي انتها العالم * ولا ابصر ما ابصرته
ايضاً * فان كان منظر شيطانين اراع رجلاً فاضلاً بهذا المقدار *
فماذا يكون جزع من يبصر الوفاً وربوات من الشياطين كل
واحد منهم ارعب وارهب من رفيقهِ * وجميعهم مستعدون
ويجدون برجز كلي بعذاب الخطاة * انه لما تامل القديس
غريغوريوس قول ايوب الصديق هذا * ارض الشقا حيث
الخوف الدايم * قال هكذا * كيف يمكن ان يوجد خوف حيث
تقاسي اعظم الاوجاع * لان الوجع يصدر من شيٍ حاضر *
والخوف هو متعلق بالمستقبل * فما الذى يخاف منه من قد حصل
على اقصى حدود الشقا * الّا انه لسبب ان حال من يكون
حصل على شقا هذا عظم مقداره حتي انه ينافي كل خوف *
يكون بعد حاصلاً علي خيرما * ولانه لا يوجد في جهنم خيرما
اصلاً * فلذلك حال شقا الهالكين لا ينافي الخوف * لكن كما ان
الموت الابدى يميت الهالكين مع بقائهم احيا ليذوقوا مرارة
الموت في حياتهم الموبئة * هكذا العذاب يولمهم ويرعبهم
معاً * ثم ان عقاب النظر يكون مولماً جداً * لان الاب يرى

ابنه معذبًا * والابن امه * والاخ اخته * والصديق صديقه *
خبرنا يوسيفوس المورخ عن اسكندر بن بركانوس * انه رام
يومًا ان يعذب قومًا من المجرمين عذابًا صارمًا مرًا * فسمر
منهم ثمانماية رجل علي خشب * ثم بعد ذلك بزمن قليل قبل
ان يموتوا شنق اولادهم ونساهم امام اعينهم * فصدق بذلك
الا يميتهم موتًا واحدًا * بل ان يميت كلًا منهم الف موتة
بمشاهدتهم هذا المنظر المميت * وقد يتعذب بابلغ نوعٍ من
قبل هذه المشاهدة اوليك الذين صاروا بعضهم لبعضٍ سبب
الخطية وجر العثرة والشك * وضف الى ذلك الظلام المريع
الذى تقترن به هذه المشاهدة المحزنة * قال المعلم نيقولاوس
الليراني * ان الظلام المصرى دعي في الكتاب المقدس مخيفًا *
لان المصريين كانوا يبصرون في هذا الظلام خيالات واشباحًا
مرعبة * فهكذا هي ظلمة جهنم * فانها تعذب اعين الهالكين
بمناظر مرهبة * وادلهمام ليلةٍ ابدية *
فاما الاذان فما خلا عذاب النار التي تنفدها * تتعذب ايضًا
باصوات زعود مهيلة * وبضجيج صراخ الهالكين وانتحابهم
وندبهم ولعناتهم وتجاديفهم * قد ذكر عن سيلا والي رومية *
انه امر يومًا بقتل ستة الاف رجل على هذا النوع * وهو انه
امر بان ياتوا بهم الي ميدان قريب من ديوانهِ * وان تلتام جميع

القضاة والاعيان في هيكل قريب من ذلك الميدان لكى يتكلم معهم * وقد كان اوصى جنوده بانه حينما يرومران يفتتح الخطاب * يهجمون حالاً بسرعة عظمى علي اوليك المجتمعين في الميدان * ويقتلونهم جميعهم * فلما فعلوا حسبما امرهم * وكان هو يخاطب اهل الدولة * لم يكن احد يسمع من خطابهِ كلمة واحدة * وذلك لاجل شدة صراخ الشعب الذى وثبت عليه الجنود * ولجزيل بكايهم وعويلهم * فماذا يكون اذاً اعويل الهالكين ونوحهم *

هكذا حاسة الشم تتعذب تعذيباً خصوصياً بواسطة الروايح المنتنة * ولعمرى ان مكسنتيوس الملك قد اخترع عذاباً جزيل القساوة جداً * لانه كما ذكر فيرجيليوس كان يربط جسد انسان ميت منتن مع جسد انسان حى * ويتركهما هكذا الى ان يموت الحىّ من نتانة جسد الميت * والحال ان القديس بوناونتورا يقول * انه لو اخرج من جهنم جسد واحد من اجساد الهالكين ووضع علي وجهِ الارض * لكانت المسكونة باسرها فسدت من نتانة رايحتهِ * فماذا يكون اذاً اعذاب الهالك المخلد الي الابد بجسد المتصف بهذه النتانة * والموجود فيما بين اجساد اخر كثيرة منتنة نظيره * قال اشعيا النبي قتلاهم مطروحون يفوح النتن من جيفهم *

وماذا

وماذا اقول عن عذاب اللسان الذى بهِ نخطى علي انواعٍ عديدة بالتمليق والتمرمر والنميمة والكذب وغير ذلك * فلذلك تكون حمة التنانين خمرها لكين وسم الافاعي الذى لاشفا لهُ * ولعمرى ان عذاب الجوع والعطش الذى يعذب بهِ هذا العضو لعذاب عظيم جدًا * قال كينتيليانوس الفصيح * ان الجوع هو عذاب عظيم بهذا المقدار * حتي ان بليّة الحرب او الطاعون بالنسبة اليهِ هى سعادة لا بليّة * وقد راينا جوع ايام قليلة قد اضطر الناس باكل لحوم الكلاب والقطط والفيران والحيات والضفادع حتي الزبل ايضًا * بل الزم الامهات باكل لحم اولادهن * فماذا يكون اذًا عن الجوع والعطش الابدى *

ثم ان اللمس بما انه اكثر استعمالًا من بقيّة الحواس * فيتعذب اكثر منها بالنار التي تاكل دايمًا ولا تفني ابدًا * فمن لا يرتجف فرقًا من مجرد ذكر ما صنع فالريس وغيره من المغتصبين * الذين كانوا يلقون اناسًا احياء عراة في بطن ثور من نحاس محمى ليحترقوا فيهِ * الّا ان هذا العذاب لا اعتبار لهُ بالنسبة الي النار الجهنمية * التي تحرق اخفى ما يوجد في الباطن واظهر ما يوجد في الخارج علي حدٍ سوى * وفي هذا خبرنا الانبا بطرس المكرم رئيس دير كلويني عن كاهنٍ شرير * انه لما اشرف على الموت ظهر لهُ شيطانان شرسان جدًا * حاملين مقلاة بايديهما *

وقالا لهُ اننا سنقليك بهذ في جهنم * واذ كانا يخاطبانهِ بهذا الكلام * طارت نقطة من الزيت الذى في المقلاة ووقعت علي يد القس المريض * وفي الحال نفدت اللحم الي العظام * واهرت يدهُ وجردتها من اللحم * فاندهل الحاضرون من قوة النار الجهنمية * ولهذا قال نيقولاوس نيصص * انهُ لو يضطرم كل الحطب الذى في العالم * ويصير جميعهُ نارًا واحدة متقدة * لم تكن قوتها توازى قوة شرارة واحدة من نار جهنم * وقد كتب ايضًا الانبا كيصاريوس * انهُ كان لتاودوريكوس اسقف مدينة ماستريك خادم يدعي بيرباش * قد بلغ الى هذا الحد من الشر * حتي انهُ سلم نفسهُ للشيطان بشرط ان يساعدهُ اللعين في اخذ ثارهُ من عدوهُ * فبعد سنين قليلة ادركهُ مرض معضل وقارب الموت * فغاب عن حواسهِ بالكلية حتي خيل انهُ مات * الا انهُ في هذه الحال اختطف بالروح وغرق في بحيرة نار متاججة * فاتاهُ ملك وقال لهُ انظر ما اعد الله للذين يخدمون الشيطان * فلو انهُ تعالي رحمك وردك الي الحيوة * اما كنت تصرف بقية ايامك في افعال التوبة الشاقة * فاجابهُ المسكين قايلًا انى ارتضى باحتمال اصعب ما في العالم لانجو من حال هذا الشقا * فتراف الله عليهِ * فانتبه من اختطافهِ وشفى من مرضهِ * وشرع يمارس اصعب التقشفات * فكان يمشي حافيًا علي الاشواك والحجارة

الحادة * والدم يجري من اقدامه على الدوام * اما ماكله ومشربه فكان يسيرًا من الخبز والماء غير * ووزع كل ماله على المساكين * فاستغرب كثيرون صرامة هذه السيرة * واشاروا اليه بان يقتصر قليلاً * اما هو فاجابهم هكذا قايلاً * لاتتعجبوا من صرامة توبتي * لاني قاسيت اكثر من ذلك في جهنم * ولو انكم اختبرتم ما اختبرته انا * لم تكونوا تستغربوا شدة توبتي * ثم كان يورد لهم عظمة نار جهنم قايلاً * انه لو قطعت كل اشجار العالم * وجمعت واضرمت نارًا واحدة * لاخترت ان احترق في هذه النار الي يوم الدينونة * ولا ان احترق ساعة واحدة في نار جهنم التي قد اختبرت شدتها * فليتامل هذا المومن الذى اخطا خطاً مميتًا * وليقل في كل ضيقة وبليّة * اني لقد استحققت عذابًا اشد من ذلك * وليس ليّ ان اشكو مما اصابني *

ولان الكتاب المقدس يدعو جهنم بحيرة مملوة نارًا * فلنورد هنا خبرًا محررًا من القديس بطرس داميانوس * يمكننا به ان نفهم على نوعٍ ما عظمة هذا العذاب * فيخبر القديس المذكور انه كان في بلاد لومبارديا رجل درب في سلوكه مع الناس * حسن الخطاب يجب ان يتعارف بالجميع ويتصادق مع كل احد ويدخل في كل امر * وكان ينجح غالبًا في تدابيره بحسن دربته

عقلهِ * وان عرض لهُ الّا ينتهي امر علي مرامهِ * فكان يصلحه
بسهولة وسرعة * واقول على الاطلاق والاجمال انه كان احد
الذين يعرفون كيف يسلكون في هذا العالم ويتقنون معاشرة
الناس * ولكن كيف انتهت دربته هذه العالميّة * فقد انتهت
بالموت الذى لاتوجد دربة تصون الانسان من احبولتهِ *
فدفن جسده في الكنيسة * ونفسه انتقلت الى حيث اراد
الله * غير انه اتفق في يوم ما لراهب قديس * انه اذ كان ماثلاً
امام الله يصلى * راى بالروح بحيرة نار كان لهيبها يبلغ الي السّما *
وشرارها يتطاير بكثرة مع صراخ وضجيج * حتي ان من كان
يرى او يسمع ذلك ياخذه الخوف والزمع * فامعن الراهب القديس
النظر في تلك البحيرة * فاذا بذلك الخطيب الفصيح والثعلب الدرب
يعومر فيها شرقاً وغرباً * وماعدا ذلك فراى ايضاً حيات وتنانين
مرهبة علي حافة هذه البحيرة محدقة بها من كل جهة تمنعه
من الخروج * فكان ذلك المنكود حظه يولول وينوح فيما بين
تلك الحيوانات المسمة وفي وسط تلك النار الاكلة * مفرغاً
جهده بالوصول الى حافة البحيرة * الّا انه اذ كان يدنو منها
يتهيا بازايه تنين عظيم مادّاً راسه ليبتلعه * فيرتد في الحال
متقهقراً ويذهب الي حافة اخرى * وفي حال دنوه يصيبه ايضاً
ما اصابه اولاً * فعلى هذه الحال كان يجول في البحيرة المحرقة

ذاهباً

ذاهبًا من حافة الي اخرى ليجد له منجى فلم يجد * وسيكون
هكذا الي الابد ولا يخرج منها * وبعدل قد حكم عليه هكذا
يقول القديس المخبر بهذا الخبر * اى بان الذى كان في زمن
حياته بحسن دربته وحيله العالميّة يمرق سالمًا ناجيًا من
كل مصيبةٍ * لا يجد له الان سبيلًا للفرار من هذه البحيرة
المحرقة *

ثم اعتبركم يتعذب الهالكون في قوى انفسهم * واولًا في
مخيلتهم التي تسعى في تعذيب بقيّة الحواس * فقد اخبرنا
اسكندر ترالليانوس عن امراةٍ كانت تقضى ايامها في الحزن
والبكا * وذلك لاجل مجرد تخيلها وظنها الكاذب بانها ابتلعت حية
وكانت تتحقق ان الحية تمزق احشاها * فماذا يكون التصور
الحقيقى في الهالكين الاشقيا ودود الضمير الممزق قلوبهم *
الّا ان ضربات قوى النفس قد تكون اشد عزمًا وامر الامًا *
فالارادة تتعذب ببغضٍ ابدى كلي لذاتها ولخلايق ولخالقها
ايضًا * وتشعر بخلقٍ وشراسةٍ غير محتملة * وبسجس كل
عواطفها * لانها تطلب مالا يمكن بلوغه * وتياس عن نيل
مرغوباتها * فهل يوجد عذاب يقول القديس برنردوس اعظم
من عذاب من يريد مالا يصير ابدًا * ولا يريد ما سيكون
دايمًا * فالرجا الذى من شانه ان يسهل علي الفلاح احتمال الحر

والبرد

والبرد * ويخفف علي الجندى تعب السهر والم الجراحات *
وعلى المعترفين والشهدا الصوم والمسح والقيود وضربات
الجلادين * فانه ينتزع بالكلية من الهالكين الى الابد * فيالافراط
عذاب من يحتمل هذه الاوجاع القادحة بغير نفع * مع علمه
بانه كان يقدر ان يربح السعادة الابدية باحتمال ما هو اقل منها
واضعف جدًا * علي ان الانسان يستطيع الان ان يربح بقرع
صدره ولو مرة واحدة سعادة ابدية * اما بعد هذه الحيوة فانه
ولو تالم في كل اعضايه بالنار التي تحرق حتي اللب * وبالجوع
الكلبي وبالعطش المذيب * وبكل اوجاع النفس والجسد التي
تكابد في جهنم * لايمكن ان ينتفع بذلك شيًا * ولا يكون هذا
جميعه كافيًا لان يخفف عذاب الهالك ولو بانقلابه من علي جانب
الي جانب * لكنه يستمر على الدوام معذبًا علي حدٍ سوى *
والموت يهرب منه حسبما يقول الكتاب المقدس * فهذا هو
الياس الكلبي الذى يكون اخر الخطاة المتجاسرين الطامعين
الان في رحمة الله * ان جهنم لمملوة من الذين كانوا يترجون
في حياتهم الا يهبطوا فيها ومن الذين قد قطع عنهم رجا الخروج
منها رجاوهم السابق بانهم لا يموتون في حال الخطية * فعاد
الان رجاوهم باطلًا وحصلوا علي الياس الموبد *
وقد تكون القوة الذاكرة ايضًا جلادًا قاسيًا لدى الهالك

يعذبه جدًّا * لانه كلما فعله من الخير والشر يكون لهُ عذابًا *
فيعذبه الخير الذى صنعه لانه خسر ثوابه * والشر الذى فعله
لانه يشعر بمكافاتهِ * فسيذكر المثلث الشقاوة كم من منٍّ
كان يقدران يربح السّما ولم يشا لكنه اختار ان يستحق جهنم *
فيقول مخاطبًا نفسه هكذا * كم منٍّ كان في طاقتي ان اصلى
وافضلت علي ذلك الملاهى الباطلة * ولذلك الان انا اتعذب *
كم منٍّ وجب عليّ ان اصوم وصدتني عن ذلك الخنجرة *
ولذلك الان انا اتعذب * كم منٍّ بدرقت في اللذات البدنيّة
ما كان يلزمني ان اصرفه بالصدقة * ولذلك الان انا اتعذب *
كم منٍّ اجتهد الناس عليّ بان اصالح عدوى واسالمه * واحببت
انا الانتقام منه * ولذلك انا اتعذب * كم منٍّ وجدت فرصة
لممارسة الصبر * فاطلقت عنان الخلق والغضب * ولذلك الان
انا اتعذب * كم منٍّ استطعت ان امارس افعال الاتضاع والحب
نحو قريبي * واخترت التكبر والتشامخ عليه * ولذلك الان انا
اتعذب * كم منٍّ كان يمكنني ان اتناول الاسرار الطاهرة ولم
ارتض بترك اسباب الخطيّة * فلذلك الان انا اتعذب * انه لم
تعوزني ابدًا واسطة لعبادة الله ولم انتفع من ذلك * فلذلك الان
انا اتعذب * فانظر الان ايها الشقى الملعون يقول الهالك لنفسهِ *
كيف انك خسرت السّما لانك احببت التنعم * فلو انك تريد

لكنت ربحت السعادة الابدية وحصلت الان مع المليكة وحزت الافراح الدايمة * فقد كان مخلصك يقدمها لك ويرغب اليك ويطلب منك ان تكتسبها * وانت ايها الغبي الملعون فضلت علي السّما مزبلة منتنة * فالذنب اذًا منك والان ينبغي ان تفي عنه بعذابك الابدى *

اما العقل فيتعذب بافكار مولمة محزنة جدًا * فلا يجد حينيذٍ ارسطو ولذةً في حكمتهِ * ولا سينيكا في فلسفتهِ * ولا جالينوس في طبهِ * ولا غيرهم من العلما في علومهم ومعارفهم * وقد جا في الاخبار انه ظهر لاسقف من اساقفة باريس * معلم ما ماهر كان قد هلك في جهنم * فسالهُ الاسقف هل بقى لك شي من العلوم في جهنم * فاجابه المعلم الشقي اني لست اعرف الان سوى ثلثة اشيا * اولها انه قد حتم عليّ بالهلاك الابدى * ثانيها انه لا رجوع بهذا الحكم * ثالثها اني خسرت مشاهدة الله الى الابد لاجل ملذات العالم والجسد *

وقد يتولد في هذه القوة النفسانيّة العقليّة دود الضمير * الذى يكون عذابه اشد واقسي من عذاب النار * وقد ذكر سيدنا يسوع المسيح ثلث مرات في اواخر احدى عظاتهِ * معلنًا ان دودهم اى دود الهالكين لا يموت * ونارهم لا تطفى * قال القديس اغوستينوس عن الضمير نظرًا الي هذه الحيوة * انه

لا يوجد فيما بين جميع ما يحزن النفس وديولمها شي اشد عذابا
من ضمير متدنس بالخطيّة * لانه هو نفسه يكون لنفسهِ عذابا
شديدا * انه لو يضطر الاب بانه يحضر شنق ابنهِ * لكان ذلك
عذابا عظيما لهُ * واعظم من ذلك اذا التزم هو بان يكون جلاده
وامر واقسي من هذا وذاك * اذا اضطر ان يشنقه علي باب
بيتهِ ويبقى هكذا امامه مشنوقا * لكي يشاهد هذا المنظر المحزن
المميت كل من يدخل ويخرج * الا ان هذا الحكم يكون بشدة
القساوة المفرطة ان اضطر الاب بان يشنق ذاته بذاتهِ * او
يمزق لحمه باسنانهِ * فهذى هى قساوة الضمير الردى * الذى بهِ
تمزق الخطاة ذواتهم في النيران الموبدة * وقد يزداد المهم هذا
من قبل حسدهم الذين اكتسبوا الملك السماوى بتعب وجيز *
وهم اعني الهالكين قد خسروه لاجل خيرٍ ارضى دنيٍ او لذة
وقتيّة * فقد ذكر السفر الالهى عن عيسو * انه لما عرف ان
يعقوب اخاه اختطف بركته * عج بصراخٍ عظيم كاسدٍ زائر
من شدة الم ياسهِ * فماذا يكون اذاً اعجيج الهالكين ورجز ياسهم
حينما يرون ان الصديقين اختطفوا منهم البركة *
وهم خسروها الي الابد لاجل مجرد
غباوتهم
*

الفصل العاشر

في عذابي الهالكين السابع والثامن وهما الموت الابدى والعذاب الموازى الذنب

اعلم ان الكتاب المقدس يسمى الهلاك الابدى موتاً ثانياً * وذلك لان هذا الموت الروحى يكون بعد الموت الاول الجسدى * وهذا الموت الثاني يدرك النفس بعد فنا حيوة الجسد * وهو موت حى ومضاعف * لانه في هذا الموت يوجد عذاب الموت حياً على الدوام * فكما انه لايوجد شر اعظم من الموت * هكذا لاموت شر من هذا الموت الذى قال عنه القديس اغوستينوس هكذا * انه لا يوجد موت اشر من الموت الذى لايموت * وقال القديس غريغوريوس * ان موت الهالكين في جهنم هو بغير موت * والانتهالديهم هو عادم الانتها * لان الموت هناك حى * والانتها يبتدى دايماً *

ثم ان الموت في جهنم مضاعف لوجود موت الاسيّة وموت العذاب * لانه لاموت اردى من موت النفس * وهو الخطيّة التي يستمر الاشقيا الهالكون حاصلين عليها الي الابد * متصفين بحال شر لايوجد اعظم منه * وبشناعة عظمى لاشناعة فوقها وهى شناعة الاسيّة * ولعمرى ان هذ الحال لشر اعظم من

عقاب النار * ثم انه بعد شر الخطية لا يوجد عقاب يقتضى
الصواب ان يكون الاعظم في انواع العقاب الا عقاب الخطية *
ولان جهنم هى عقاب الخطية فتكون جهنم عقابا اعظم من
الموت * او هى الموت الاعظم والاشر * فبالعظم ارتفاع العدل
الالهى على العدل البشرى * لان عقاب الموت الذى هو اعظم
كل العقوبات التي يحكم بها العدل البشرى على الاثمة * هو شي
مشتهى بافراط الشوق نظرا الي الذين حكم عليهم العدل الالهى
بالخلود في جهنم * لانه ان كان تامل عقاب لا انتهاله ولا نهاية
للذى يتعذب به * يرهب المتامل ويرعبه * فماذا يكون اختباره
الابدى * قد ذكر في خبر القديسة ليدوفينا البتول * انه
افتقدها في حين مرضها المستطيل العجيب رجل ما كشف لها
كل رذايل نفسه واثامها الجسيمة * ولان ندامته عليها كانت
ضعيفة * فعاهدته البارة بانها هى تفى عنه للعدل الالهى *
بشرط انه يستمر ليلة واحدة كاملة راقدا على فراشه على جنبه
الواحد من غير ان ينقلب عنه الي الاخر * فتبسم ذاك وقال
لها ان كان هذا قانون خطاياى فانا اكمله سريعا * وهكذا
رجع الى بيته * فلما كان المسا وحان وقت الرقاد * اعد فراشه
ومهده ثم اضجع عليه كما شا على جنبه * فما فات قليل من الزمان
الا وحدثته نفسه بان ينقلب على الجانب الاخر * وتبين له

انه لم يضجع قط على فراش يابس نظير ذلك الفراش * فانحصر
جدًا لعدم انقلابه وضجر من المكث علي جانب واحد * فاخذ
يخاطب ذاته بذاته قايلاً ما هو سبب ضجري هذا واستصعابي
الرقاد على هذا الفراش بغير تقلب * فالفراش لين وانا صحيح
الجسم * ولا يعوزني شي سوى ان انقلب من جانب الي جانب
اخر * وهذا كلاشي * فدع اذًا عنك كل فكر واصبر علي هذه
الحالة الي الصباح * فلم يستطع ان يرقد اصلاً * فشرع حينيذٍ
يذكر الابدية متفلسفًا ومخاطبًا نفسه هكذا قايلاً * ما هذا
الامر الا تقدر ان تضجع علي فراشٍ لين ليلة واحدة بسكون *
وقد صار الرقاد والراحة لديك عذابًا * فكيف تكون اذًا حالك
اذا ما التزمت بهذا الي ليلتين او ثلث ليالٍ * فقد كنت اذًا تجد
ذلك موتًا وامر من الموت * فيالجزيل ضعفي وقلة صبري *
اذ كنت اتسجس واتقلقل من لاشي * فماذا يكون اذًا مني
اذا ما منعت عن النوم اسابيع كثيرة * او بليت بداء المفاصل *
والحال اني عارف ومتحقق انه قد استعد ليّ عذاب اعظم من
ذلك بما لا يحد في جهنم * حيث تقودني خطاياي المتعددة *
فلا انظرنّ الان ما هو الفراش المحفوظ ليّ هناك * اني سامتد علي
جمرٍ ملتهب * ويكون لحافي الكبريت المتقد * واستمر ملقى
علي هذا الفراش لا ليلة واحدة بل الي الابد * ولا اقدر ان

انقلب من جانب الي اخر الى دهر الداهرين * فلا سرعنّ الان
في تغيير سيرتي واصلاحها * ولا بتدينّ ان اتعبد الله خالقي *
فهكذا تامل متفلسفًا * وهكذا استنتج مستلزمًا * وهكذا
فعل حالًا *

ثم ما عدا جميع هذه العذابات المتقدم ذكرها * فقد يوجد
عذاب اخر وهو العذاب الموازي الذنب * ولهذا قيل في
سفر الرويا بمقدار ما مجدت نفسها وتنعمت * كافوها عذابًا
ونوحًا * ولكي نستفهم هذا جيدًا فنورد خبرًا جزيل الاعتبار
في كيف ان الله يعذب الخطايا في جهنم بعذاب مناسب وموازٍ
لها فنقول * انه قد ذكر الانبا كانتيبرايتي * انه في نواحي مملكة
النمسا كان رجل ماجندي باسل * محبًا لهو ركوب الخيل
وسباقها * ومتمرغًا في حمأة اللذات الدنسة * فمات موتًا
شقيًا * وكانت لهُ امراة تقيّة عابدة سالكة في طريق القداسة
فاختطفت بالروح * فرات زوجها كانه عايش بعد في جسد *
وبهذه الرويا عرفت شقا حالهِ * لانها ابصرت حولهُ جمًا غفيرًا
من الشياطين * وقد امرهم اركونهم بان يلبسوا ضيفهم
الجديد ثوبًا من حديد داخله اشواك حديدية مسنونة وحسك
حاد * ثم بعد ذلك امرهم بان يضعوا علي راسهِ خوذة حديدية *
وان يسمروها بمسمار طويل ينفذ من راسهِ الى رجليهِ * ثم

يعلقوا

يعلقوا على عنقه ترسًا حديديًا ثقيلاً يرضض عظامه * فتمم الشياطين اوامر اركونهم بتدقيقٍ واسراع * فحينيذٍ قال لهم الاركون هكذا * ان هذا الرجل كان يحب لهو الركض علي الخيل والحمام واستنشاق الروايح الزكيّة والرقاد على الفرش الناعمة والتنعم في اللذات اللحمية * فقدموا له قليلاً مما يناسب ذلك من الملذات المستعملة هاهنا * فامسكته حينيذٍ الشياطين * وادخلوه في وسط لهيب متوقد * ثم بعد ما احترق هناك مدة * اضجعوه علي فراش من حديد محمى عليه ضفدعة طول الفراش باعين مرعبة جدًا فامتدت عليه تلك الضفدعة واعتنقه اعتناقًا شديدًا * فهذا ما راته امراته الفاضلة وما تاملته بحزن لا يوصف بقيّة ايام حياتها * فلنرهبن اذًا العدل الالهى * ولنتحققن غاية التحقيق ان الذى اخطانا به هنا باعظم استلذاذ * نعاقب به هناك باشد تعذيب *

الفصل الحادى عشر

فى الفوايد الحاصلة من التامل بالعذابات الابدية

ان جميع ما اوضحناه عن العذبات الجهنمية * لاقل جدًا مما هى فى ذاتها * علي ان الاخبار من شانه ان يكون مختلفًا جدًا عن

الاختيار * انه لما بلغ المكابيين خبر تدنيس الهيكل وهدمه
حزنوا وبكوا * الا انهم ازدادوا حزنا ونوحا وبكاء * لما
شاهدوه باعينهم مهدوما ومذبحه مدنسا وابوابه مكسرة *
لانهم حينيذٍ مزقوا اثوابهم * ونتفوا شعورهم * وذروا الرماد
علي رؤسهم * وانطرحوا علي الارض منتحبين انتحابا غير قابل
التعزية * الا انه مع هذا فقد يمكننا ان نجتني نفعا جزيلا من
مجرد اعتبار الامر بتامل حي * فلنقتدين اذا بمشورة القديس
برنردوس * ولنحدرن الي جهنم ونحن احيا ليلا نحدر اليها ونحن
موتى * اما الفوايد التي يجب ان نجتنيها من تامل هذه العذابات
الخالدة فهي خمس على الخصوص *
الفايدة الاولي هي محبة عظمى لله تعالي وتقدمة الشكر الجزيل له
لانه لم يزجنا في هذه العذابات مع اننا قد استوجبناها كثيرا * فقل لي
ياصاح ما الذى فعلته مع الله انت الذى اخطات اليه اكثر بالف
مرة مما اخطا اليه كثيرون من الهالكين * حتي انه عاملك برحمة
وعامل اوليك بصرامة العدل * فلو انه تعالي ينقد احد اوليك
الاشقيا الهالكين من اللهيب الجهنمي * ترى كيف كان
يشكر احسانه تعالي * ويكون حسن الوفا نحو المراحم الالهية *
ويحسن سيرته جدا جدا * ويمارس رياضات التوبة القشفة
بنشاطٍ جزيل * وكيف كان يستخف باصعبها ويستعذب

امرها

امرها * والحال ان حفظ الله اياك من السقوط في جهنم لاحسان اعظم جدًا من تخليصهِ اياك بعد السقوط فيها * لانه لو فرضنا ان رجلاً مديونًا عومل بهذا النوع من الرحمة * اعني بانه لم يهنه صاحب الدين ولم يحبسه * بل وهبه مالهُ عليه * اما كان احسانه هذا اليهِ اعظم جدًا من احسانهِ الى مديون اخر قد سمح لهُ ايضًا بما لهُ عليهِ ولكن بعد ما اعتقله في السجن وعذبه فيه بالقيود والجوع وغير ذلك من العذابات *

الفايدة الثانية التي نجتنيها من تامل العذابات الابدية * هي الصبر لاحتمال جميع بلايا هذه الحيوة واتعابها * ليلا نضطر باحتمال بلايا الحيوة الاخرى وعذاباتها * وهذا اشار اليهِ التلميذ الحبيب في الاصحاح ١٤ من جليانهِ * لانه بعد ان قال ان دخان عذاب الهالكين يصعد الي دهر الداهرين * استنتى قايلاً هاهنا صبر القديسين * وذلك لانهم اذ يتاملون ان جميع ضيقات هذه الحيوة تزول مع الزمن * وان عذاب الحيوة العتيدة يدوم الى دهر الدهرين * يستخفون بكل تعبٍ عالمي * ويحتقرون كل شدة زمنيّة * ولذلك يحثنا الذهبي فمه علي احتمال كل ضيقةٍ زمنيّة بالصبر * بواسطة اعتبارنا الضيق الابدى * فلنستعملن اختبارنا الشرور اليسيرة * لاستفهام حقيقة ما هي اعظم منها * فان دخلت الحمام ووجدته حارًا بافراط * فتذكر

حينيذٍ حرارة نار جهنم * واذا از عجتك الحمى المحرقة * فوجه
فكرك الي اللهيب السفلى * وقل متاملاً متفلسفاً هكذا *
ان كان حرارة حمام اوسخونة حمى تضايقني بهذا المقدار * فماذا
يكون حالى اذا انحدرت الي جهنم *
الفايدة الثالثة الواجب تحصيلها من ذكر بلايا الحيوة العتيدة *
هى الازدرا بجميع خيرات هذه الحيوة * لاننا ان سقطنا بعد
موتنا في النيران الموبدة * فنرى كل شي في هذه الحيوة خيالاً *
وكل غناها زبلاً * وكراماتها هواناً * ولذاتها مرارات * فلو
انك تشاهد نهاية حيوة موريكيوس الملك حينما ذبحت امامه
اولاده مع امرانهِ واخيراً ذبح هو بامر رجل خاين شرير كان من
بعض خدامهِ * فلا ريب في انك كنت تقول حقاً انه باطل هو كل
العز والمجد الذى حصل عليهِ هذا الملك في مدة عشرين سنة *
مع ان عذابه هذا قد كان زمنياً فقط * لانه مات موتاً صالحاً
فان كان يوم واحد بلاشي سعادة عظمى ثبتت مدة عشرين
سنة * فماذا تفعله لاسنة واحدة ولا الف سنة في حال العذاب
بل ابدية تامة لا يدرك اتساعها * وان كنت ايضاً بعد
مشاهدتك الملك النجس اليوغابلوس متمتعاً بلذاتهِ الارضية
واللحمية * تراه مذبوحاً مطروحاً في بلوعة * فكيف كنت
تحكم علي سعادة هذا الملك الشقى * فابصر الآن ملقى في

جهنم * معذبا من الشياطين * غريقا في بحيرة كبريت ملتهب
الى ابد الدهور * واحكم علي تلك السنتين اللتين عاشهما
ملكا * بالنسبة الي ابدية السنين التي سيتعذب فيها *
الفايدة الرابعة التي يجب ان تستنتجها من تاملنا العذابات
الابدية * هى الحث علي الاجتهاد بالاّ تدع هذا الزمان ان يعبر
باطلاً خلوا من فايدة * علي ان تامل تلك العذابات التي تكابدها
الهالكون في جهنم خلوا من فايدة ما * تحثنا حثا بليغا على
هذا الامر * خبرنا بطرس رجينالدوس عن راهب ما قديس *
انه فيما كان يصلى سمع صوت بكاء ونحيب * فقال الراهب
نحو صاحب ذلك الصوت من انت يا ايها الباكى * فاجابه ذاك
قايلاً انني واحد من جملة الهالكين * فقال الراهب وما هو سبب
نوحك وبكايك * فاجابه الشقى قايلاً * اعلم انه لاشي يولمنا في
جهنم اشد الاما كمثل تذكرنا الزمن الذى اضعناه بالخطية *
فيا الشقاء حال اوليك الاشقيا الذين خسروا ابدية سعيدة لاجل
تضييعهم زمنا وجيزا * فلا نضيعن الان باللذة ما لانقدر فيما
بعد ان نحصله بالنوح والبكا * بل فلنبكين الان علي ذنوبنا بكاء
مفيدا ليلا نبكى فيما بعد علي عذابنا بكاء باطلاً *
الفايدة الخامسة والاخص التي يجب ان نجتنيها عند تاملنا
العذابات الجهنمية هى بغض الخطية بغضا في الغاية القصيي *

لاننا

لاننا من هذا الشر شر الاسيّة * نتنقل الى ذاك الشر العظيم
شر العذاب * ليت شعري ما اعظم شر اخف الخطايا المميتة وادناها
حيث انه لا يمكننا ان نفي عنه باحتمال عذاب نار موبدة * غير
انه اذ كان هذا المضمون يقتضي تاملاً مسهباً وايراداً اكثر
ايضاحاً * فلذلك نورده في الفصل التالي *

الفصل الثاني عشر

في عظم شر الخطيّة المميتة الغير المتناهي الذي لاجله نخسر خيرات
السما الابدية وتدركنا عذابات جهنم الخالدة
فانعم الان النظر ايها المومن * واعلم ان شر خطيّة مميتة واحدة
التي تركب بدقيقةٍ واحدة من الزمن وبها نبتاع شقاءً ابدياً
لاجل لذةٍ وقتيّة * هو شر عظيم وممقوت وملعون بهذا
المقدار * حتى انه يستحق عذابات جهنم المهيلة الى ابد
الدهور * بل كما قالت العلما اللاهوتيون * انه بهذه العذابات
الابدية نفسها * لا يعذب شر الخطيّة على مقتضى استحقاقه *
وسبب ذلك * هو ان شر الخطيّة لعظيم بهذا المقدار * حتى انه
يوازي اكثر من هذه الشرور الغير المحدودة * فعذاب الخطية
هو ظل الخطية * على ان الخطية هي بمنزلة الجسم * وعذابها
خياله * ولذلك يكون الاختلاف ما بين الخطية المميتة وبين النار

الجهنمية نظرًا الى ماهية الشر الحقيقى * هو نظير الاختلاف
الموجود مابين الانسان وظله * فالخطية اذًا وحدها هى شر
حقيقى * والنار الجهنمية بالنسبة اليها ليست هى الا بمنزلة ظل
هذا الشر * بل ان هذه النار المذكورة نظرًا الي كونها متممة
قضا العدل الالهى * لاتعد شرًا بل خيرًا * والحال كما ان عظمة
الاجساد تعرف من ظلها * هكذا يجب ان يعرف عظم شر
الخطيّة من قبل شر العذاب الجهنمى الذى هو ظلها * ان الله
يحتقر بالخطية ويهان علي نوع جسيم وباهظ جدًا * ومن المعلوم
انه بمقدار مايكون القنوم المفترى عليه افضل عظمة * بمقدار
ذلك يكون الافترا اكثر جسامة * وبالتالى من حيث ان العزة
الالهية التي تحتقر بالخطية هى غير متناهية * فالاحتقار الصادر
ضدها هو غير متناهٍ * ولعمرى ان الاهانة بغير حق هى عند جميع
الامم اكثر اعتبارًا من الكرامة بحق * فان تجاسر رجل فلاح
فضرب احد الاشراف ولطمه علي وجهه بغير حق * اما يكون
غيظه من قبل اهانته هذه يفوق جدًا علي سروره بكل ما يقدم
له من الكرامة الواجبة من ادنيا الشعب واحناروسهم له * فمن
ثم ليس بعجب ان خطية واحدة مميتة مفعولة من خليقة ضد
الله غير متناهٍ جلال عزته * تكون اكثر اعتبارًا من كل ما يمكن
ان يحصل له من الاكرام من قبل الملئكة والقديسين كافة *

ومن اجل ذلك يحصل شر الخطية عظيماً بهذا المقدار * حتي انه يكون من المستحيل ان تفي خليقة بسيطة عنه باستحقاقها وفاءً واجباً موازياً وتنال المغفرة له * فلنفرض انه لم توجد في العالم خطيّة ادم التي افسدت الذرية البشرية كافةً * وانه لم يخطي داود النبي * ولا بولس الرسول * ولا القديس اغوستينوس * ولا القديسة مريم المجدليّة * ولا القديسة مريم المصرية * وانه لم توجد في العالم خطيّة ما مفعولة من البشر او من الملئكة * ما عدا خطية واحدة مميتة من اخف الخطايا المميتة وادناها * مفعولة من انسان واحد في البرية بفكرٍ واحدة * فان شر هذه الخطيّة يكون عظيماً بهذا المقدار * حتي انه لا يمكن ان تستطيع خليقة من جميع الخلايق ان تفي عنه للعدل الالهي وفاءً واجباً موازياً * ولو ان الله بعد هذه الخطية ولاجلها امر بان تتشقق السموات * وتتساقط الكواكب * وتجف البحار * وتنقلب العناصر * ويستحيل الجنس البشري الي رماد * وتطرح الملئكة عن كراسيهم * ويعود كل شي الي العدم * فهذا كله لا يكون وفاءً كافياً للعدل الالهي * وذلك لان هدم السموات وتلاشي البشر والملئكة هو شي محدود متناهٍ * واما الله المهان والمفترى عليه بالخطية * فهو غير محدود وغير متناهٍ * والحال انه كما يقول المبدا الدارج في مدارس العلما * لا قياس ولا مناسبة

ما بين الغير المتناهي والمتناهي * وبالتالي انه لا توجد مناسبة ما
بين عذابات جميع الخلايق وبين الاسيّة الي الخالق * فلو ان
جميع الشهدا يقدمون لاجل هذه الخطية المذكورة كل
عذاباتهم * والمعترفين تقشفاتهم * بل لو ان والدة الله المجيدة
نفسها اصرفت كل حياتها بالبكا وفاءً عن هذه الخطية * وقدمت
عنها جميع استحقاقاتها * لم يكن ذلك كافيًا لنيل مغفرتها * ولقد
كان من المستحيل ان يفي عنها وفاءً كافيًا موازيًا سوى
ابن الله نفسهِ * فليتامل الانسان هذه الحقيقة * وليرتجف
فرقًا عند تفكرهِ انه قد يمكن ان يرتكب خطية *
ولكن لكي يتضح اجلى اتضاحًا جسامة شر الافتراء علي الله بفعل
الخطية * وذلك لا نظرًا الي جوهرها فقط * بل نظرًا الي
اعراضها ايضًا * فنورد هنا سبعة اعراض التي بها كما قال
القديس توما اللاهوتي وجمهور المعلمين اللاهوتيين * يتكيف
كل فعلٍ حاوٍ خطية مميتة تكيفًا معتبرًا وقد تدعي هذه الاعراض
ظروف الحدوث * لانه كل فعلٍ حادث لا يخلو منها *
فالعرض الاول هو الذي يلحق الفعل المميت من قبل فاعلهِ *
العرض الثاني هو الذي يلحقه من قبل الشي المفعول *
العرض الثالث هو الذي يلحقه من قبل المكان الذي يفعل فيهِ *
العرض الرابع هو الذي يلحقه من قبل الوسايط التي يفعل بها *

العرض الخامس هو الذى يلحقه من قبل الغاية التي يفعل لاجلها *
العرض السادس هو الذى يلحقه من قبل النوع الذى يتم به الفعل
العرض السابع هو الذى يلحقه من قبل الزمن الذى يكمل فيه الفعل
وقد زاد اريستطاليس عرضاً اخر وهو الذى يلحق الفعل من
قبل الشخص المفعول ضد ذلك الفعل *
فلننظرن الان كيف تكون الخطية نظراً الى هذه الاعراض شراً
عظيماً جداً وممقوتاً وملعوناً في الغاية * واولاً فلنعتبرن من
هو فاعل الخطية * فهو انسان حقير يجاسر علي ان يرفع يد
على الله خالقه * انه لو يفعل هذا قنوم مساوٍ له تعالي والله
نظيره * لكانت مع ذلك الاسية عظيمة جداً * فماذا تكون
اذ اوهى مفعولة ممن هو قليل من الطين والزبل والحماة *
ثانياً فلنعتبرن ما الذى يفعله الخاطى حينما يخطى * قال القديس
انسلمس ان فعل من يخطى هو كفعل من يريد ان ينزع عن
الله تاج ربوبيته ليضعه على راسه * وعلى راى القديس
برنردوس ان فعله هو كفعل من يرومران يقتل الله * اما
الرسول الالهى فيقول * انه كفعل من يريد ان يصلب ابن الله
تحت رجليه ليدوسه * وان يصلبه ثانية * فلو فعل احد نظير
ذلك ضد عزة ملك ارضى * اما كان ذلك كافياً لان ترضض
عظامه * وتمزق احشاوه * وتهدم بيوته * وتستاصل ذريته *

والحال ان هذا عينه يفعل بالخطيّة ضد الله الضابط الكل رب
الارباب وملك الملوك * فحقًا ان مجرد التفكر بهذا الامر يوعب
المتامل خوفًا ورعبة * فيا ايها الالهُ القدوس * من ذا يستطيع
ان يفسر ما يفعله الخاطي ضدك وضد نفسهِ ايضًا * انه يحتقر
عزتك الالهيّة * ويدوس ناموسك الاقدس * ويستهزي بعدلك
ويضحك علي مواعيدك * ويرذل جهارًا مجدك المعد لهُ * وذلك
ليصير اسيرًا للشيطان الى الابد * مفضلًا رضى عدوك وعدوه
المميت الجهنمي * على رضاك انت يامحبه السّماوي ومخلصه
وخيره الوحيد * مرتضيًا بان يموت موتًا ابديًا في الجحيم
بمعصيتهِ * اكثر من انه يحيي حيوة ابدية في السّما بخدمتهِ عزتك
وطاعتهِ نواميسك *

ثالثًا فلنعتبرنّ اين يتمم الخاطي خيانته لله * فانه يتممها في
عالمهِ تعالي وتجاه وجههِ * وذلك مع علمهِ بان هذا الذي هو ربه
وخالقه * ينظر اليهِ حينما يخطي هو امامه وضد بوقاحةٍ * انه
لو يخطي الانسان حيث لا يمكن ان يبصره الله لكانت مع ذلك
خطية عظيمة جدًا * فكيف وهي تتم في منزلهِ تعالى وامام
عينيهِ * فايت جهنم لا يستوجبها فعل مثل هذا * ولذلك بالصواب
جدًا كان يذرف النبي ينابيع الدموع ويشعر بوجع من يطعن
قلبه بسيفٍ حينما كان يقول نحو الله في حال توبتهِ * الشر

قدامك صنعت * ومع ذلك فليس ان الخاطى يصنع الشرفي
بيت الله وامام عينيه فقط * لكنه يصنعه وهو تعالي حامله على
ذراعيه ايضاً وحافظه بقدرته * فلو يوجد ابن مئات اللعنة
يلطم امه ويخدش وجهها ويقصد ان يطعنها بسكين * حينما
تلاطفه هي وتضمه الي صدرها لافراط حبها له * اما كان احتسبه
الناس شيطاناً متجسداً وشراً منه * فهذى هي صورة الانسان
الذى ياسي الي الله حينما يحفظه تعالي ويحمله علي ايدى عنايته *
رابعاً فلنعتبرن الوسايط التي يفعل بها الخاطى الخطية ويستعملها
ضد الله خالقه * وذلك لانه يستخدم احسانات الله ضد الله
تعالي سبحانه * ان نسيان الجميل وكفران النعم يعد عند الناس
شايبة ردية جداً وعدم وفاء يغتاظ منه الجميع * فماذا يكون
اذاً استعمال الاحسان ضد المحسن نفسه * فما ظنك بخيانة جندى
يجرد سيفه ضد قايد الذى دجه بذلك السيف * فهذا ما يفعله
الانسان ضد ربه * لان عقله الذى اتخذ منه عز وجل وبقية
قوى جسمه ونفسه يستخدمها لفعل المعصية * بل انه يزيد علي
ذلك مجاسرة وقحة * وهو انه يريد ان الله يعينه حينما يخطى *
وهذا ما يشكو منه تعالي بقوله علي لسان اشعيا نبيه * انك
استخدمتني في خطاياك * على ان الانسان الذى لا يقدر ان
يحرك يده ولا ان يباشر عملاً ما طبيعياً خلواً من سعى الله *

وتوفيقه

وتوفيقه اياه * فانه حينما يحرك لسانه بالتمرمر اويل للسرقة يستعمل توفيق الله ضد تعالي نفسه *

خامساً فلنعتبرن الغاية التي من اجلها يفعل الخاطى الخطيّة * علي ان هذا العرض يزيد عظمة الخطية جدًا * فلماذا يغيظ الخاطى الله بهذا المقدار * وما هو الشى الذى لاجلهِ يحتقر خالقه ويخون ربه مالك ارقاب العباد * ويدوس ابن الله برجليهِ ويصلبه ثانيةً * فعسي ان الذى يحركه الى هذا الشر العظيم هو لكيلا يتلاشي العالم * اولكى ينال احد الناس الخلاص * اولكى يصير هو الهًا من كونهِ انسانًا * كلا * بل انما يفعل ذلك لاجل لذة دنية دنسة ولاجل غرض الي * واقول علي الاطلاق انه يفعل ذلك لانه هكذا يشا لا من اجل شي اخر * فيالها من مجاسرةٍ مريعة وقحةٍ قبيحة بليغة * يالهُ من نفاق ردى ممقوت * فكيف لا ترجم السموات من يهين الله خالقه بصواعقها * وتلاشي من علي وجه الارض من يتجاسر هكذا علي باريها جلت عزته *

سادساً فلنعتبرن نوع افتعال الخطية الذى يزيدها ثقلاً * علي ان الانسان يخطى بعد ان سمع ورای شدة انتقام الله من الخطاة * بعد ان عرف ان ابهى المليكة الذين كانوا في السما قد استحالوا الى جمر اسود جهنمى لاجل فكر واحد ردى * وان والدينا الاولين طردا من فردوس النعيم وزجا في هذا الوادى وادى

الدموع لاجل مجرد تناول ثمن قد نهيا عنها * وبعد ان راى السموات هاطلة طوفانا عرمرما على الارض كلها * وتارا محرقة علي مدن كثيرة لاجل الخطية لاغير * بعد ان ابصر الارض فتحت فاها وابتلعت اناسا كثيرين مع كل ما يملكونه لتمردهم علي موسي * فبعد ان راى هذا وغيره يجاسر الغبي الوقح علي ان يخطى * وذلك لاجل لاشي * بل لكى يرضى ساطانا بيل مفضلا اياه علي الله ربه * ويخول هذا اللعين انتصارا علي السيد المسيح الراغب التملك علي انفسنا *

سابعا فلنعتبرن الزمن المفعولة فيه الخطية * لان المسيحيين الان يخطيون بعد ان راوا سيدنا يسوع المسيح مسمرا على الصليب لكى لا يخطيوا * بعد ان رسم تقدس اسمه الاسرار المقدسة دواءهم * سيما سر جسده ودمه الاقدسين * هذا الذى لم يفعله تعالي لاجل الشيطان قبل ان يخطى * افليس اننا نحن اشر من الشياطين انفسهم * افما كان يجب كما قال القديس اغوستينوس ان الله يخلق جهنم اخرى جديدة لاجلنا * اذ اننا حزنا من الجود الالهى نعما اوفر من تلك التي حازتها وتحوزها الامم في الناموس الطبيعى * ولذلك نستحق عذابا اعظم من عذابهم * وقد يثبت ذلك بما جرى للقديس مكاريوس * وذلك انه اتفق يوما لهذا القديس وهو ذاهب في البرية * ان وجد

في

في طريقه ججمة فحولها من الطريق براس عصاه * فصارت
الججمة تتكلم * فسالها حينيذٍ القديس قايلاً من انتِ * فسمع
صوتاً خارجاً منها يقول * انى انا كنت كاهناً للوثنيين
الساكنين هنا قديماً * والان انا معهم في قلب نار محرقة *
فقال لها القديس فهل انه يوجد هناك مكان اكثر عذاباً من
المكان الذى انتم فيه * فاجابت الججمة اعلم انه ليوجد في
جهنم تحتنا مكان اكثر عذاباً من مكاننا بما لا يوصف * وفيه
يتعذب الذين عرفوا الله وجحدوه وابوا عن الطاعة لاوامره *
اخيراً نقول ان الخطية تزداد ثقلاً وسماجة من قبل الشخص
المفعولة ضده * والحال انه ماعدا ان الله كامل وحكيم وبهى وقادر
على نوع غير متناهٍ * فاننا مع ذلك نخطى ضده وهو الذى يحبنا
حباً غير متناهٍ ويحملنا ويتفضل علينا بانعامه الكثيرة * ولعمرى
ان الوحوش لا تؤذى من يحبها ويحسن اليها * فانظر ياهذا ما
الذى تفعله حينما تاتي الى من يحبك افضل من حبه لحيانه * وتغيظ
الذى يمن عليك بكل خير لكيلا تصنع شراً * فخف اذاً اهذا الرب
العظيم * احترم عزته الالهيّة * احبب جوده الفايق * ولا تغظه
بخطيّة *

ولقد يجب ان نعلم ايضاً ان الخطية ذاتياً هى شي شنيع مكروه
بهذا المقدار * حتى انه لو فرضنا بعدم وجود الله لكان يجب

ان نبغضها فوق كل شي * وهذا نفسه قاله الفلاسفة الوثنيون *
ومنهم سينيكا وشيشرون واريستطاليس الذى تفوه بهذه
الكلمات العسجدية قايلاً * خيرلنا ان نموت افضل من ان
نفعل شيأ ضد خير الفضيلة * ويثبت هذا القديس اغوستينوس
بقوله * لو انه كان في قدرتنا ان نبطل يوم الدينونة لكان مع ذلك
يلزمنا ان نحيد عن الشر ونصنع الخير * وقد اظهر الله على
نوع ما شناعة الخطية بحادثة نادرة الوجود * خبرنا فيلانكوس
المورخ * انه في سنة الف ومايتين وثمان وتسعين * اتى
كاسانوس ملك التتر الوثني الى بلاد سوريا بجيش عظيم
يشتمل على مايتي الف خيال * فاستولى على البلاد المذكورة *
وارعب قلوب الملوك بسطوته * حتي التزم ملك بلاد ارمينية
بان يدفع له ابنته زوجة له * مع انها كانت مسيحية والملك
المذكور كان وثنياً كما ذكرنا * فبعد زمن ما حبلت الملكة *
ثم بعد كمال مدة الحبل ولدت * فلم يظهر في ثمرة بطنها صورة
بشر * لاجل جسامة قباحة المولود * فتحير الملك ثم غضب
علي الملكة * وتكران المولود من زرعه وظن بها انها
زانية فحكم عليها بالموت * اما الملكة البارة فالتجات الى الله
بالصلوة وطلبت منه عوناً بهذه التجربة * فالهمت بان تسال
الملك ان يعتمد المولود منها قبل ان تموت * فرضى الملك بذلك

فلما

فلما اعتمد المولود استحال في الحال من كونهِ قبيح الصورة الى طفل جميل جدًّا * فتعجب الملك من هذه الاعجوبة * وامن بالسيد المسيح الذى اظهر بهـــذه الاية جمال النعمة وقباحة الخطيّة * مع ان هذا الطفل الذى ولد بهذه البشاعة المستكرهة لم يكن متدنسًا بخطية ما مفعولة منه * بل بالخطيّة الاصلية لاغير * فماذا تكون اذًا بشاعة الذين باختيار ارادتهم يخطيون خطية مميتة * انه قد تعجب بليتيوس الفيلسوف من قوة بعض صواعق تذيب السيف في غمد ولا تتلم الغمد اصلاً * بل تبقيهِ سالمًا صحيحًا * فهكذا هى الخطية فانها تتلف النفس المخفية في الجسد وتدع الجسد صحيحًا * فهى اذًا صاعقة خارجة من جهنم * واضر من جهنم نفسها *

وماذا نقول عن الشرور التي تحدث بسبب الخطية * فلو انها اعني الخطية تكون افضل ما يوجد في العالم * لكان يجب علينا لهذا السبب اعني لاجل مفعولاتها الملعونة * ان نبغضها اكثر من الموت * وذلك لانها تعدمنا النعمة * وتبعد عن النفس الروح القدس وتسلب منا حقنا علي الوراثة السماوية * وتنزع عنا جميع استحقاقاتنا * وتصيرنا غير اهل للعون الالهى * وتزجنا بعد الموت في دركات الجحيم * وفي هذه الحيوة تجلب علينا بلايا غير متعددة * لانه لا يوجد طاعون ولا حرب ولا جوع ولا

مرض لم تسبيه الخطيّة ومن ثم يجب علي الذين يحزنون ويبكون
لاجل مصايبهم هذه الزمنيّة * ان يحولوا حزنهم وبكاهم الي
مصدرها وعلتها اعني الي الخطية * ومن هذه يجب ان يشكوا
لامن تلك * لان هذه اعني الخطية ولو كانت واحدة فقط لاستحقت
جميع دموعنا * بل دموع اهل المسكونة جميعهم * والبكا علي
شي اخر غيرها هو ضرب من الحماقة *
ولعمري ان الذى يمهد الطريق لهذا الوحش الشنيع اعني
الخطية * هو محبة الاشيا الارضيّة * كما انه بخلاف ذلك ان
الذى يسد الطريق بازايه * هو الارتياح الي الاشيا الابدية *
فلينظرن اذًا الانسان الي ايت جهة يجب عليه ان يميل بعواطف
قلبه * وليصغ الي مشورة الحكيم القايل * قلب الحكيم من عن
يمينه * وقلب الغبي من عن يساره * علي ان الرجل الحكيم يضع
قلبه وعواطفه في الاشيا الابدية * والغبي الجاهل يضعها في
الامور الزمنية * ولذلك كما قال القديس ايرونيموس في تفسيره
هذه الاية * ستحزن الجهال محبوا العالم في يوم الدين * اذ
يقفون من عن يسار الله ويحكم عليهم بالهلاك الابدى *
فاما الحكما محبوا السما فيفرحون * اذ يجلسون من عن يمين ابن
الله ليفوزوا بالمجد الابدى * فلنستاصلن اذًا من قلبنا محبة
الخيرات الزمنيّة التي من شانها ان تمهد الطريق للخطيّة * انه

اذ انقد المكابيون مدينة اورشليم من ايدى الامم * ودخلوا الهيكل
المقدس فوجدوا مذبح المحرقات مدنسا * فحاروا فيما يجب
عليهم فعله * هل انهم يستعملون هذا المذبح لاجل انه كان
قد تخصص اولاً لعبادة الله * او يهدمونه لانه قد تدنس بعد ذلك
بالذبايح التي تقدمت عليهِ للشيطان * فيقول الكتاب المقدس
انهم تمسكوا بالراى الحسن الثاني * اى بان يهدموا المذبح
المدنس ويبتنوا مذبحاً اخر من حجارة جديدة * فلنقتدين اذاً
بهم * ولنتمسك بهذا الراى الحسن * اى لنفرنّ من اسباب
الخطية ونستاصلها بالكلية * لانه ان كان قد كفى المكابيين لهدم
المذبح واقامة مذبح غيره مخصص لله * ان يكون اناس غيرهم
اخطاوا هنالك * فكيف لا نستاصل نحن الاسباب التي بها نحن
اخطانا لا الاخرون * وربما ان محبتنا الاشيا الزمنية قد ورطتنا
مرات كثيرة في الخطية * فيلزمنا اذاً ان نستاصل من قلوبنا
كل انعطاف لا يكون الابدى موضعه * ولا يكفي ان ننزع عنا
كل ميل نحو الخيرات الارضية فقط * بل ينبغي لنا ان
نخشي هذه الخيرات الخادعة * وان نكون
من قبلها خايفين على

* الدوام *

*

المقالة الخامسة

في الفرق ما بين الزمني والابدى نظرًا الي الوسايط
التي منحناها الله تعالي لاكتساب الخيرات الابدية
والنموذجات التي قدمها لنا لاحتقار الاشيا الزمنية

* وهي تسعة فصول *

الفصل الاول

في الفرق العظيم الكاين ما بين الابدى والزمني من حيث ان
الابدى هو الغاية والزمني هو الواسطة الموصلة اليها وفي
الغاية القصوى التي خلق الانسان لاجلها

فلنتكلم الان قليلًا عن الفرق العظيم الكاين ما بين الابدى والزمني
لاجل كون الابدى غاية والزمني واسطة لها * فاعتبر اذًا ان
الله جعل الابدى غاية الانسان * وجعل الانسان غاية الزمني *
وقد خلق الانسان لاجل الابدى لكى يربح كمالة الغايي وغبطته
السرمدية * وخلق الزمني من أجل الانسان لكى يستعمله فقط
بمقدار ما يحتج معينًا له لربح الابدى * فامعن اذًا النظر جيدًا ايها
الانسان * واعقل حسنًا الغاية التي خلقت لاجلها ليلا تعدمها *

اعتبر

اعتبران المجد الابدى ليس هو شيأ طبيعيا يحق لك * لان الله
انما خلقك برحمته الغير المتناهية لكى تفوز بهذا المجد * ومع انه
تعالي قد كان قادرًا ان يبدعك لاجل كمال ما طبيعى * لم يفعل
ذلك * لكنه برحمته العظيمة خلقك لاجل سعادة ابدية * ولاجلك
خلق بقية الخلايق * اما انت فلم يخلقك الّا لاجل ذاته فقط *
فنظرًا الى هذه الغاية لا احد من المليكة ولا من الشاروبيم
والسارافيم يفوقك شرفًا * فانتج اذًا من ذلك ما انت ملتزم به *
فلانّ الله خلقك * فينبغى ان تكون له تعالي بكليتك * وكل ما
تفعله يجب ان تفعله لاجله عزوجل * على ان الفلاح الذى
يغرس شجرة له حق على كل اثمارها * ثم انه لاتوجد سلطة
اعظم من سلطة الغاية علي كل ما هو منتظم اليها ومرسوم لاجلها
حسب راى المعلمين اللاهوتيين المثبت بتعليم الفلاسفة * فان
كنت انت ملتزمًا لله بكل ما لك من جهة كونك * وذلك
لاجل انه تعالى هو العلة التي منها اتخذت الوجود وكل ما انت
حاصل عليه * فانت ملتزم له باضعاف ذلك لاجل كونه علتك
الغايية * لانك بالعلة الاولي اتخذت كونًا محدودًا * وبالعلة
الثانية نظمك الله الي كون الهى غير متناهٍ وصيرك قادرًا علي
امتلاكه * والحال اننا قد نرى كل شي يميل طبعًا الى غايته *
وبكل قوته يطلب الوصول الي مركزه * وذلك كالنار والحجر *

فبهذا

فبهذا العزم والاجتهاد بل باشد منه جدًا كان ينبغي ان تطلب
الهك * واليه وحده يلزمك ان ترتاح * واياه فقط يجب ان تبتغي
بكل قوى نفسك وقدرة جسدك وعواطف قلبك * تامل الحجر
فانه لكي يصل الي مركزه وغايته وصولًا مستقيمًا * لايبالي من
الوقوع في الما او في النار ولا من انه ينكسر ويسحق * فهكذا
انت لكي تصل الى الله غايتك لايجب ان تبالي من خسارة المال
او الكرامة والشان او بعض اعضايك ايضًا * واذ قد تحقق ان
لاشيا المخلوقة لاتجد راحتها الطبيعيّة الّا في مركزها * فلا
يخدعنّ اذًا قلب الانسان برجايه انه يجد راحةً وسلامةً خارجًا
عن الله خالقه *
فكل عمل لايطابق غاية هو عمل انسان جاهل وغبي * لانك
ان وجدت احدًا يريد ان يتحفظ من البرد في زمن الشتا *
فيخلع عنه ثيابه ويبتعد من النار اما كنت تعد انسانًا غبيًا
احمق * والحال ان هذه الحال حالك انت الذي يبتغي خيره
بالابتعاد عن الله وعدم طلبه اياه في كل شي * فهذا هو الضلال
الفظيع المتهافت فيه بنوا البشر كما لحظ القديس اغوستينوس *
انهم يشتهون السعادة ويحصلون اشقيا * لانهم لايعرفون
ان يطلبوها *
ان قوة العلة الغاية لعظيمة بهذا المقدار * حتى ان الاشيا

المنتظمة اليها تتخذ منها اعظم ثمنًا * ولو انها اعني غايتها تكون
دنيّة حقيرة * ولم تكن تحصل على تلك القيمة لو انها انتظمت
الى شي اخر ليس هو بغايتها * ولو مهما كان ثمينًا * مثلاً سكة
الفلاحة هي شي معتبر عند الفلاح * ويشتريها بدراهم منقودة *
فاذا وهبتها مجانًا لمصور ليستعملها في صنعة التصوير * فلا
يدنو منها بل يطرحها عنه مزدلاً * وهكذا الدواء ولو مهما كان
مرًا * فهو شي معتبر عند المريض ويشتريه بثمن * اما اذا كان
متعافيًا صحيحًا فيحتقر وينبذ كارهًا * بل الانا الدنس المستعمل
لخدمة الجسد اذا وضع في مكان خفي مختص لهُ * فهو شي نافع
وتطلبه الناس * الّا انه اذا ما وضع في موضع ظاهر وبين اواني
فاخرة * تشمأز الناس منه وتسخقه * فالاشيا اذًا يجب ان تطابق
غايتها * وان تكون منتظمة اليها * ان الاشيا الخسيسة تصير
معتبرة من قبل غايتها * وانها بدون هذا الانتظام والمطابقة
تكون محتقرة ولو تسامت الى سحب السما * فانعم ادًا النظر
ايها المسيحي * وتامل انك منتظم الى غاية سامية جدًا * واسمى
ما يمكن ان يكون وهي مجد الله جل جلالهُ * فلو ان الله خلقك
لكي تخدمه بغير انه يعدك بمجد * لوجب عليك ان تعتبر ذلك
اعتبارًا عظيمًا * الّا انه تعالى بجوده الغير المتناهي احب ان تكون
غايتنا لا خدمته فقط * بل التمتع بهِ ايضًا والاشتراك بمجده *

وبهذا

وبهذه الغاية السامية قد حصلنا مشابهين لا المليكة فقط * بل
الله نفسه ايضاً * لانه كما انه تعالي ليس لهُ سعادة ولاغاية سوى
ذاتهِ الغير المتناهي فضلها * هكذا اراد الّا تكون غايتنا وسعادتنا
غير غايتهِ تقدس اسمه وسعادته *

فانتج اذاً من هنا كم يجب عليك ان تعتبر الابدي اعتباراً
كلياً سامياً من حيث انه متعلق بغايتك * وبعكس ذلك كيف
انه لايجوز لك ان تعتبر الزمني نظراً الي ما هو بذاتهِ * بل نظراً
الي هذا فقط * وهو لانه يمكن ان يصير لك واسطة لاكتساب
الابدي * فلاشي اذاً في الزمني يستحق ان يحب ويرغب من
الانسان الّا حينما نصل بهِ الي الله * وخارجاً عن ذلك فهو بذاتهِ
كلاشي * فكما ان المسافر المتقصد الوصول الي مكانٍ ما * لايبالي
من الطرق المختلفة بل يسير في الطريق الموصل الي المكان
المقصود * ولا يعنيه ان كان الطريق يمنةً او يسرة * سهلاً او
حزناً * جبالاً او وديانا * هكذا يجب ان نكون نحن نظراً
الي الزمنيات * اعني مجردين من كل ميلٍ اليها * فلانحب ولا
نكن شيئاً زمنياً الّا امالانه يبلغنا الي الله * واما لانه يبعدنا
عنه سبحانه * فان كان الفقر يقودك الي الله فاعتنقه بكل
عزم قوتك وحبه فوق كل شي * وان كان الغني او الفخر العالمي
يبعدك عنه تعالي فاحتقرهُ والقهِ عنك بعيداً * وان

كان

كان تغافل الناس عنك واحتقارهم اياك يسديك الخلاص فافرح
به * وان كانت الكرامات العالميّة تصدك او تعيقك عن خدمة
خالقك * فابغضها اكثر من بغضك الموت * وان كانت
الاتعاب والالام تبلغك الى معرفة مخلصك * فهن نفسك علي
اتعابك واوجاعك * وان كانت اللذات تصيرك عديم الوفا نحو
ربك المحسن اليك * فباين جميع تنعمات هذه الحيوة ولذاتها كيلا
تعدم تنعم الحيوة العتيدة * فمن هذا يفهم الاختلاف الكاين ما
بين الاشيا الذى عينه القديس اغوستينوس وجمهور المعلمين
اللاهوتيين * وهو ان بعضها يجب ان نتمتع بها * وبعضها ينبغى
ان نستعملها فقط * فالاشيا التي ينبغى ان نتمتع بها هى ابدية *
واما الاشيا التي يلزمنا ان نستعملها فقط ولا يجوز لنا ان نتمتع
بها علي وجهٍ ما فهى زمنيّة * فحيوة الانسان الشريرة كما قال
القديس المتقدم ذكره هى التي تستعمل الاشيا استعمالاً رديًا
وتتمتع تمتعاً رديًا * وبخلاف ذلك حيوة الانسان الصالحة هى
التي تستعمل هذا العالم استعمالاً جيدًا * وتتمتع بالله تمتعاً
حسناً *

وقد يجب ان نعتبر هذا الامر جيدًا وهو ان استعمالنا الخلايق
الموصل بنا الى الخالق هو احتقارنا اياها * لان الله رام
ان يسهل لنا الوصول الى غايتنا تسهيلاً هذا حد * حتي انه

لا يمكن

لا يمكن ان تعوزنا واسطة لبلوغها * فعوز كل شيٍ يقدر ان
يعيننا علي الوصول الي غايتنا * فما هي اذًا المصيبة والضرورة
التي تقدر هنا بالصواب ان تحزننا * ان كان لا يمكن ان تعوزنا
واسطة موصلة بنا الى الخلاص حينما يعوزنا كل شي * ولعمري
ان كون شي واسطة موصلة الي الخلاص الابدى * هو شي
عظيم بهذا المقدار * حتي ان ربنا والهنا الذى هو البدء والغاية
لكل شي مخلوق * احب ان يكون لنا واسطة لنيل الخلاص *
وذلك بتجسد وموته وسر جسد ودمه الاقدسين * فان كان
الله اختار هذه الواسطة العظيمة الامينة لكى تبلغ بها غايتك *
فكم يجب ان تحذر من ان ترذل واسطة مفيدة للوصول الي
هذه الغاية ولو كانت شيًا مستصعبًا جدًا تفر منه الطبيعة * لانه
يكفى ان يكون هذا الشي مما يسهل لك الخلاص ولو قليلًا * ويزيد
ثباتًا ولو يسيرًا * فان كان هذا الشي مرضًا او اهانة وما يشبه
ذلك * فقد يستحق ان تعتبره وتقبله لاجل ربح الملك السماوى *
ان الذى يسافر بالبحر الى الهند يختار لنفسه سفينة جديدة امينة
لا عتيقة خطرة * فانت الذى يطلب الوصول الى السما * ينبغى
لك ان تسير في الطريق الايمن * وان تعتقد ان هذا الطريق
الايمن الموصل الي السما هو طريق صليب سيدنا يسوع المسيح
واتضاعه وميتوته * واذ كنت في كل شي تشتهى الافضل *

فاعلم

فاعلم ان الشي الافضل من جميع الاشيا هو صلاح السيرة * فاصلح اذًا سيرتك وزدها صلاحًا * واعتقد انك لا تستطيع ان تزيدها صلاحًا الّا بالاقتدا بحيوة مخلصك * اى باحتقارك الامور الزمنيّة * ضع بازا عينيك غايتك علي الدوام * لانك كل من تصرف عنها نظرك تضل وتزل * ولعمرى ان الجميع حاصلون علي هذا الخطر * لان هذه الحيوة تشبه جسرًا عاليًا ضيقًا لا يسع عرضه اكثر من قدمين * وتحته وادٍ عميق جدًا مملو تنانين وحيات وافاعي فاتحة افواهها لتبتلع من يسقط فيهِ * وفي اخر هذا الجسر فانوس صغير يقدم قليلاً من الضيا تحت ذيل الظلام الدامس * فمن يمشي علي جسر كذا ليلاً * وليس لهُ من يقوده اما كان يخشي جدًا من ان يصرف نظر دقيقةً واحدة من الزمن عن ذلك الضيا اليسير الذى بهِ يرتشد بوضع خطواتهِ * حتي لو عرف انه بتحويل نظر لحظةً واحدة يحصل علي كنوز الارض كلها * لما امكن ان يفعل ذلك او يخطو خطوة واحدة بغير احداقهِ الي ذلك الضيا اليسير * فهذه الحال هى حالنا * لان حياتنا هى جسر ضيق جدًا * ونجتازه في ظلام ليلة هذا العالم * فلا يمكن ان ننجو من خطر الزلل والسقوط * الّا بملازمة النظر الي غايتنا التي هى النور الالهى الذى يضى لنا في ظلام هذه الحيوة * ولنعتقدنّ ان راحتنا وسلامتنا تتوقف

علي

علي اننا لانطلب شيأ اخر سوى الله او لاجل الله * وفي هذا قايمة حرية بني الله الحقيقية * علي ان احتقار العالم هو راحة النفس * والفطنة الحقيقية هي مطابقة الارادة الالهية * واخيرا ان اس كل فضيلة هو دوام ذكر هذه الحقيقة * اى اننا خلقنا لاجل هذا فقط * وهو لكى نعبد الله خالقنا *

الفصل الثاني

في ان الانسان بمعرفة ذاته يقدر ان يعرف كيف يجب ان يستعمل الاشيا الزمنية الواجب الازدرا بها

ان الطبيب الحكيم لا يكتفي في انه يعقل صفات الادوية وغايتها فقط * بل يجتهد في انه يعرف طبيعة المريض ومزاجه ايضا * فهكذا يجب علي الانسان الا يكتفي في معرفة ماهية الاشيا الزمنية وغايتها فقط * بل يلزمه ان يعرف ذاته ايضا * ولهذا قال الذهبي فمه * ان من لا يعرف ذاته لا يستطيع ان يتصرف بذاته تصرفا واجبا * فيجب اذا ان نعتبر في الانسان ما هو لهُ من ذاتهِ وما هو لهُ من الله * فالذى لهُ من الله هو بكليتهِ جيد * الا انه ليس للانسان ان يفتخر من اجلهِ * لانه قد قبله من الجود الالهى * اما الذى للانسان من ذاتهِ * فقد اورده مجمع اورانج قايلا * اننا لسنا شيأ بالذات غير الكذب والخطية * فهذا هو

العدم الذى كنا فيه فيما تقدم * هذا هو الشر الذى نحن حاصلون
عليه الان * فدع عنك جانبًا كل ما اقتبلته من الله * فترى انه
لا يبقى لك سوى الكذب اى العدم * وانك قد كنت هذا العدم *
والذى بناه الله علي ذلك فليس هو من قبلك بل قد قبلته منه *
وهو بكليته لله تعالي * ومن ثم لا يجوز لك ان تستعمله كحسب
غرضك بل كحسب مسرة الله * فانظر ما اكثر ما يجب عليك ان
تتضع من اجل انه ليس لك شيء بالذات سوى العدم * قالت
الفلاسفة * ان ما بين العدم والوجود بعدًا غير متناه * فاذ
كنت انت عدمًا لم يكن لك بالذات امكان الوجود * لانّ هذا
الامكان اعني امكان وجودك هو شيء مختص بقدرة الله * فلك
اذًا هنا حجة موثقة جدًا للاتضاع * لان كونك عدمًا هو بير
عميقة جدًا * مع ان هذا كلا شيء بالنسبة الي كونك خاطيًا *
فهذا اذ تامله القديسون جمد دمهم في مفاصلهم * وقومر
منهم الذين اراهم السيد المسيح حال كونهم نظرًا الي الخطيّة *
فكادوا ان يموتوا من افراط رعبهم وخوفهم لولم تعنهم يد الله
القوية * فاعلم اذًا انك بعد فعل الخطيّة تكون قد حصلت شرًا
نظير شر الخطيّة * فصور في عقلك شر الخطية الغير المتناهي
الذى تكلمنا عنه بما تقدم * وكل ما تحويه من العيب والشناعة
والقباحة * فان هذا جميعه يوجد في مرتكبها * فكما ان الشيء

الاسود يوازى بسواده سواد ماصيره اسود * هكذا الخاطى يكون سجاً قبيحاً شنعاً نظير شناعة الخطية * فليتامل الانسان الخاطى هل يليق به ان يستعمل الاشيا المخلوقة كما كان يجوز له ان يستعملها لو كان في حال البر نظير من لم يرتكب خطية ابداً * ليعلم من ذلك هل يجوز له الان وهو حاصل على حال هذه الخباثة والشر * ان يستعمل الاشيا المخلوقة لاجل لذته وجاهه وافتخاره * هل يجب ان يكون الخاطى مكرماً محبوباً * لانه كيف يسوغ لمن خان ربه وخالقه وقد استحق عذاباً ابدياً * ان يطلب كرامة وتنعماً وكيف لا يحتمل بصبر مرضاً وجيزاً يمكنه به ان يربح خلاصاً موبداً * تامل ما فعله ابن الله نفسه * فانه اذ ترى بظاهر الخاطى مع كونه القداسة بالذات لم يستعمل خيرات هذه الحيوة وملاذها * لكنه اعتنق كلما وجد فيها من المرايروالاتعاب * فكيف يجوز لمن هو خاطى حقاً ان يبتغى الكرامات والملذات * فتعلم الان الوسايط التي يلزمك ان تستعملها وقد رسمها السيد المسيح * وهى التوبة والامانة والصليب * ان القديس فرنسيس بورجيا الذى احتقر العالم ونفسه ايضاً احتقاراً عجيباً * قد كان يجد بهذه الاعتبارات سروراً وافراً ما بين اتعاب هذه الحيوة ومرايرها * فيهرب من كل راحة وملذة * ويلتمس ما يولم الجسد ويضيق عليه *

حتي ان كل من كان يشاهد كم كان يتعب هذا القديس من قبل
الفقر في سفره * فكان ياخذ التحير والذهول * فسالهُ يومًا احد
اشراف دولة يسبانيا قايلاً * كيف يمكنك ايها الاب ان تحتمل
هذ الاتعاب * فاجابه البار لا يتجعن قلبك عليّ * لاني في سفري
ارسل امامي دايمًا الي المكان المقصود مني واحدًا يهيي ليّ كل
شيٍ جيدًا * وهذا المرسل المتقدم امامي هو معرفتي ذاتي التي
* تصير ليّ كل ضيقةٍ وضرورة تنعمًا ولذةً *

الفصل الثالث

في ان تجسد ابن الله يوضح لنا كم يجب علينا ان نعتبر الاشيا الابدية

انه ليتضح لنا هذا الاختلاف العظيم الكاين ما بين الابدى
والزمني * من تجسد ابن الله ايضًا * علي ان اكتساب الابدى
واحتقار الزمني هما شيان جزيلا الاعتبار والضرورة بهذا المقدار *
حتي انه من اجل ذلك احب الله ان يتجسد ويتالم * ولعمري اننا
لانجد شيًا يوضح لنا عظمة الابدى وخساسة الزمني نظير
هذين العملين الالهيين * ولذلك يجب ان نتكلم عنهما قليلاً *
واولاً في سر التجسد الذى يجب ان نتامل فيهِ اربعة اشيا *
اولها عظمة العمل * ثانيها كيفيّة تكميلهِ * ثالثها الشرور التى

صدرت

صدرت منا * رابعها الخيرات التي اتتنا بواسطته *
فقبل ايراد عظمة العمل يجب ان تعلم * ان الجنس البشرى
الذى كان لسبب الخطية اسيرًا للشيطان ومهانًا ومدانًا
ومحكومًا عليه بالعذاب الابدى ومبغوضًا من الله * كان قد
حصل على اقصى غاية من حدود الشقا * ولم يكن لهُ رجا النجاة
من ذلك * لانه لو مات بنوا البشر جميعهم الف مرةٍ * وقدمت
المليكة باسرهم ذواتهم لله ذبيحة * واختاروا ان يحتملوا جميع
العذابات الجهنمية * لم يستطيعوا بهذا كلهِ ان يفوا عن خطية
واحدة مميتة وفاءً كافيًا * فلم يكن اذًا ممكنًا ان خليقة
بسيطة تفى عن الخطية * وكذلك لم يكن ممكنًا ان نرجو ذلك
من الخالق * لانه تعالى قد كان هو القنوم المفترى عليه نفسه *
فربما لو يكون مالا يمكن وجوده وما نرجو من الله ان ياذن
لنا بافتراضهِ لكى نفهم على وجهٍ ما عظمة هذا السر الغير الموصوف
اى لو يكون حفظ حيوة الله ولاهوتهِ متعلقًا بفعل التجسد *
لكان يمكن ان نرجو انه تعالى يتجسد لاجل خلاص البشر مع
ان ذلك شي حقير وكلاشي * ولكن انه تعالى يتجسد لاجل
حفظ حيوة عبدٍ خاين ولاجل مجد عدوه * فمن ذا الذى كان
يرجو ذلك * ولو ان الانسان خدم الله كعبدٍ امين * فالقى
نفسه في حال هذا الشقا الذى هو حاصل عليهِ وذلك لاجل حفظ

مجد تعالي وكرامته * لكان ربما يجوز لنا ان نعذر من خالج فكره
هذا الظن المنحرف عن الصواب * وهو ان الله بحركة روح
الوفاء ومعرفة الجميل استعمل كل واسطة ليفقد الانسان من
حال شقايه * ولكن انه تعالي احب ان يتضع ويتلاشي بصيرورته
انسانا وذلك من اجل الانسان الذى اختلس مجده واحتقره *
فمن كان يختلج في عقله هذا الفكر * فهذا هو الجود الالهى الذى
يجزيل احسانه يفوق علي كل رجائنا * ويصنع لاجلنا ما لو
يفعله لاجل نفسه لما كان ممكنا ان يفعله بنوع اعظم من
ذلك * فيا لمحبة الله العجيبة ويالسخايه الغير الموصوف * الذى
ارتضى ان يفى عن عدوه بثمن غير محدود * وان يحسن بكلفة
غير متناهية وباعظم الخيرات الي من كان فعل ضد اعظم
الشرور *

فتامل الان اولا عظمة هذا العمل الالهى الذى قال عنه القديس
اغوستينوس ان الله لم يقدر ان يصنع اعظم منه ولا ان يخترع
احسن منه * علي انه لمن المعلوم انه لا يمكن ان يوجد عمل اعظم
من العمل الذى يصير به الانسان الها * فالله اذا اذا راى ان
الانسان بفعل الخطية صنع ما لا يمكن ان يصير شرا منه * راام
هو جل جوده ان يصنع ما لا يمكن ان يصير احسن واكثر
جودا منه * عملا فايقا ذا جود غير متناه نظرا الي جوهر

واعراضه

واعراضه * لانه من المستحيل ان يوجد عمل ما اكثر جودا
وصلاحا * من العمل الذى به اتصف الانسان بكل جود الله
وصلاحه * ولا اعظم خيرا من الذى به اشرك الله بلاهوته ادنى
الخلايق الناطقة * وانتصر بجودته علي شر غير متناه * وانقذ
الانسان الخاطى مما كان يستحقه من العذاب الابدى * اى
نعم ان هذا العمل لجيد علي نوع غير مدرك * لانه به اتضح
ميله تعالي الغير المتناهى الي الرحمة * وكمال عدله الغير المحدود *
وذلك بقبوله علي ذاته ما كان ملتزما بوفايه رجل شرير اثيم *
وباتضاعه حتي الموت موت الصليب لخلاص من كان قد حكم
عليه بموت ابدى * فيا ايها الالة الكامل والصالح بكل نوع بكمال
وصلاح غير متناه * لقد اكملت كل ما كان يقتضيه عدلك الالهى
واظهرت مع ذلك جودك الفايق علي نوع عجيب * لانك عاملت
ذاتك بغاية الصرامة * لكى تعاملنا باعظم مراحمك *
تامل ثانيا كيفية هذا العمل الكلى جوده والمستحق كل حبنا *
انه لمحبة جزيلة مفرطة ارتضاء الله في ان يخلص الانسان *
وان يفعل ذلك بواسطة انسان * وانه لذلك يرسم انه هو
تعالي نفسه يصير انسانا لا ملاكا * حتي اذا ما خلص الانسان
من شقايه يكون مجدا مكرما * فما اعظم هذا الاكرام الذى لم
يعط للملايكة حيث ان الله الذى لم يغفر للملايكة مع انهم بالطبيعة

اسمى مناشرفًا وكمالًا * احب ان يفعل العظايم ليغفرلنا * وماعدا
ذلك فانه اذ اخطا الانسان وسقط الجنس البشرى باسره عن
سعادته * لم يبق منه صديق يستطيع ان يحنو عليه ويقدم عنه
صلواته * خلافًا للملكة الذين اذ اخطاوا * بقى منهم كثيرون
في حال الصدوقية والبر مشفقين علي هلاكهم * ومع هذا فقد
احب الله ان يمن بهذا الاحسان علي الانسان لاعلي الملكة *
تامل ثالثًا ان كثرة الشرور المفعولة منا في الزمن الذى كمل
فيه الله هذا العمل الكلّى الرحمة * توضح لنا جلال الجود
الالهى نحو الجنس البشرى * لانه حينما كان العالم نسي الله
بالكليّة * وكانت الناس تجتهد في ان تكرم كالهة * والذين لم
يبلغوا اربهم هذا الردى كانوا يسجدون لاناس اكثر شرًا من
الشياطين * ففى هذا الزمن الكلّى الشقاوة نفسه * اى حينما
كان الانسان يريد ان يصير الهًا ضد ارادة الله * اراد الله
ان يصير انسانًا من اجل الانسان *
تامل اخيرًا الخيرات التي صدرت من هذا العمل الالهى العجيب *
لانه لوان الله لم يصنع بنا خيرًا لكفانا انه انقذنا من شرورنا *
حيث انه بواسطة تجسد الالهى نجانا من عار الخطية ومن اسر
الشيطان ومن العقاب الجهنمى * ثم انه لوكان الله لم يجد عند
تجسد شرًا ينقذنا منه * ولم يهبنا تعالي خيرات جديدة جليلة *

فقد

فقد كانت صيرورته سبحانه ابتاً لطبيعتنا * وصيرورتنا انسبا
الله * احساناً لانظير لهُ * قد خبر يوستينوس المورخ الوثني
عن اسكندر الملك * انه لما ابصر ليسيمكوس مجروحاً في راسهِ
ويجري من جراحهِ دم غزير * نزع عن تاجهِ منديلاً ملوكياً *
وبهِ مسح دم الرجل المحبوب منه وعصب جراحه * فتعجب
الحاضرون من محبة اسكندر لاحد عبيده * مع ان فعله هذا
كان مع رجل لم ياس اليهِ قط * بل كان هو اعني الملك سبب
هذا الجرح * فاما الانسان فقد كان بالخطية جرح ذاته بذانهِ *
واسي الى الله باريهِ * ومع هذا فتقدم تعالى ليداوي الانسان
ويشفيهِ * وبفعلهِ هذا لم يمنحه شيئاً مما يمتلكه في الخارج * لكنه
منحه تاجه الالهي اعني بهِ لاهوته * فيا لافراط هذه المحبة ما
اعظمها * ويا لعدم ادراك هذا الاحسان ما اوفن *

الفصل الرابع

في ان دناءة الاشيا الزمنية تتضح لنا من الام سيدنا يسوع المسيح ومونهِ

حقاً انه لا يوجد شي يظهر لنا خساسة الاشيا الزمنية ووجوب
احتقارها افضل ظهوراً * مما يظهر ذلك الامر ابن الله ومونهِ *
فانظر الان كيف انه تعالى مدح بلايا هذه الحيوة * واحتقر كل

خيراتها

خيراتها * وذلك لا بالكلام فقط حينما دعا الغني شوكاً * واخص
المساكين بالغبطة والطوبى * بل بالفعل ايضاً * لانه لم يوجد
خير زمني لم يتالم من قبله * فتالم من قبل الصيت * لانه حسب
شريراً منافقاً * وتالم من قبل الغني والمقتني * لانه سلب منه
كل ماله حتي اثوابه * وتالم من قبل الملذات * لانه في حين
عطشه المفرط لم يجد قطرة ماء * ومن كثرة اوجاعه وعظمتها
دعي من اشعيا النبي رجل الاوجاع * ولم يكن عضو من اعضا
جسده غير متالم بالم خصوصي * ولذلك اوصانا تعالي بان نتذكر
الامه علي الدوام * لاجل المثال الذى قدمه لنا بها * قد ذكر
عن تيغرانس ملك الارمن * انه لما غلبه كورش ملك العجم في
الحرب واسره مع زوجته * اتفق يوماً ان اكل كورش معهما
على المايدة * فاذ راى جزيل حب تيغرانس لزوجته * سالهُ
قايلاً * ماذا تعطيه فداءً عن زوجتك لتعتق * فاجابه تيغرانس انني
اعطى مملكتي ودمي وحياتي * فرق حينيذٍ قلب الملك كورش
وعتقهما ورد لهما ملكهما * فلما رجعا الي مملكتهما * سال يوماً
تيغرانس زوجته قايلاً * ما الذى اعجبكِ في كورش الملك
ودولته * فاجابته الملكة مكافية محبته لها بمحبة نظيرها قايلة * *
حقاً انه لم يعجبني منه شي اصلاً * ولم التفت اليه * بل اني جعلت
كل نظري وفكري في الذى قدم لاجلي مملكته ودمه وحياته

ليعتقني * فان كانت هذه الملكة اظهرت حسن الوفا ومعرفة
الجميل نحو زوجها لاجل عزم حسن لم يتممه * فما الذى يجب علي
عروس الملك السماوى التي لاجلها ولاجل فدائها لم يقدم تعالي دمه
وحياته بالعزم فقط * بل بالفعل ايضاً * قال الانبا البرتوس الكبير
المعلم اللاهوتي المعظم ان فكراً واحداً مقدساً في الامر سيدنا
يسوع المسيح * يسدينا نفعاً اعظم مما نحصل عليه من المنفعة
بصوم سنة كاملة علي الخبز والما مع جلد اللحم الى اهراق الدم
كل يوم وتلاوة الزبور كله * وقد ذكر ايضاً ان السيد المسيح
ظهر للقديسة جرترودا ليثبتها في عبادتها لالامه المقدسة *
فقال لها انظرى يا ابنتي ان صليبي لاجل انه حفظني بعض ساعات
معلقاً عليه * حصل مشرفاً بهذا المقدار وامتلا العالم من مجده *
فماذا يكون اذاً شرف النفس التي تحفظني في ذكرها سنين
كثيرة *

ولكن لكى ننتفع من هذا الذكر المقدس * ذكر الامر اين الله *
فيجب ان نعتبرها نظراً الى الاعراض السبعة المسماة ظروف
الحدوث * وقد اوردناها بما تقدم حسبما عينها القديس توما
اللاهوتي * فتامل اذاً من هو الذى يتالم فهو الذى لا احد اكثر
منه براً بل من هو البر نفسه * القنوم القدوس نظير الروح
القدس * فيتالم البار ليلا يتالم المذنب * يتالم من هو رب الخليقة

كلها وسيدها * الذى تسجد لهُ السرافيم وتخشاه جميع الطغمات
السماوية * قال الرسول الالهى في الاصحاح ١٣ الي العبرانيين *
تذكروا ذاك الذى احتمل من قبل الخطاة ضد نفسهِ مضادة
مثل هذه * لان الجالس من عن يمين الله الاب هو الذى نراه
الان معلقًا علي الصليب فيما بين لصين * فتامل اذًا من هو
هذا الذى سمر علي عود ولم يكن لهُ مكان علي الارض * واذكر
انه هو ديان الاحياء والاموات * اعتبر من هو هذا الذى مات علي
الصليب * فترى انه الحيوة الابدية نفسها * لاحظ من هو هذا
الذى مسكته اعداوه وجلدوه وصلبوه * فتعلم انه هو الذى من
مقدسهِ اخرج نارًا احرقت مخالفى ناموسه *
ثم تامل ماهية عذابانهِ تعالي التي لم يحتمل نظيرها احد قط * فقد
اتصلت الى هذا الحد من العظمة والافراط * حتي ان الاشيا
العديمة الحس ارتجفت منها * لان الصخور تصدعت * والارض
تشققت * والعناصر اندهلت * والسما اظهرت الحزن والاكتياب
واظلمت الشمس والقمر * وبكت مليكة السلام * لانه لافراط ما
كانت هذه الاوجاع عظيمة قاسية * عرق تمجد اسمه دمًا
من قبل تصورها فقط * وقد اخبرت القديسة جرترودا بعدد
قطرات عرقهِ هذا الدموى حسبما عرفت ذلك برويةٍ ظهرت
لها * انها كانت سبع وتسعين الف نقطة * وثلث مية وخمس

نقطة

نقطة * وفي حال مكابدته هذه الاوجاع ذرفت عيناه من الدموع
اثنين وستين الف دمعة * ومايتي دمعة * كما ذكر بطرس
كالينتينوس * اما عدد الجلدات التي احتملها * فقد سمع
يوما القديس برنردوس في رويةٍ ظهرت له * انها كانت ستة
الاف وسبعماية وست وستين جلدة * والانبا لانسبرجيوس يذكر
ان رجلا عابدا سمع صوتا من السما يقول هكذا * لو صلى احد
الصلوة الربية مية مرة في كل يوم الي مدة عشرين سنة اكراما
للجلدات التي احتملها سيدنا يسوع المسيح في الامه * لكان عدد
تلاوة هذه الصلوة في المدة المذكورة * موازيا عدد نقط الدم
الذى خرج من جراحاته * فعلى موجب هذا الحساب * يكون
عدد نقط الدم الذى خرج من جسد يسوع في مدة الامه * سبع
ربوات واثنين وثلثين الف نقطة * فاما اكليل الشوك فقال
عنه القديس انسلمس انه دخل منه الف شوكة في راس يسوع
الاقدس * ومن يقدر ان يصف شدة الامه تعالي بتعليقه على
صليب بيديه ورجليه * فهذا لما تاملته القديسة ليدوفينا بكت
بكاءً دمويا وافرا * فلا جرم في ان مريم العذرا الجليلة لولم
تقوها نعمة الله لكانت قد ماتت من شدة حزنها عند مشاهدتها
ابنها مصلوبا * ولذلك قال القديس برنرديوس السياني * انه
لو توزعت احزان البتول المجيدة علي بقية الخلايق لماتوا جميعهم

لافراط

لافراط شدة جزء الحزن المخصص لكل واحدٍ منهم * فماذا تكون اذًا اوجاع ابن الله الفايقة علي اوجاع والدتهِ *

واذا ما نظرنا الي مكان الامهِ فنرى انه كان مدينة اورشليم حيث بعد دخولهِ فيها بشرفٍ عظيم واحتفال ملك منتصر قبض عليهِ وقيد خارجًا عنها باهانةٍ عظمى ليصلب كرجل اثيم * واما الذين كانوا يسعون في تعذيبهِ وموته فقد كانوا اناسًا من ملتهِ قد انعم عليهم باعزز البركات واعظمها * وهم افرغوا كل جهدهم وجدهم في تعذيبه * ولهذا شبههم الكتاب المقدس بكلابٍ هايشة * واسودٍ زاين * وذيابٍ خاطفة * ومن جهة نوع عذابهِ فلم يرَ افظع منه * والزمن الذى احتمل فيه هذا العذاب * كان الزمن الذى فيهِ تجتمع اليهود من كل بلد وقطر ومكان * وفي حال عذاباته هذه القاسية لم تجد نفسه تعزية البتة * لانه لم يتعزَ برجايهِ ان تكون الامه جزيلة النفع جدًا * لانه تعالي كان يعلم بعلمهِ السابق ان الذين ينتفعون من الامهِ قليلون * ولم يتعزَ من قبل تلاميذه بحفظ الامانة لهُ * لان احدهم باعه * والاخر نكرهُ * والجميع تركوه وهربوا * حتي انه لم يحصل علي تعزيةٍ ولا من قبل والدتهِ * لان مشاهدة حزنها كان لديهِ تعالي بمنزلة صليب اخر نظير الصليب الذى كان مسمرًا عليه * وهكذا لم تكن لهُ تعزية من قبل ابيهِ الازلي * لانه مسك عنه فيض هذه

التعزية * ولذلك صرخ نحوه قايلاً الهى الهى لماذا تركتني *
وزد علي ذلك انه تقدس اسمه احتمل جميع هذه الالام والاوجاع
من اجلنا نحن الخليقة الحقيرة * مع انه لم يكن يضطر الامر ان
يتالم هكذا لكى يخلصنا من اسر الخطيّة * لكنه رام ان يكابد
جميع هذه الاوجاع ليظهر لنا جزيل محبته * ويضطرنا بحبه
وبالاقتدا به * وباحتقار خيرات هذه الحيوة وكل سعادة زمنية *
فمن اجل هذا الزم ذاته بوفاء ديننا باحتمال هذه العذابات
القادحة * فلننظرن اذاً الي انفسنا في هذه المراة الجليلة *
لنشقف بها سيرتنا * ولنظهر نحوه عز وجل عواطف الحنو
والاشفاق ومعرفة الجميل * وليتمزق قلبنا حزناً وندماً لاننا
اسخطنا مثل هذا الاله الصالح الذى احتمل لاجلنا جميع هذه
العذابات * واحسن الينا بمثل هذه الخيرات ليصيرنا اخياراً *
ولنتعجب من عظمة جود الله الذى احب ان يتلاشي من اجل
خليقة حقيرة * ولنحبب من احبنا هكذا * ولنتكل علي من صنع
لاجلنا اكثر مما كان يمكن ان نطلبه * بل اكثر مما كان يمكن
ان نتصوره * ولنقتدين بهذا المثال الالهى المقدم لنا من الاب
السماوى علي جبل الجلجلة * لنصير حياتنا شبيهة بموته * وذلك
بالاتضاع واحتقار كل خير زمني * حتي اذا ما اتضعنا امامه يرفعنا *
واذا ما تالمنا حباً له نكتسب الغبطة الابدية * وبعد شرب مراير

هذه

هذه الحيوة نذوق لذات الحيوة السعيدة السماوية * وبعد دموع
* قليلة وجيزة نتمتع بالافراح الدايمة *

الفصل السادس

في كم يكون الابدى معتبرًا جدًا من حيث ان الله اراد ان
يكون الواسطة لنربحه وزسم سر جسده ودمه الاطهرين

عربونًا علي ذلك

ان ربح الابديات لامر باهظ معتبر بهذا المقدار * وانه تعالي يشتهي
ان نربحه اشتهاءً هذا حده * حتي انه بعد ما صنع لاجل ذلك
عظايم مذهلة العقول * اعني تجسده والامه * زاد علي ذلك فعل
محبةٍ مفرطة مذهلة * وهو انه سبحانه اراد ان يكون لنا
الواسطة لنيل الخلاص في سر الاقدس سر الاوخريستيا * فمن ذا
لايرى بهذا سمو الجود الالهي الغير المتناهي * علي ان الله القادر
علي كل شي ومصدر جميع الاشيا وغايتها القصوى * ارتضي
بان يكون لنا واسطة ايضًا * مع ان هذا شي مختص بالخلايق *
وليس يدل علي كمال * وهكذا اخضع الله ذاته لاختيار الانسان
ليستعمله واسطة لخلاصه * ولكمال فهم هذا الامر الفايق اعلم *
ان وسايط خلاصنا يمكن ان تلاحظ نظرًا الي الله ونظرًا الي
الانسان * علي ان الله والانسان يسعيان في هذا الامر * فان كان

هو حبا عظيما عجيبا يفوق العقول * ان الله استعمل ذاته
في التجسد الالهي واحتمال الالام ليخلص الانسان * فكم يكون
امرا مذهلا يفوق كل افراط المحبة * ان يرتضى الله بان الانسان
يستعمل اقنوما الهيا اى الله عينه واسطة لاجل الغاية المذكورة
اعني لخلاصه * وذلك لان ابن الله بصيرورته واسطة للانسان *
ساوى نفسه مع الماء والزيت والبلسم * لانه كما ان الناس
يستطيعون ان يستعملوا الماء في المعمودية لكى يتبرروا *
والبلسم في سر التثبيت ليتقدسوا * والزيت في سر المسحة الاخيرة
ليتطهروا * هكذا في سر القربان المقدس يقدرون ان يستعملوا
السيد المسيح ليربحوا زيادة النعمة والصحة الروحية * فكم
يجب اذا علي الانسان ان يجتهد في ان يبلغ غاية الاخيرة حيث
ان الذى هو الغاية الاخيرة جعل ذاته واسطة ليبلغ بها الانسان
هذه الغاية * فلست ادرى ان كان يوجد حد اسمى من هذا
يستطيع الجود الالهى ان يبلغ اليه * فبعد هذا هل يجب ان
تعتبر شيئا ما زمنيا نظرا الي ربح الابدى * وان كان السقوط
عن كرامتنا * او ترك لذاتنا * او توزيع اموالنا علي المساكين *
يكون واسطة معينة لربح الخلاص * فهل يجب ان تستصعب
ذلك وتستعظمه * بعد ان صير نفسه رب المجد واسطة لنا
ومنحنا لذلك ذاته بغير التفات الي عظمة كونه التي هى اكثر

ثمناً من كل شي *
اما السبب الاخص الذى لاجلهِ رسم هذا السر العجيب * فهو لكى
يكون لنا ذكراً الالام السيد المسيح * التي من حيث انها الحجة
الجزيلة التاثير لاحتقار الاشيا الزمنيّة * رام تعالي بانواع كثيرة
ان نذكرها علي الدوام * لانه طبع في كفنهِ صورة جسد
المتالم * وطبع صورة وجههِ في منديل قدمهُ ليمسح بهِ عرقه حينما
كان حاملاً الصليب ومسوقاً الي جبل الجلجلة * وطبع صورة
يديهِ ورجليهِ وركبتيهِ في الحجر الذى صلى عليه في بستان
الزيتون * وهذه الصورة عينها طبعها ايضاً في حجر اخر في وادى
قدرون * حينما كانت الجنود يسحبونهُ فسقط على الارض
وطبع هذه الصورة المقدسة أعني صورة يديهِ ورجليهِ وركبتيهِ
والحبل الذى بهِ كان يسحب من الجنود * فبكل هذه الانواع من
الايات * اظهر ابن الله كم يرغب ان يستمر فينا ذكر الامهِ
المقدسة * وماعدا ماذكرناه فقد وجدت اثار الامهِ في حجار
اخر كثيرة * لانه وجد في بلاد الشرق حجر من يشم مصور فيه
تصويراً حياتاماً وجه السيد المسيح مكللاً بالشوك * والقديس
لويس غنزاغا اذ كان يمشي يوماً علي شط البحر * ابصر حجراً
صغيراً مطبوعاً فيهِ رسم جراحات سيدنا يسوع المسيح الخمسة *
وقد رسم الله هذه الخمسة الجراحات في حجارة كثيرة * وفي

اشيا اخر عديدة مختلفة * وقد شهد القديس انسطاسيوس
السيناى انه وجدت زهرة مرسوم فيها المسامير والعمود واكليل
الشوك * وفي ثمن الشجرة المدعوة موسي * ترى صورة صليب
وعليه مصلوب * وفي ايامنا هذه يسجد في مدينة غان لصورة
الصليب والمصلوب عليه بجزء من شلش زهرة نبتت في اورشليم
ولكى تستطيع العناصر ايضا ان تفتخر بهذا الرسم الشريف *
ارى الله الفونسوس الاول ملك برتوغاليا في الجو ترسا وفيه
مرسوم جراحات ابن الله الخمسة * هكذا ارى الله قسطنطين
الكبير صورة صليبه المقدس في الجو ايضا * الا ان الدليل الاجل
الذى يرينا كم يرغب مخلصنا ان نذكر عذابات الامه * هو
انه رسم جراحاته في اجساد كثيرين من عبيده * ومنهم القديس
فرنسيس الكبير * والقديسة لوسيا الفرارية * والقديسة
جرترودا * لاسيما الطوباوية لوسيا التي كان يجرى دم من
جراحاتها الخمسة كل يوم جمعة * وما اعجب الرسم الذى وجد
على قلب القديسة كلارا * لانه بعد موتها وجدوا مرسوما على
قلبها الطاهر صورة السيد المسيح مصلوبا * والعمود والسياط
والحربة وبقية الات الامه المقدسة * ولو اننا اوردنا كل الاشيا
التي وجد فيها رسم الام المسيح مصورة او مطبوعة * لطال بنا
الشرح جدا * وهذا كله فعله تعالي ليديم فينا ذكر الامه

بمشاهدتنا

بمشاهدتنا رسومها * الآان الدليل الاعظم علي ذلك هو سر
الاوخريستيا * لان هذا السر الاقدس هو صورة مونة المقدس
صورة حيّة * وبهِ يوضح لنا تعالي انه لمستعد ان يتالم ويموت
لاجلنا * كل مرة تقدم ذبيحة القداس في العالم باسرهِ * ولكن لان
حال جسدهِ المجيد لاتدعه ان يصلب ثانيةً * فلذلك اخترع
جوده الغير المدرك نوعاً عجيباً * يجدد بهِ ذبيحة الصليب وثمن
فدايتنا خلواً من الامر واهراق دم *
فليعتبر اذاً المومن قبل تناول سر القربان المقدس * من هو المقبول
ومن هو القابل لهُ * وليتامل جزيل عبادة الجليلة مريم العذرا
حينما كانت تستعد لقبول الكلمة الازليّ في حشاها الطاهر *
وليعتقد انه تعالي نفسه يدخل الى صدره * وليجتهد في انه
يتقدم بروح عبادة مساوٍ عبادة تلك الكليّة النقاوة * اعني
بروح المحبة والتهيب والشكر علي هذا الاحسان الجليل * بل انه
لو كان الامر ممكناً لكان يجب ان يتقدم بافضل عبادة من عبادة
الطوباوية المذكورة * بما انه نال من الحسنات الالهيّة العجيبة
في سر الامر ابن الله ومونهِ * مالم يكن حينيذٍ تفضل بهِ تعالي علي
والدتهِ المجيدة ولا علي غيرها من البشر * وليفتكر بانه عتيد ان
يتناول من هو جالس من عن يمين الله الاب * الرب المطلق
للسما والارض خالقنا وفادينا * والذي هو عتيد ان يدين

الاحيا

الاحيا والاموات * الالهُ الذى لانظير ولا قياس لهُ بالحكمة والقدرة والبهاء والجودة وبقيّة الكمالات الالهيّة * ترى كيف يكون ذهول النفس وتهيبها وخوفها وخجلها لوانها تبصر السيد المسيح كما ابصرهُ الرسول فعمى من افراط نورهِ * فلا ريب في انهُ تعالي هو في سر القربان المقدس بهذا المجد الالهى باسره * ومن ثم ينبغى ان تتقدم الي هذا السر كتقدمك اليهِ تعالي لو تراهُ جالساً على منبر مجد * ان يوحنا البشير الحبيب لما دنا منهُ ملك سماوى بمراى كمال جمالهِ وعزهِ كاد ان يقضى عليهِ من شدة تهيبهِ وذهولهِ * فانت عتيد ان تقبل في منزلك لا ملكاً ما * بل رب الملكة كلهم *

ولقد يتلالا جلال سخاء جود الله على نوعٍ افضل مما تقدم * اذا لاحظنا لا عظمة القنوم الذى يمنح ذاتهُ فقط * بل حقارة القنوم الذى يقتبله ايضاً * فمن انت الا خليقة دنية مجبولة من طين * مملوة شقاءً وجهلاً وشراً وضعفاً * فان كان قايد المية عد نفسهُ غير مستحق ان يدخل السيد المسيح بيتهُ * وهامة الرسل بطرس المعظم اذ راى هذا الرب على الارض طلب ان يبتعد عنهُ لانهُ رجل خاطى * والقديس يوحنا المعمذان احتسب ذاتهُ غير اهل لان يحل سيور حذايهِ * فكم يجب عليك انت ان تحسب نفسك غير اهلٍ لان تقبل الجالس بمجدٍ عظيم من

عن يمين الاب الازليّ * فها هوذا المليكة لايجدون انفسهم
اطهارًا بكفاية تجاه عزتهِ * فكم ينبغي ان تكون نقاوتك لكي
تاويه في قلبك * ان سليمن الحكيم اصرف سبع سنين في بنا
الهيكل ليضع فيه ثابوت العهد * فانت الذى يرومران تصير
نفسه هيكلاً للّٰه * كيف لاتصرف في ذلك نصف ساعة *
وموسي الكليم لما اراد ان يصنع ثابوتًا ليضع فيهِ لوحى الناموس
اختار خشبًا ثمينًا وغشاه بالذهب * فكيف انت يادودة
حقيرة لاتهيي ذاتك وتزينها لتقتبل واضع الناموس نفسه *
اما كيفيّة منح اللّٰه هذا الاحسان العظيم * فمن شانها ان
تذيب القلب بالمحبة * واشير بذلك الى شوقهِ تعالي الكلّي الجود
لان يتحد بنا * وتواضعهِ العجيب الذى بهِ يهبنا ذاته الالهيّة
ماكلاً * ولهذا يقلب ارسخ شرايع الطبيعة بفعل عجايب اعظم
من تلك التي صنعها موسي في مصر * فتامل انت بعد تناول
القربان المقدس ما الذى يجب عليك ان تفعله * واحتسب ان
السيد المسيح الجالس في غرفة قلبك * يسال نفسك كما سال
رسله بعد ما غسل ارجلهم قايلاً * اتعرفين ايتها النفس ما الذى
صنعت بكِ * اتفهمين عظم احساني اليكِ وجلال عزة من
يسكن فيكِ * فاعلمي انه هو الاهكِ وربكِ ومخلصكِ * الذى
يرغب خيركِ غاية الرغبة * فكافيهِ اذًا بشكران الجميل وحسن

الوفا * ولا تحبي شيأ علي الارض سواه * لانه هو خيرك الاعظم
* والابدى *

الفصل السادس

في انه ينبغي ان يكون موضوع صلواتنا الخيرات الابدية

انه يفيدنا جدًا لفهم الفرق ما بين الابدى والزمني * ان نتامل كيف ان منح الخيرات الزمنيّة هو قليل الاعتبار جدًا عند الله * لانه جل ثناوه يهبها احيانًا للاشرار بطريق النقمة والعذاب ولهذا قد شك كثيرون من العلما في طلب الخيرات العالميّة من الله * فزعم المعلم المليكيّ ماري توما * انه لا يجب ان نطلب من الله طلبًا مطلقًا سوى الاشيا الروحية والابدية * واما الاشيا الزمنيّة فلا يجوز ان نطلب منها سوى ما يمكن ان يسعفنا باكتساب الاشيا الابدية * فالصلوة التي بها تطلب الخيرات الروحيّة والابدية * هي الغصن الرمزى المدعو في سفر النشيد غصن بخور يستلذ الله * وقد اجاد القديس غريغوريوس بقوله ان هذه الصلوة تدعي غصن بخور * لانها بطلبها السّماويات فقط تصعد متسامية * فلا تزال طالبة الابديات *
ولهذا قد لحظ المعلم بالودانوس ثلث نقايص في طلبة امرائي

زيدى * النقيصة الاولي هى انها في طلبتها لم تحفظ النظام الواجب * النقيصة الثانية هى ان نيتها لم تكن نقية ناجية من عاطفة الحمية * النقيصة الثالثة هى ان موضوع طلبتها كان شيأ باطلاً * والحال ان هذه الثلث الشوايب توجد في صلوة من يطلب الاشيا الارضية بغير نظر الي الاشيا الابدية * وخلوا من الرغبة لنيلها * فاذا لا توجد شايبة عدم النظام لانه ليس شي يضاد النظام كمثل من يطلب الدنى القليل ويهمل العظيم الكثير * وكمن يطلب لا الشي الغير الضرورى فقط * بل الشي المضر ايضاً * ويتغافل عن طلب ما يحتاج اليه احتياجاً كلياً * ان النفس تحتاج الي نعمة الله اكثر جداً مما يحتاج الجسد الي القوت * وبالنتيجة انها اكثر احتياجاً منه الي العون السماوى لان قوات الجحيم لا تزال متسلحة لمحاربتها ظاهراً وخفياً * فالذى يهمل طلب العون الالهى علي ذلك * ويوجه صلواته الي طلب الاشيا الزمنية * فيكون جهله كجهل رجل اضواه ظمأ مميت في برية قفر في حر الصيف ووقت الظهيرة * فصادف رجلاً مجتازاً بانا مملو ماً صافياً بارداً * فعوضاً عن انه يطلب من فضله باجتهاد ان يروى ظماه المذيب * ياخذ في ان يلتمس منه ثوباً من صوف لا يفيد سوى في طقس الشتا *

ثانياً توجد بطلبة من يطلب الاشيا الزمنية علي النوع المذكور

شايبة عدم نقاوة النية لان مثل هذه الطلبة لاترافقها غالبًا
نقاوة النية والاماتة الروحيّة اللتان تصيران صلواتنا مقبولة
لدى الله * ولذلك تلك النار التي كانت تستعمل لوضع البخور *
كانت توخذ من مذبح المحرقات * دليلًا علي انه لكى تكون
صلواتنا مرضية لله * يجب ان تكون صادرة من قلب مضطرم
مقدم للعنّة الالهيّة كمحرقة * وذلك بواسطة تقدمتنا لهُ تعالى
كل حركات قلوبنا واشواقها * فالذى يطلب شيًا زمنيًا علي
نوعٍ اخر * لهُ ان يخشي من ان يمنحه الله مطلوبه بغضبٍ
وانتقام * كما منح الاسرايليين السلوى * ولذلك اذ كان الطعام
في افواههم طلع عليهم رجز الله وقتلهم * ولعمرى انها لمجاسرة
قبيحة وقحة شنيعة معاملة الانسان الله ربه واستعمالهُ اياه
وسيطًا لنيل ما سيكون او يمكن ان يكون سببًا للتباعد عنه
تعالي الذى هو غايتنا الاخيرة * لاننا بالخيرات الزمنية نحيد عن
الانعطاف نحو الاشيا الابدية * ونتغاضى عن محبة البارى تعالي
الذى هو غايتنا القصوى * ونرغب ان يسعفنا في بلوغ اغراض
اخر مضادة لهُ * معاذ الله من هذا النفاق * لكن فلنطلب هذا
فقط * وهو ما يجدى نفوسنا نفعًا * ويسدى الله سرورًا ومجدًا
لنطلبن الاشيا الروحية الابدية * ونعمة الله ومعرفته والاقتداء
بابنه الوحيد * واحتقار العالم * ورغبة كل ما يطابق ارادته

الالهية * فهذا الذى ينبغى ان نطلبه لانه خيرنا الحقيقى * ولا
جرم في انه تعالي يمنحناه حقا *
ثالثا توجد في طلب الخيرات الزمنية شائبة بطلان الاشيا
المطلوبة * لان كل سعادة وعظمة زمنية تستحق ان تحقر *
لاجل كونها دنية وجيزة كاذبة وسريعة الزوال * ولذلك تلك
المراة الرمزية المذكورة في سفر الرويا * احبت ان تتكلل بالشمس
التي هى رمز الابدية لاجل كمال دايرتها * فاما القمر الذى هو
رمز الاشيا الزمنية لتغيرة المتصل * فكانت تطاه تحت ارجلها *
فلنتعلمن اذا كيف يجب ان نصلى * ولا نضل في هذا الامر
الباهظ * علي ان الضلال يزداد قدرا بحسب قدر الامر الذى
نضل فيه * وبالنتيجة ان الضلال في الصلوة يكون عظيما ضرره
جدا * وذلك لانها امر الهى قد اوصانا الله به * وواسطة ضرورية
للخلاص * وقد وعدنا السيد المسيح اننا بها ننال منه كل شي *
فلا نطلبن اذا باسم مخلصنا يسوع المسيح مالم يرد
ان يموت لاجله * بل لنطلبن خيرات السما *
خيرات الخلاص الابدى التي اشتراها
لنا بسفك دمه وفقد
حياته
*

الفصل السابع

في ان الذين جحدوا الخيرات الزمنية ليربحوا الخيرات الابدية لمسعدون جدًا

لاريب في ان جحد الخيرات الزمنية هو امر معتبر جدًا * لان ابن الله يحثنا علي ذلك بمواعيد عظيمة بقوله * من ترك ابًا او اما او اخًا او اختًا او بيتًا او حقولًا لاجلي * فانه ينال في هذا العالم عوض الواحد مية وفي الاخرة حيوة الابد * فيالهُ من فرق عظيم ما بين الزمني والابدي حتي نظرًا الي هذه الحيوة ايضًا * مع ان رجا الخيرات الابدية ولوكان مجردًا من كل خيرٍ زمني * نربح بهِ اكثر جدًا من كل ما يمكن ان نربحه بامتلاك جميع الخيرات الزمنية * فيالعظم سعادة الذين فهموا هذه الحقيقة وبدلوا الارض بالسما * وهذا الوعد الالهي قد يتم حقًا في الرهبان كما قال عنهم الانبا ابراهام * لانهم عوضًا عن اب واحد تركوه في العالم يجدون في الرهبنة مية اب * وعوضًا عن اخ واحد يجدون مية اخ يحبون منهم بمحبةٍ اخوية مسيحية * وعوضًا عن حقل او بيت واحد يجدون مية حقل ومية بيت * وذلك كما قال الرسول الالهي * لاشي لهم وهم لكل شي مالكون * حتي ولو انهم لايحصلون علي ما ذكرنا فلهم خير اخر مضاعف

جدًّا * وهو وفور فيض التعزيات الالهية التي يمنحهموها الله
لتركهم خيرات هذا العالم * ولنسكهم وتقشفاتهم * وعن هذا
قد ذكر القديس برنردوس عن رهبانه الذين كانوا في دير
الوادى المضى * انهم كانوا يجتنون من صياماتهم وتقشفاتهم تعزيات
هذا حد لذتها * حتي انهم كانوا يخافون من ان الله يريد ان
يمنحهم اجرهم في هذه الحيوة * وانه تعالي اعطاهم هنا فردوسًا
علي الارض لانهم عتيدون ان يعدموه فيما بعد * وقد ذكر
عن واحدٍ من هولاء الرهبان يدعي ارنولفوس * انه اذ سمع
يومًا وعظ القديس برنردوس * اضطرم قلبه بنشاطٍ عظيم
جدًّا * فترك اموالًا غزيرة ومعها ترك لذات العالم وكرامانه *
واعتنق فقر الرهبنة وصرامة مذهبها * وسار في الدير المتقدم
ذكره سيرة مقدسة * ولافراط نشاطه في ممارسة التقشفات
حصل علي امراض اليمة جدًّا * حتي كان من شدة الامه يغشي
عليه مرات كثيرة * وحينما كان يرجع الي ذاته ويستفيق من غشيه
كان يصرخ قايلًا * حقًّا ما قلته يا يسوع الصالح * فظن به يومًا
بعض الحاضرين انه يقول هكذا بعقل غير منتبه * ولذلك قال
لهم المريض * ان الذى قلته يا اخوتي فقد قلته بكمال الانتباه *
ان السيد المسيح وعد في انجيله المقدس ان من يترك لاجله ابًا
اوامًا او ثروة ينال في هذه الحيوة عوض الواحد مية * وبعد

هذه الحيوة القصيرة يقبل حيوة ابدية * وهاهوذا انا الان مختبر
حقيقة وعد الالهي بنفسي * لان رجاى المجد الابدى قد صير
لي كنز اوجاعي هذه لذيذة بهذا المقدار * حتي انني لست ارتضى
باز التها ولا بنقصها * وهي عندى ليس بالذ واجل من كل ماتركته في
العالم فقط * بل اجل مما يفوق عليه مية الف مرة * فان كان الله
يصنع هكذا معى انا الخاطى الكسلان * ويصير لي اوجاعى الذمن
تنعمى القديم * فما الذى يصنعه مع راهب مجاهد نقى صديق *
ولعمرى ان الذين يفتقرون لاجل السيد المسيح يمتلئون فرحا
لسببين * اولهما هو الفقر نفسه * الذى كما قال سينيكا الفيلسوف
ينزع عن محبيه حمل الهموم الثقيل * ويصير لهم النوم علي الحضيض
بغير فراش الذ جدا من النوم علي الفرش الناعمة الفاخرة * ثانيهما
هو نعمة خصوصية تمنح من الله من شائها ان تفيض لذات
السما علي الذين تركوا لذات الارض * ثم انهم يحتسبون نفعا جزيلا
من احتقارهم خيرات العالم * وهذا يوازى ايضا المية الضعف *
لانه لو يعطى العالم كله لاجل منع خطية واحدة فقط لم يكن الثمن
موازيا * والحال ان الفقر الانجيلي واحتقار العالم يمنع خطايا
لايحصى عددها * لانك ان سددت باب الغني * فينسد معا باب
الفخر والصلف والكبريا وبقية الخطايا التي تصدر منه كصدور
الدخان من النار * وما عدا ذلك فان الفضايل من عادتها ان

ترافق الفقر الانجيلي * كالاتضاع والقناعة والادب * ولا ريب
ان هذه الفضايل لافضل ثمنًا جدًا من جميع كنوز الملوك *
واما شرف السلطة الحاصل عليها المساكين بالروح * فقد
يوازي اكثر من مية ضعف * لان اسر الاغنيا لشهواتهم *
وتعبدهم لاشيا دنية ارضية * هو عار عظيم لهم * وبعكس
ذلك القاء المساكين بالروح عنهم نير هذا الاسر الثقيل *
وامتلاكهم هذه السلطة علي اشيا هذا العالم بفقدهم اياها *
تلك التي يجتهد الاخرون باطلاً في امتلاكها هو شرف واكرام
عظيم لهم * ولذلك حسنًا ما قالهُ القديس يوحنا كليمكوس *
وهو ان الراهب المسكين هو سلطان العالم باسره * لانه بتبجين
افكاره كلها في الله * يحصل رب هذا العالم وجميع الناس بمنزلة
خدام لهُ * فيا لعظم سمو حكمة هذه المشورة الالهية التي بها
جعل الله الفقر ثمنًا لربح مجد * ومهد الطريق لكل احد لاكتسابهِ

الفصل الثاني

في ان كثيرين قد احتقروا الاشيا الزمنية كلها وجحدوها

ان دناءة الاشيا الزمنية والضرر الواصل منها لهذه الحيوة
نفسها لشي واضح بهذا المقدار * حتي ان فلاسفة الامم العديمي

نور الايمان اطلعوا علي ذلك وادركوه جيدًا * ولذلك اريستيدس
احد اشراف مدينة اتينا * لم يكن يلبس سوى خلقان رثة *
ولم يشبع جوعه ابدًا * واذ قدم لهُ واحد من الاغنيا كثيرًا من
الذهب قنبذهُ ولم يرد ان يقبله منه * وقد خبرنا القديس
غريغوريوس النزينزى عن زينون الفيلسوف الوتني * انه لما
اخبر بزوال كل امواله * قال اني منذ الان فصاعدًا يسهل عليّ
السلوك الفيلسوفي * وهكذا اناكسغراس اذ سمع بذهاب
امواله قال * انني لقد كنت هلكت انا لولم تهلك هذه * واما
كراتس الفيلسوف فقد القى مبلغًا عظيمًا من المال في البحر
قايلًا * انني اغرقكنّ يا اموالي ليلا تغرقيني * ونظيره بدديوجينس
امواله كافةً ولم يبق لهُ سوى زبدية واحدة * ولما راى انه قد
يمكن ان يستغني عنها فالقاها عنه ايضًا * واسكينس الفيلسوف
لما سخر به واحد من اغنيا مدينة رودس قايلًا لهُ * انني اقسم
بالالهة اني اذ اراك على حال هذا الفقر يتوجع قلبي عليك *
فاجابه الفيلسوف قايلًا * انني اقسم بالالهة اني لما اراك غنيًا
هكذا يتمزق قلبي وجعًا وتاسفًا عليك * لعلمي بالمرايرالمسببة
من الغني * فان كان مثل هولاء قد كفاهم نور فلسفة طبيعيّة
ليزدروا بالغني ويرفضوه هكذا * فما الحجل الذى يجب ان يشملنا
نحن المسيحيين اذ لا يكفينا لذلك نور ديانتنا الفايق الطبيعة *

الذى يختص بفاعليّة موثن بهذا المقدار * حتي ان الذين صاد
لهم قليل من اشعتهِ عزموا عزمات عجيبة * وعددهم يفوق
الادراك وها نحن نورد هنا اخبار البعض منهم * قد ذكر
انه في دير الصفوف الذى كان علي شط بحر النيل *
الذى كان يحتوى علي مايتي راهبة * قد كانت راهبة منهن
اسمها يسيدورا يحتسبها الجميع ساهية فاقدة العقل * ولذلك كنّ
بقيّة الراهبات يزدرين بها ويسخرن بها ويلطمنها محتقرات
كانها كلبة * اما هى فكانت بصبرها افضل من خروف * لانها
كانت تخدم جميعهن باتضاعٍ عجيب كانها امة * ممارسة جميع
الوظايف المتعبة المحتقرة * تمشي حافية علي الدوام بثيابٍ رثة *
وعلي راسها منديل وسخ بالٍ لايرضاه احد * فاحب الله ان يظهر
سموقداسة الواحدٍ من متوحدى ذلك العصر * اب مشتهر جدًا
بسيرتهِ القشفة وبالقداسة يدعي الانبا دوبيني * فظهر لهُ ملك
وقال لهُ * انه ليس لك ان تسر في حال سلوكك هذا وان
كنت حقًا متمسكًا بسيرةٍ مقدسة منذ سنين عديدة *
لانه في دير الصفوف توجد راهبة اسمى قداسةً منك * فقم
واذهب الي الدير المذكور فتجد هناك ابنة علي راسها تاج *
تلطم نهارها كله وتحتقر وتهان * وهى مع ذلك لاتضطرب
ولاتتسبخس البتة * ولاتزال ذاكرة الله واياه مباركة * اما انت

فمع كونك متوحدًا تدع افكارك تجول في العالم كلهِ * قال هذا
الملك وتوارى عنه * فنهض حينيذٍ ذلك الاب المذكور وذهب
الي الدير المعين * وطلب ان يكلم الراهبات جميعهن * فاتين
الراهبات كافةً ليشاهدن الرجل القديس المشتهر بالفضل
والقداسة * فلما حضرن امامه اخذ ينظر اليهن ليرى تلك الراهبة
المشار اليها * فلم يجد تلك العلامة علي واحدةٍ منهن * فقال لهن
هل تبقت واحدة منكن * فاجبنه ان جميع راهبات الدير ماثلات
امامه * اما الاب القديس فقال ان هذا شي غير ممكن * لاني
لست اجد هنا الراهبة التي اخبرني عنها الملك * فحينيذٍ قلن لهُ
انه انما بقيت واحدة ليست بحاضرة امامك وهي ابنة مجنونة تخدم
في المطبخ * فقال الاب ايتينني بها حالاً * فاتين بها غصبًا
وبتحبنها اليه قهرًا * فلما حضرت عرفها الاب القديس من
المنديل الرث الذي على راسها المدعو من الملك تاجًا *
وللوقت جثا الشيخ المحترم على رجليها قايلاً اسالك ايتها الام
المباركة ان تباركيني وتصلي لاجلي * فتحيرت الراهبات وقلن
لهُ انك لضال يا ابانا لان هذه الراهبة ساهية وعديمة العقل بالكلية
فقال الشيخ لهن انكن انتن الجاهلات الساهيات العقل * لان
هذه الراهبة المحسوبة منكن مجنونة هي افضل حكمة منكن
جميعكن * ولينعم الله عليّ في يوم الدينونة بان يكون حظي

نظير حظها *

خبرنا ايضاً القديس غريغوريوس نيصص عن فيلسوف مسيحي يدعي اسكندر * كان حسن الشكل وبهي المنظر جدًا * فخاف من أن يصير جمالهُ سبب عثرة لهُ او لغيره * فتغرب وذهب الي مدينة كومانا * واخذ هناك يشتغل بصناعة الفخر * واستقام في ممارسة هذه الصناعة سنين كثيرة * لم يظهر امام الناس الاّ باثواب مخرقة ووجه مشوه بسواد الفخر * حتي كان يحسب من الناس احقر اهل المدينة وادناهم * فاتفق ان توفي اسقف مدينة كومانا * فاتي القديس غريغوريوس الملقب بالعجايبي ليختار لهم اسقفاً جديداً * فقدم لهُ الشعب اشرف من كان بينهم بالاصل والعلم * اما القديس فقال لهم انه لايجب ان تقتدوا بتعليم العالم وحكمتهِ فقط * بل ينبغي ان تلاحظوا الفضيلة ايضاً ثم امرهم بان يقدموا لهُ اناساً فضلا ولو كانوا من احقر الشعب * فلما سمع هذا البعض منهم اجابوه بهزء قايلين * ان كان يمكن مثل هولاء ان يصيروا اساقفة فلنقدم لقد سكم اسكندر الفخام الذي لايوجد احقر منه في هذه المدينة * فاذ سمع القديس بهذا الاسم امر بالهام الهي بان يحضروه * فلما حضر اخذ القديس على جانب وسالهُ اولاً عن قضايا خارجة * فلما سمع اجوبته استنتج منها انه رجل جزيل العلم والفطنة * فشرع حينيذٍ

يستحسن

يستخبره عما يخص حال نفسهِ وسيرتهِ وطلب منه باجتهادٍ الاّ يخفي عنه شيئاً * فلما عرف امن اعتنقه بمحبةٍ والزمه بقبول الاسقفيّة * فارتسم اسقفاً لتلك المدينة * ولم يسمح الله بان لايكون مكرماً من العالم من قد احتقر نفسه هكذا حباً بهِ تعالي * وليس ان المرؤسين من الانام فقط الذين احتقروا هذا العالم * بل العظما والامرا والملوك ايضاً قد احتقروه واحتضنوا الفقر الانجيلي المقدس * ومنهم كارلوس ملك النمسا * الذى لافراط حبهِ وشوقهِ الي الاشيا السّماوية * دفع سدة مملكته لاخيهِ الصغير وذهب الي رومية بزى رجل فقير وترهب * ولما راى هناك الناس يفتقدونه ويكرمونه انطلق سراً الي ديرجبل كاسين * وباشر هناك وظيفة رعاية الغنم * ولما اتفق يوماً ان غنمة من مرعيتهِ انكسرت رجلها فحملها علي منكبيهِ الملوكية واتي بها الي الدير *

ولكيلا نسهب الكلام في ايراد اخبار كثيرين من الذين جحدوا غني العالم وفخره ليربحوا خيرات السّما ومجده * فنقتصر علي نموذجٍ واحد يغني عن ايراد اخبار كثيرة * فيذكر الانباتوما الكانتيراتي الذى كان عايشاً في عصر القديسة ميتيلدا ابنة ملك سكوسيا * انه كان لهذه القديسة اربعة اخوة * فالاول كان اميراً متزوجاً * فترك امراته بارتضايها ونبذ امريته وخرج من

وطنه ليقتدى بفقر السيد المسيح * والاخر كان في اقليمٍ ما من مملكة ابيهِ واليًا * فهجر ايضًا العالم وقضى حياته في كوخٍ متوحدًا * والثالث كان اسقفًا * فترك ايضًا العالم وترهب في رهبنة سيتو * اما الرابع وهو الاصغر المدعو اسكندر * فاذ بلغ من العمر ست عشرة سنة * كلفه ابوه لان يتعاطى في امور المملكة * فاذ علمت بذلك اخته القديسة ميتيلدا وكانت اذ ذاك بلغت من العمر عشرين سنة * فانفردت بهِ سرًا واخذت تخاطبه هكذا قايلةً * ياأخي العزيز اسكندر * ما بالك مرتضيًا في مباشرة امور العالم * الا تنظر الى اخوتنا الذين بايثوه ليربحوا السما * اما تفتكر انهم تركوا لك ملكًا عتيدًا ان يلقيك في خطر هلاك نفسك وخسارة الملك السماوي * فقال لها اسكندر بعيون ذارفة الدموع * فما الذي تشيرين بهِ اليّ ياأختي العزيزة * انني مستعد لان اتمم كل ما تطلبينه مني * ففرحت القديسة من عزم اخيها * وبمشورتها تنكرا كلاهما وسافرا معًا الى مملكة فرنسا * واذ وصلا الى هناك ادخلت القديسة اخاها في دير ما من رهبنة سيتو ليكون هناك خادمًا على مايدة الضيوف * فلما وجدته الرهبان خبيرًا في عمل الجبن * لان اخته المذكورة كانت علمته ذلك فشغلوه في هذا العمل * واخيرًا مع تمادي الزمان قبلوه راهبًا ليكون خادمًا للاخوة * فقالت لهُ حينيذٍ

اخته ميتيلدا * انه لاشك ياخي في ان الله يكافينا بثوابٍ عظيم *
لاننا حبًّا لهُ تركنا والدينا ووطنا * الآن اجرنا سيكونُ اعظم
جدًّا اذا ما افترقنا احدنا من الاخر بقيّة ايام حياتنا * ونجدنا تعزية
معاشرتنا * لكي نجعل كل سرورنا في الله وحده * فلنبقين
مشاهدة بعضنا بعضًا الي حينما نلتقي في ملكوت السما * فاذ
سمع اسكندر هذا الخطاب * شرع يبكي بدموعٍ سخينةٍ *
مستصعبًا جدًّا مفارقة اختهِ * الآانه ظفر بكل مانع * وافترق
الاثنان افتراقًا كليًّا حتي لم يعد احدهما ان يرى الاخر علي الارض
فانصرفت القديسة ميتيلدا واختفت في كوخٍ بعيد عن دير
اخيها تسعة اميالٍ * وقضت هناك حياتها عايشةً من تعب
يديها وممارسة رياضات الصلوة والتقشفات الجزيلة * ومرات
كثيرة في حال صلاتها كانت تغيب عن حسها وتخطف روحها
حتي انها لم تكن تسمع صوت الرعود ولم ترَ ضيا البروق * واما
اسكندر اخوها فلم يدع احد في كل زمن حياتهِ ان يعرف انه
ابن ملك * الآانه بعد موتهِ تراى لراهب ما كان مبتليًا بدملة
صعبة في صدره * فهذا الراهب اتي يومًا الى قبر الشاب القديس
ليصلي * فظهر لهُ القديس مجدًا منيرًا كالشمس * مكللًا باكليلٍ
بهي علي راسهِ وضابطًا اكليلًا اخر في يمينهِ * وحينيذٍ اخبر
ذلك الراهب بسيرتهِ وعرفه بحالهِ وابن من هو * فسالهُ الراهب

ما هذان الاكليلان * فقال لهُ القديس ان الاكليل الذى في يدى هو الاجر الخاص الذى نلته لاجل تركى اكليل مملكة ابى * والاكليل الذى علي راسي هو الاجر المعتاد ان يعطى للقديسين في السّما * ولكى تعتقد حقيقة هذه الرويا * فها انك تجد جسدك بريًا من الدّاء الذى يولمك * فانتبه الراهب ورای نفسه قد شفى بالكليّة * فاخبر الاخوة بما كان فشكروا جود الله الذى يكلل بالمجد هكذا من اختار الاحتقار اكراما لاسمهِ القدوس *

الفصل التاسع

في ان محبة الله تقتضى منا الاّ ندع انفسنا ان تحب الاشيا الارضيّة

انا قد اوردنا حججًا وادلة كافية لان نحقر كل الاشيا الزمنيّة * ونبعد قلوبنا عن حبها * وذلك لانها حقيرة ذاتًا وعابرة وقابلة التغيير ودنيّة وخطرة * ولان سيدنا يسوع المسيح مخلصنا تعب وتالم كثيرًا ليعلمنا هذا الاحتقار * والان نختم هذا الكتاب بدليل اخر وحجة اخرى لوجوب ذلك فنقول * انه لو كانت الاشيا الزمنيّة اهلًا بذاتها للاعتبار ما * فمع ذلك لم يكن جايزًا لنا ان نحبها البتة * وذلك لان التزامنا بمحبة الله لعظيم بهذا المقدار * حتي انه لا يجوز لنا ان ندع قلبنا ان يحب شيًا اخر سواه * علي

انه من جميع الجج التي تصيرنا ملتزمين بمحبته تعالي * لاتوجد حجة
واحدة لاتلزمنا بان نحبه من كل قلوبنا * والحال ان الجج التي
تلزمنا بذلك لايحصى عددها * فما الذى اذًا نحن ملتزمون به *
فقد كان النبي والملك داود يهتف قايلًا * بماذا اكافي الرب
عن كل ما اعطانيه * وبهذا الفكر كان مهتمًا علي الدوام * مع
ان الله لم يعطه جسد ابنه الوحيد ودمه الاقدسين * ولم يكن
تجسد ومات من اجله * فنحن اذًا الذين صنع الله هذا لاجلنا *
كم بالحرى يلزمنا بان نفتكر ونهتم دايمًا في ان نكافيه تعالي بافضل
نوع ممايمكننا عن مراحمه هذه الفايقة كل وصف وادراك *
اعلم ان المحبة قايمة في العمل والصبر واشتراك الخيرات * فانظر
اذًا اولًا الي افراط محبة خالقك لك * وافهم عظمتها من عظمة
مافعله لاجلك * اعني تجسد الالهى وفدائك * انظر ما يصنعه
لاجلك في جميع الخلايق * تامل كيف يعطى الوجود للعناصر *
والحيوة النامية للحشايش والاشجار * والحيوة الحاسة للحيوانات
والحيوة العاقلة للملايكة * وهذه كلها التي يعملها الله في خلايق
جزيلة العدد والشرف فانه تعالي يصنعها فيك وحدك * لانه
يحفظ وجودك وحياتك وحواسك وفهمك * وهكذا يصنع فيك
وحدك كل ما يفعله في بقيّة درجات الطبيعة * فحقًا ان الله
اثبت لنا محبته بالفعل علي نوعٍ عجيب جدًا * من حيث انه صنع

عظايم مذهلة من اجل من كان يستحق ان يزول ويتلاشي *
لاحظ ثانيًا محبته تعالي لك في صبره وطول اناته * لانه لاجلك
احتمل الامًا وموتًا لامثيل لاوجاعه * ونظير هذا الصبر قد
اظهره سبحانه باحتمال خطاياك * فان كانت المحبة تعرف بالصبر
فماذا تكون عظمة المحبة المقترنة بهذا الصبر العجيب * فلو يتفق
مثلاً ان ملكًا ما ضربه احد عبيده بسيف مرات كثيرة * ومع
ذلك لم يزل الملك يحسن الى عبده هذا ويغنيه بهبات وافرة *
فمن لم يكن يتعجب منذ هلاً من محبة هذا الملك * بل من ذا الذى
لم يكن يظن به انه مسحور * فيالتفاقم صبر الله تعالي * لانه بعد ان
صلبناه باثامنا الف مرة * يحتملنا صابرًا ويحسن الينا منعمًا * تامل
ثالثًا محبته سبحانه باشراكه ايانا بجميع خيراته * لان الاب
الازلي اعطانا ابنه الحبيب والابن منحنا لحمه ودمه * وكلاهما
ارسل الينا الروح القدس الذى يصيرنا بواسطة نعمته شركا
الطبيعة الالهية * فانظر الان هل يمكن ان يوجد او يتصور حب
يوازى حب الله لنا * الذى يشركنا في كل ماله * فان كان المحبة
تكافي وتعوض بالمحبة * فبايت محبة يجب ان نكافي هذه المحبة *
واذا تاملت بعد ذلك بها الله وكماله الغير المتناهى * فترى انه تعالي
اهل لان يحب حبًا غير متناهٍ * ولانه هو محبوب علي نوعٍ غير
متناهٍ * فكان ينبغى ان نحبه بمحبةٍ غير متناهية * ومن ثم لو

يكون

يكون قلبنا قابلاً لان يحب حباً غير محدود * لكان يجب ان
يفرغ كل قوته الغير المحدودة في حب هذا الموضوع الكامل
المحبوب علي نوعٍ غير محدود * والحال ان قلبنا محدود وضيق
جداً * فكيف اذاً نخصص جزءاً منه لشي ما ارضى * ولعمري ان
الجود الالهي يجب لهُ الحب بهذا المقدار * حتي انه كان يجب ان
نتغاضى عن حب ذاتنا لكي يزيد حبنا لله التهاباً * فان كان اذاً
لايجب ان نحب ذواتنا * فكيف يجب ان نلتفت الي حب الاشيا
الارضيّة * فيا ايها الالهُ الغير المتناهي جلال عظمتهِ * ما اكثر
ما تسر وتبتهج نفسي من كونك بهذا المقدار صالحاً * والي هذا
الحد بهياً كاملاً * بل مصدر كل خير * وعلة كل كمالٍ وبهاءٍ *
حتي انه يجب ان تكون محبتي لك مجردة لا من الخلايق فقط *
بل من ذاتي ايضاً * وذلك لكي اضع ذاتي فيك انت الذي منه
استمددت كل وجودي وكمالي * كما يستمد الشعاع صدوره من
الشمس * والما من النبع * ولهذا اذا ما اعتمد الانسان علي ذاتهِ
يسقط * ويحبهِ نفسه يهلكها * اما بتجرده عن ذاتهِ وبغضهِ
اياها * فانه يربحها ويخلصها كما قيل في الانجيل المقدس *
ومن ذلك ينتج انه يجب علي الانسان ان يلاحظ نفسه لا كشيٍ
مختص لهُ * بل كشيٍ متعلق ومختص بكليتهِ نظراً الي الوجود
الروحي والجسدي بالله وحده البحر العظيم الذي هو مصدر كل

وجود

وجودٍ وكمال * ومن ذلك ينتج ايضاً انه يجب ان يكون روحنا
محرراً معتوقاً غير مرتبط بشيٍ * ليستطيع ان يرتقي الي الله
بكل قوة نيته وحبه * اذ لا يجد شيئاً اخر يستحق ان يحب *
وقد يجد فيه تعالي كل ما يوجد من الخير في الخلايق بل ما هو
افضل من ذلك بغير قياس * فاذا ما بلغ الانسان الي هذه الحال *
فانه ولو مهما كانت افعاله مختلفة فتكون نيته وقصده واحداً
لا غير * وقد يبلغ هذا القصد دايماً وهو ان يرضي الله وحده *
ولان الذين يصلون الي هذه الحال لا يفتكرون الا في ان يتموا
مشية الله علي الارض بالكمال الذي به تتم في السما * فلذلك لا يرغبون
شيئاً اخر سوى ان يخرجوا من هذه الارض ويلجوا السما * لكي
ينجوا من النقايص التي تصدر منهم علي الارض في تكميل ارادة
الله * ولهذا حيثما يدعوهم الله لا يجدون شيئاً يصدهم او
يعيقهم عن فتح الباب لمن يقرع * فلنجتهدن نحن ايضاً في
البلوغ الي هذه الحال * مجردين محبتنا من كل شيٍ زمني *
لنضعها جميعها في خالقنا * محبينه حباً قوياً شانه ان يجعلنا
ان نحتمل اثقل الاحمال * وننتصر علي اشد الصعوبات * ونرذل
اشهى الارضيات * افضل من ان ننفصل عن محبته تعالى ونخالف
اوامره وناسي اليه بادني شيٍ * فلتكن اذاً محبتنا قوية كالموت
فلا تفرمنه * بل تمضي الي لقايه حباً بالمحبوب منا * وليكن لهيبها

مضطرماً

مضطرمًا بهذا المقدار * حتي لاتستطيع جميع مياه التجارب
الشديدة ان تطفيه بل تزيد اضطرامًا *
وهذه المحبة القوية من شانها ان تصيرنا ان نحب الفقر * ونرتضى
بالجوع والعرى وافراط الحر والبرد * ونحتمل الافترا والاهانة بحلم
ودعة * ونصبر علي الامراض والاطهادات والتجارب * ونسعف
القريب في ضرورته * ولا نشمأز من اخلاقه * ولا نتمرمر من
تغافله عنا وعدم وفايه * وفي حال اليبس الروحى لانترك شيًا
من رياضاتنا الاعتيادية * لكى يمكننا ان نقول مع الرسول
ما الذى يمكنه ان يفصلنا عن حب المسيح *
فلنعط ذلك بنعمته واستحقاقاته
له العز والكرامة والمجد
الي ابد الابدين
امين

وقد تم طبع هذا الكتاب في اليوم السادس عشر من شهر اشباط
سنة الف وسبعماية واربع وثلثين للتجسد
والحمد لله وحده

BIBLIOTHEQUE ROYALE
BIBL. DE LANGLÈS
ACQUISITION.

D Réserve.

D

9008

INV. RÉSERVE
D 9008

LA BALANCE

DES TEMS

EN ARABE

REL. P. ROZERIAN JEUNE

MAR HHANN

1734